15

فلسفة المواجهة

وراء القضبان

منشورات دار الراية

تقديـــم

ان الثوريين يحبون الحياه وهم لذلك لا يترددون في المخاطرة بحياتهم كيما يصنعوا حياه حرة كريمة لشعوبهم، فالحياه الذليلة الخاضعة للقيود والقمع والاستغلال ليست حياه ، انما هي وجود بائس زري يتعين تغييرهـا . والثوريون الاقحاح هم اؤلئك المرشحون لهيئة أركـان تغييرها وقلب معادلاتها . وفي خضم نضالهم لقلبهـا يتعرضون ويسامون ابشع صنوف التعذيب والقهر في محاولة من السلطات القهريه لكسر ارادتهم وتفريغهـم وتيئيسهم . ولكنهم وهم المشدودون للمستقبل والمرتكزون الى حقائق العصر يثابرون في نضالهم لا يلوون على شيء. فهم مقتحموا السماء وصناع المستقبل .

ويتساقط في العادة من صفوف القوى الثوريـة العناصر الوسطيه قصيرة النفس في ظروف ومحطـات مختلفة . واهم محطة يناقشها هذا الكراس هي محطـة الاعتقال والتحقيق بوصفها محطة مكثفة يتمركز فيهـا الصراع بين القديم والجديد ، بين الحرية والعبودية ، بين الامل واعداء الامل ، بين الثورة والثورة المضادة .

وفي السياق العام تصمد الحركات الثورية امـام آلة القمع السلطوية ، ويصمد مناضلوها ، ويسجلـون مواقف مشرفة تليق بهم كثوريين . ومنهم من يقضـي شهيدا نقي الضمير دون ان يخون رفاقه في أقسى الظروف واحلكها . وهذا أمر طبيعي ومتوقع من الطلائع السياسية ومؤيديها . ويتراكم الصمود ويتنامى في تراث الحركات الثورية والشعب ، ويبني طوبة تلو طوبة في نفسيـة

المناضلين ليأتي يوم يمسي كل مناضل فيه عصي على الكسر . والحركة الوطنية الفلسطينية شرعت في حفر أخدود الصمود منذ زمن ، فقد اجترحت مآثر بطولية ؛ وقائمة الشرف الطليعية طويلة نسبيا . واذا كان الاعتراف لعوامل عديدة ظاهر للعيان وطاغي ، غير ان قافلة الصامدين في نماء مستمر في شروط تحقيق بشعه ووحشيه تنأى عن الوصف .

واعتراف المناضل يمكن تفسيره على النحو التالي : لقد كان وهو وسط الاخرين حين كان محاطا بالرفاق الذين يفكرون مثله قويا لانه يفكر بهم ؛ اما الان وهو معزول وحين يضغط عليه العدو بشدة فقد انهارت كل مقاومة لديه ، لقد اضاع كل شيء لانه اخذ يفكر بنفسه وضحى برفاقه لينقذ جلده . لقد تحول الى جبان ومن جبان الى خائن ... والخائن يخسر اكثر من حياته نفسها. فها هو قد ضاع وتخلى عن الجيش المجيد وكسب احتقار اقذر الاعداء) فوتشيك .

وهذا تفسير علمي وصحيح ، كما يمكن اضافة عنصر اخر هام في حالة قسم كبير من الحركة الوطنية الفلسطينية ، وهو ، تخلف هذه الحركة أمنيا وعدم اعداد وتشريب عناصرها بهذا الجانب، وكونهم فتيان يعتقلوا وهم في بواكير الشباب ١٧ — ٢٠ ربيعا بدون ان يكونوا محصنين بالتجارب الثورية والادلجة الكافية بوصفها دم الصمود الدفاق .

والسقوط في التحقيق ليس وقفا على الشبان ، بل قد يطول ايضا مناضلين مجربين لهم من الخبرة السياسية والاجتماعية الشيء الكثير . وهؤلاء برغم تجاربهم وخبرتهم يكونوا مجرد ملتصقين بالنضال دون ان يملك عليهم كيانهم ، ودون ان يتعمدوا به ، فهم ينتمون بجانب

محدد من شخصيتهم بينما تعيش الجوانب الاخرى حياتها الفردانية . انهم يعطون الثورة هوامش من أوقاتهم واعصابهم وتفكيرهم ، بينما جماع الشخصية في عالم آخر ذاتي ، فلا يربطون انفسهم كيانيا بالثورة ومصيرها، وبالتالي لا يتحدون بها حد الاندماج الكلي . ان شخصيتهم الجمعيه مجزوءه لا تقوى على الصمود امام دعوات الذات لانقاذ فروة الراس .

والمناضل الفسطيني طالما انه عضو في صفوف الثورة تنتظره احتمالات اربعة :—

١ — الشهادة ، وما اعظم ان يتعمد انتماء المناضل بالشهادة ، فهي اعظم درجات التضحية . وثورتنا المسلحة قدمت على مذبح الكفاح الوطني في العقد ونصف الاخيرين اكثر من ١٣٠ الف شهيد . حتى باتت لا تكاد تخرج من شلال دم لتجد نفسها تعوم في شلال دم آخر .

والشهادة قد تكون في معارك الثورة المسلحة التي خاضتها ببطولة منقطعة النظير في الاردن ولبنان ، وفي الاعمال العصابية في الوطن المحتل ، وهذا هو القانون العام . وقد تكون الشهادة على شكل اغتيال سياسي مثلما تكرر مرارا للتخلص من كادرات الثورة ، ومخابرات العدو الصهيوني لها باع طويل في ذلك . كما تكون تحت موجات التعذيب في غمرة التحقيق ، فقد استشهد ٧٤ مناضل فلسطيني فيسجون العدو غالبيتهم في فترة الاستجواب .

٢ — الابعاد ، وهذا السلاح استخدمه العدو لطرد العناصر النشيطة ، وهناك اكثر من ٨٠٠ مبعد تم ترحيلهم خارج الوطن . كما ان العدو يشجع ذووي المحكوميات الخفيفة لطلب الابعاد . هذا علاوة على التهجير والتشريد

الجماعي كما حصل عام ١٩٤٨ ، ١٩٦٧ ونزيف الهجرة السنوي الذي يتجاوز ٢٠ الف كل عام .

٣ ــ الاستخفاء ، بأن يرفض المناضل تسليم نفسه لقوات العدو ويلجأ للاختفاء داخل الوطن لمواصلة النضال. فعدم وجود قواعد محررة بسبب جغرافية فلسطين المحدودة وقوة العدو وعصريته تدفع بعض العناصر الثورية للاستخفاء . وكان لقطاع غزة تجربة خصبة بهذا الشأن .

٤ ــ الاعتقال ، وهو الاسلوب الشائع ، حيثما يتعرض المناضل لارهاب جسدي ونفسي بربري وسنوات من الاسر قد تطول وقد تقصر . وبلغ تعداد الذين اعتقلهم العدو الصهيوني لحد الان اكثر من ١١٠ الف فلسطيني ، بينهم اكثر من سبعة الاف امضوا عشرة اعوام فما فوق لا يزال يقبع منهم ٣٫٥ الف قيد الاسر .

والاعتقال يأخذ اشكال مختلفة كأن يستدعى المناضل بواسطة الشرطة ، او كأن تنصب له مخابرات العدو كمين او اثناء قيامه بمهمة سياسية او عسكرية ، او اسر في معارك واسعة النطاق كما يحدث في لبنان ، أو مداهمة بيته ليلا بما يصاحب ذلك من تظاهرة عسكرية لبث الرعب في نفسية الجماهير والمناضل . والشكل الاخير هو السائد .

وميزان القوى المادي في التحقيق يميل لصالح العدو فهو الذي يمتلك الهراوه والبطش . غير ان المناضل ليس مجردا من كل الاسلحة ، بل انه يمتلك سلاحا لا يمكن محاصرته ، انه السلاح المعنوي : ايمانه ، ارادته المقاتلة، قناعاته ، انسانيته ، اخلاقيته التي تعترك بمرارة مع السلاح المادي .

ورجل المخابرات يرمي من وراء آلة تعذيبه تحطيم المناضل واستحلابه عن آخره ، فهو يرمي الى تحويله كيس مايه (وليمونة) يعتصرها كما يشاء . فهو يسعى لتفريغ ما في جعبته من أسرار وبالتالي سحقه كمناضل والقائه كومه بدون ارادة أو اهداف .

وهو لذلك يحاصره ويعزله ويضغط عليه وينكل به يخالجه اعتقاد ان المناضل سينهار هذا اليوم ويستسلم محطما متفسخا لا روح نضالية او انسانية فيه ، محاولا والايحاء له أن التحقيق معه أبدي وأن لا أحد يهتم بمصيره بينما رفاقه يمضون سهراتهم ورحلاتهم .. والا سبيل امامه للخروج من هذا الجحيم الا تسليم قراره وارادته للعدو !

وقطعا ان (المناضل) المثلوم المتهاوي فقط هو من ينهار تحت ضغط حزمة من العصي ، كما أن الاغبياء وحدهم من يصدقون وعود واحابيل رجال المخابرات . فالتحقيق له نهاية مهما طال واستطال ، ورفاق المناضل لا يتلهون بمسامراتهم ، بل انهم يناضلون وقلوبهم وعيونهم تتطلع نحو رفيقهم مؤملين ان يكون نموذجا صلبا لهم لا يركع . فلا شيء نبضاته اقوى في قلوبهم من نبضات رفيقهم الذي يتضامنون معه بأعمق المشاعر الانسانية ، وهم لا يكفون عن استذكار نضالاته ومواقفه وذكرياته معهم ، ولا يفوتون لحظة الا ويترقبوا أول خبر عنه . فالخبر الاول يختصر المعركة في كلمة واحدة (الصمود) وما أكبر هذه الكلمة وما أكبر الفارق بينها وبين نقيضها .

وعلى المناضل المعتقل ان لا يخذلهم او يخونهم ، وان يحرر نفسه من دائرة الذاتيه التي يسعى العدو لحشره بها الى دائرة الجماعه والثورة . وفي متناول يده

أن يقاوم لحظات الضعف والوهن بأن يستنهض صبره وطول نفسه ، وان تظل عيونه معلقة بشرفه الوطني والحزبي وان يستجمع شريط حياته النضالية والاجتماعية. وجوه رفاقه وزوجاتهم واطفالهم ، وعائلته واصدقائه ، نوادرهم ومفارقاتهم ، اعلامهم وتطلعاتهم ... فذلك يكسبه صلابة على صلابة . انه قادر ان يتمرد على ضغوط العدو وان يمحق حساباته وغطرسته وان يسقط محاولاته لتجسيمه سكين يحز بها رقاب رفاقه .

ورجل المخابرات يستخف بالمناضل صراحة فيقول له (انك لاشيء) (وقد هزمنا مئة مليون عربي) وان اعترافك محتوم اليوم او غدا . بالضرب او الاقناع ، وقد اصبحت بين ايدينا (وبلاش شطاره) ، وينظر بفوقية رعناء تحتقر المناضل ، ضاغطا عليه لانتزاع اعتراف منه. اي أن يخون المناضل رفاقه وان يشي بهم ويطعنهم في الظهر ويزود العدو بسلاح لقتلهم . والمناضل الشجاع يقاوم ذلك تستحفزه كبرياءه الوطنية والحزبية مرددا بينه وبين نفسه (اذا كان هناك ما يمكن التضحية به لقضية فانه الحياه وليس الشرف) . ويكفي ثورة الكرامة الفردية على استعلائية رجال المخابرات المهووسين في عنصريتهم حتى يضار الى رفض التعاون معهم والاستخذاء لهم .

ومن يعتقد أن الانهيار ينقذ فروة الرأس ويخلصه من براثن المخابرات ، فهو جاهل بهم وكمن يهرب من الدب ليسقط بالجب . فكما لا يمكن الاستجاره بالنار من الرمضاء لا يمكن الاستجاره بالاعتراف من المخابرات . وهم يشددون من هجومهم وبطشهم لابتزاز أي تنازل من المناضل ، وما أن يحققوا ذلك حتى يضاعفوا ضغطهم ولسان حالهم يقول ان الجدار بدأ بالانهيار وان اختراقه بات متداركا . بينما المناضل الصلب الذي يقف أمامهم كالطود الشامخ لا يلين ولا يميل يبدأوا هم بالتراجع من

أمامه ، وجرجرة هزيمتهم مستبدلين طاقم تحقيق بطاقم آخر ، وهذه اولى علائم الانتصار عليهم . وكم من مناضل اثبت انه قد من الفولاذ . فالذاكره التاريخيه تختزن عشرات الالاف ، وفي تجربتنا الفلسطينية قائمة طويلة منها قاسم ابو عكر ، نادر العفوري ، عبد الحفيظ زيدان، علي الجمال ، محمد سليمان .

(في كل انسان هناك ضعف وقوة ، شجاعة وجبن ، صمود واستسلام ، نقاء وقذارة ، فالمخلص يقاوم ، والغادر يخون ، والضعيف يتهاون تحت اليأس ، والبطل يقاتل). والمناضل الثوري الذي يضحي بحياته في سبيل وطنه يمتلك اهم عنصر من عناصر التحريض المعنوي للمقاومة والاستبسال وعدم الانحطاط والاذعان. ويدرك أن ما يبنيه هو ورفاقه باعصابهم وسنوات شبابهم لا يجوز التفريط به تحت حزمة من العصي ، ومايصونه ويتكتم عليه ورفاقه بالدم في بداية التحقيق ينبغي ان يصونه ورفاقه بالدم في نهاية التحقيق ، وان لا يتنازل مطلقا . فالتنازل هنا جريمة تعني افشاء اسرار الرفاق والثورة وزرع البلبلة وعدم الثقة في صفوفهم وبين المناضلين والجماهير . ومن كان بطلا قبيل الاعتقال يكون بطلا في الاعتقال ، والبطل من يكون في اللحظة الحاسمة مستعدا لعمل ما يخدم الثورة والقضية .

عوامل تقرير نتائج المعركة

يتعذر سرد جملة العوامل المؤثرة في التحقيق ونتائجه ، فهي كثيرة وليست دائما نفسها ، ولكن اذا تمحصنا اكثر من تجربة يمكننا الوقوف على العوامل التالية :ـ

١ ـ عقائدية الفصيل الوطني وتراثه : فالايديولوجية الثورية تعني فيما تعني صقل فصيل ثوري بوجه عام يتقن بمهارة عملية التعبئة والتسييس بما في ذلك التثريب الامني والاعداد المبدأي للمناضل كما أن تراث الفصيل النضالي والتنظيمي ومواقفه ودرجة رقيه وتماسكه تطبع في المحصلة النهائية العضو بنفس الطابع والمستوى . فتراث نضالي خصب وحزب حديدي جذوره عميقة وخبرانه عميقة لابد ان تشكل مناخا صحيا لتربية وانشاء منظمات صلده ومناضلين صلدين .

بينما فصيلة رخوة ومفككة وفجة بدون تراث ليس بوسعها الا أن تبني عناصر رخوة ومفككة وفجه وبدون تراث . ومواجهة التحقيق كصراع مكثف يقتضي مناضلين صلدين وناضجين وعارفين بأفانين العدو ونظرياته . مناضلين جمعيين ربطوا مصيرهم بمصير الجماعة وايثاريين يضحوابانفسهم على مذبح اهدافهم ، وشجعان يحطموا هيبة المخابرات في اللحظات الحرجة .

ويصعب اذ لم يستحيل على العدو انتزاع اعتراف من مناضل متمرس تعمد بالثورة وعمدها واندمج بها حتى نخاع العظم واتحد معها اتحادا مقدسا لا فكاك منه ، مهما كانت اساليب التحقيق مدمرة وبخاصة مع العناصر والقيادات المسلحة ، لان استئصال روحه اهون عليه من استئصال سر دفين .

وهذا ما يفسر حجم الاعترافات الواسع في صفوف الحركة الوطنية ، فهي فصائل حديثة العهد بالنضال وعناصرها يتسمون بفجاجة سياسية وايديولوجية وتمارس عملا ثوريا عالي الوتائر (الكفاح المسلح) الذي يعني مطاردتها الدائمة بدون فرصة لالتقاط انفاسها ونصب مجزرة حقيقية في حالة الاعتقال لمناضلين شبابيين يافعين . وفي الاعوام الاخيرة وبعدما تراكمت لديها التجربة والتراث باتت مواقفها تتحسن بتدرج وتنامي .

٢ ـ نوعية المناضل وخلفيته الشخصية : درجة ايمانه ووعيه بايديولوجيته السياسية واهدافه الوطنية ووعورة الطريق التي اختارها واهليته لها ، ونمط تربيته السياسية وصحة طروحاتها ، ومستوى نضجه النفسي ومعارفه الحياتيه ، ونقاء معدنه وتماسكه ، وانتمائه الطبقي ونشأته الاجتماعية ... كلها جوانب تجد تعبيرات لها اثناء التحقيق ، وعلى ارضيتها يحقق رجل المخابرات معه مستهدفا اصطياد عناصر الضعف فيه والنفاذ منها اليه .

ان ارادة المناضل تقرر صلابته وثبات مواقفه ، وسمو الهدف الذي يناضل في سبيله ودرجة ايمانه به واتحاده معه تقرر منعة ارادته . فذوي الاهداف الكبيرة الذين يناضلون سنوات بل عقود زمنية من اجلها ينصقلون بآفاقها بينما يتساقط من قطارهم من لايستطيع الاستمرار. ولن يستطيع الداب والاستمرارية الا اصلب المناضلين واكثرهم تضحية .

وبتعميق الوعي الايديولوجي والنضال الدائب الغيور والعمل اليومي، والذوبان في القضية الكلية ودراسة التجارب الثورية والتعلم منها والاندماج الاوسع بالجماهير وهمومها ، تتصلب ارادة المناضل . وان العناصر المسحوقة الرصينة البناء والغير مهزوزة هي الاكثر قابلية

للصمود . حتى بات للعين الخبيرة القدرة على استشراف موقف المناضل في التحقيق قبيل اعتقاله اجمالا .

٣ ــ التكنيك التنظيمي : اي اسلوب البناء والقوانين الناظمة للتنظيم وصيغته الهيكلية وشروط العضوية وواجباتها ... فضيلة تفتقر لقيادات متمرسة ، وقيادات ارتقت الى مواقعها بغفلة من الزمن بقفزات هوائية بدون تدرج ، لا ندحة عن وقوعها في اخطاء قاتلة تودي بها الى التهلكة . وتنظيم مقاتل لا تنفصل فيه التنظيمية السياسية عن التنظيمية العسكرية ويجيز تداخلات كبيرة بينهما لا مفر من اصابته بضربات قاتلة . وتنظيم يكلف اعضائه بمهمات تفوق امكانياتهم ومؤهلاتهم لابد ان يسقطوا فريسة الخطأ وينخوا تحت عبء الحمل الثقيل . وتنظيم لا يراعي مبادىء السرية الداخلية والخارجية لن يستطيع تورية امتداداته المنزوعة الغطاء . وتنظيم علني يمارس نشاطه في بحبوحة وتتأسس نفسيات اعضائه في البحبوحة لن يقوى على الصمود في حالة انحسار البحبوحة والمطاردة . وتنظيم يختزل نفسه في مركز نقابي وجماهيري تركيبته الداخلية اضعف من ان تصمد في وجه حمله اعتقالية واحدة في حالة انتقالة الى نضال جدي . وتنظيم يلملم عناصره من قارعة الطريق بمقاييس كمية قطعا سيغرقه هذا الكم المشوش في حمأه لا قرار لها . وتنظيم الفوضى الداخلية والتسيب تنخر عظامه كالسوس سيسهل كسر عظامه (يوم الحشر) . فخطأ صغير في الزمن العادي له آثار تخريبيه هائلة وقت التحقيق ، وبخاصة الفصائل المطلوب راسها من جانب الاحتلال .

٤ ــ طبقية التنظيم : فالمحتوى الطبقي للفصيل هو عامل العوامل الذي يقرر ايديولوجيته السياسية وتكنيكه الحزبي وعقائدية اعضائه ونوعياتهم وجذرهم النفسي .. فالفصيل البرجوازي مهما ارتقى بفنون عمله ومهما

ارتقت قيادته البرجوازية سيبقى ضيق الافق ولن يبلغ شأو حزب عمالي بقيادات عمالية وتجربة اممية . فلكل طبقة طبيعة مستمدة من واقعها الاقتصادي والايديولوجي. والطبقة العاملة هي الاكثر انسجاما وثوريه واحزابها هي الاكثر مراسا ومهارة سياسية وابنائها هم الاكثر نقاء نفسي وغيريه ثورية .

صحيح ان بعض الاحزاب الفاشية او الدينية او البرجوازية قد بلغت مقصدا متقدما من الوحدة والتماسك، وصحيح ايضا أن بعض المنظمات اليسارية قد تفككت تحت الة القمع ، ولكن الصحيح ايضا انه كلما خطت الاحزاب اليسارية خطوة للامام في اتجاه تطوير نضالاتها ووعيها الايديولوجي وكلما خطت خطوة باتجاه ابراز كادرات عمالية الى مستويات القيادة كلما تفولذت اكثر وردمت ثغراتها وتصلب عودها . وفي التحليل التاريخي الاخير وبقطع النظر عن نواقص الطلائع العمالية نقد برهنت على بطولتها في اقبية التعذيب وأورثت المناضلين دروس مشرفة لا يمكن اغماض العين امامها .

٥ ــ ظروف الاعتقال : الظرف ، اي ظرف ، يترك بصماته على الانسان . والمناضل الانسان الذي يعتقل وبحوزته قرائن مادية (سلاح ، مطبوعات ، وثائق ...) أو يصطدم بالتحقيق بأدله دامغة من جراء اعترافات غيره عليه ، يكون موقفه اكثر صعوبة من مناضل يعتقل من باب الشبهة ، ويكون مدعوا لصمود مضاعف لرد هجوم المخابرات عليه وتفشيله . وما يزيد الطين بله ان تستقدم المخابرات أحد المنهارين للشهادة والاعتراف على مناضل صامد .

والمعروف ان جهاز مخابرات العدو قسمين ، الاول، دماغ معلومات ، والثاني للتحقيق الاول يجمع المعلومات بواسطة المخبرين والاعترافات ليستخدمها الثاني في التحقيق . وهناك خط فاصل تقريبا بين استجواب يقوم على اخباريات وشايات غير مؤكدة وبين اعترافات

ومستمسكات مادية مؤكدة . في الحالة الاولى يسهل النفي والانكار بالقليل من الصمود ، فرجل المخابرات يكون خالي الوفاض مرتبكا ، وفي الحالة الثانية يتطلب النفي والانكار صمودا اكبر . والمناضل الذي يعتقل بأدلة ثابته عليه تختصر مسافة المناورات والحيل بينه وبين رجل التحقيق حيثما يفاضل في العادة بين الاعتراف السريع او البطش والتنكيل . فالمخابرات هنا تلجأ للضرب بدون مقدمات طويلة . واشداء المناضلين والحال هذه يؤثرون المجابهة على الاستسلام والقبول بالعذاب والضرب على التفريط بالشرف الوطني والحزبي ، وهم يرفضون التجارب والتعاون مع العدو . اما الوسطيين الضعفاء فيختارون الذات على الجماعة والاستخذاء على التحدي ، والمهم ان ينجوا بجلودهم (ولتحترق روما) .

وسواء كان المناضل مخترقا ام هاويا بوسعه رد اية ادلة ضده والخروج من هذا المأزق بشرف . والامثلة لا تعد ولا تحصى . كما ان هناك طراز اخر من انصاف المناضلين الذين اعترفوا وركعوا ولكن ما ان وعوا خطيئة مسعاهم حتى تمردوا ثانية ، ومنهم من حالفه الحظ ومنهم من فشل . وهذا يعهد بمسؤولية مزدوجة على المناضل الصامد ، بانكار اعترافات غيره عليه وانتشال هذا الغير من مستنقع الانهيار ، وذلك بتسجيل النموذج الثوري الذي لا يخني هامته للاعداء . وان افضل رد على شهادة منهار هو توبيخه (انت كاذب مأجور ، واغرب عن وجهي) ورفض التعاون معه حتى ولو توسل وناح . فذلك يشد من أزر كلاهما وقد يدفع المنهار الى التمرد ثانية . وان التمرد بما يعقبه من ضغوطات شرسة افضل مئة مرة من ان يستحيل المنهار كرباح يجلد به العدو رفاقه .

١ — موقف المسؤول : المسؤول في اي تنظيم يحيط بالكثير من مفاتيح واسرار العمل . وهذا يجعله محط

عسف وتمع اكثر من غيره . فالمسؤوليات التي هي شرف ونضال من وجهة نظر الثورة هي خطر واستنفار من وجهة نظر العدو . وشرف المسؤول ان يصون مسؤولياته كما يصون بؤبؤ عينه وان يقود معركة التحقيق بنجاعة مثلما يقود مسؤولياته بنجاعة . وان صموده يشحن رفاقه بزخم معنوي هائل ويجنبهم هوان الاعتقال الجماعي ومذلة مواجهة الواحد منهم الاخر ! والمسؤول يظل كذلك طالما حافظ على مسؤولياته ، ولكنه يسقط من العلياء الى الحضيض حالما يخونها ويعرضها للخطر . انه نموذج يحتذى به طالما ظل صامدا وهو نموذج منبوذ حالما يسقط في درك الاعتراف . والقائد الحقيقي لايسقط ابدا .

ومثلما ان للقائد اثر معنوي ايجابي على رفاقه في حالة الصمود فهو ايضا له اثر بالغ السلبية في حالة التهاوي . فأن تهاويه يهودي في صدور رفاقه وجلا ورعبا ، واسرار النضال التي كانت قلعة صماء استحالت ارضا مستباحة . وبعد ذلك استجابة واعية او غير واعية لمقاصد الاعداء . كشف الاسرار وترويع المناضلين .

ولكن رفاق الدرب الذين احترموا وتنمذجوا بقائدهم وقتما كان قائدا لا ينبغي ان يزلزلهم اكتشاف ان قائدهم مزيفا . فالموقف العلمي يقتضي التمسك بجوانبه الثورية ونبذ جوانبه السلبية . وكونه خان رفاقه فان تطهيره من صفوف الحزب بات ملحا . وفي ظروف التحقيق يمكن هضم هذا العار ، فصمود الرفاق وولائهم للثورة ليس مرهونا بصمود او انهيار افراد ، بل ينبع من القناعات الداخلية في جوف كل رفيق ، ولا يجوز بحال من الاحوال تنفيذ مخطط العدو الذي يحاول تصوير انهيار المسؤول بأنه انهيار كل شيء . فالقائد لا يعادل الثورة وان سقوطه لا يعني سقوط النضال والثورة . فعربة الثورة سائرة والولاء اولا واخيرا للشعب والوطن وليس للافراد المنخورين الذين كانوا قادة .

التحقيـــق والتكويـــن الانساني

تعي مخابرات العدو ان الانسان ليس جســـدا وحسب ، بل ايضا عقل ونفسية . وهذا يجعلها لا تتورع عن اتباع أخس واحط الاساليـب لتحطيـم الانســـان الفلسطيني كنفس وعقل واعصاب وجسد بهدف انتـــزاع الاعترافات وتدميره كمناضل .

وهي لتسهيل مهمتها تحتاج الى معرفة قبليه عـــن المناضل الاسير ، مفاهيمه ، واقعه الاجتماعي ، اخلاقياته .. وسعيا وراء هذا الغرض تجند عملائها وارباب العمل الصهاينة لرفع التقارير عن الاشخاص الذيـن تعتـــزم اعتقالهم . وتوظف ما لديها من اسلحة وخبرات للتعذيب الجسدي والتعذيب النفسي والتعذيب العقلي ، وان اي اعتراف تنتزعه عنوة او بالخداع ترى فيه انتصارا لهـــا ومسوغا لمواصلة العملية التعذيبية .

وعمليات التعذيب لا تبدأ كما يعتقد البعض فـــي غضون فترة التحقيق فقط ، بل تبدأ في اليوم الاول للاحتلال عام ١٩٦٧ وقبل ذلك . فالعدو يطلق حرب نفسية معقدة ضد جماهيرنا ومناضلينا قبيل اعتقالهم ويواصل ضغوطه ا حواجز تفتيش ــ منع تجول ــ مظاهـر عسكريـــة واستعراض قوة ــ عدم استقـرار وفقـدان أمـن ــ بيروقراطية في المؤسسات الحكومية ــ تشجيع الرشوة والفساد والاحتراب العشائري والطائفي ــ ضغـــوط اقتصادية وتعليمية ــ بطالة متنامية ... وباختصـــار احتلال . كل ذلك لاستنزاف الطاقة الحيوية لدى الانسان الفلسطيني .

والقهر القومي والثقافي والطبقي والانساني اليومي لشعبنا وحرمانه من تجسيد حقوقه الوطنية بالتحـــرر والاستقلال ، وما يتولد من ذلك من متاعب يومية لكـــل مواطن فلسطيني ، وما يبرمج له العدو من احباط جماعي لشعبنا واذلال متواصل في قدرة شعبنا على الانتصار ، وما يمارسه عن دراية في عدم تيسير امور المواطنين في المؤسسات الحكومية (تصاريح ــ هويات ــ رخص ــ تعليم ــ صحة ــ خدمات ...) وفي عدم توفير فـــرص عمل لحياه مكتفية ... كل ذلك القصد منه استنـــزاف القوة الحيوية لدى الانسان الفسطيني وخلق حالة احباط جماعية لدى شعبنا ، بأنه عاجز ، ضعيف ، مهـزوم ، فاشل .. وان عملية تخزين الفشل والعجز وتقادمهـا وتواصلها وتراكمها عاما بعد عام يفضي الى عدميـــه جماهيرية يائسة . وهذا بالضبط غرض الاحتلال من حربه النفسيـــة .

وهو كيما ينجح في حربه هذه يحتاج الى عطاء مـــن موظفين عرب في المؤسسات العامة ليمارسوا دور الاباطرة والملوك في احتقار المواطنين وتأخير مشاغلهم ، والـــى طابور خامس وعملاء لبث الاشاعات وملاحقة الناســـ بالاضاليل والمخاوف ، عـــلاوة عـــلى دوره القمعـــي والاستبدادي المباشر .

واثناء فترة التحقيق تحاصر المخابرات المناضـــل بشبكة من الضغوط ، العزلة ، الوحدة ، التهديـدات ، الارهاب ..) في نفس الاتجاه ولنفس الغرض .

وهزيمة الحرب النفسية تكون بالتنفيس والتمرد . فتركيم الاحباط والفشل هو الطريق الذي يقود الى اليأس والهزيمة الداخلية وبالتالي الاستسلام والانهيار الخارجي بينما التنفيس والتمرد على كل اهانة وكل فشل والـــرد

عليها بالمقاومة والتحدي يقود الى الثقة بالنفس والصمود والانتصار في نهاية المطاف .

وقد تنبه جهاز مخابرات العدو لذلك ، فهو في تكوين طواقم التحقيق ودوريات الجيش وطواقم الموظفين .. يزرع رجال اشرار بطاشين لا يعرفون الرحمة ورجال (أخيار) ودودين لامتصاص النقمة والحيلولة دون تنفيسها بالتمرد والرفض . الاوائل يبطشون والاواخر يمنعون التنفيس بكلمات (وديعة لا تخلو من كياسه) . ويلعب هذا الفريق (الانساني) دور صمام الامان لمنع خزان الاحباط المتراكم في النفس من التنفيس . مع الاستدراك ان كلاهما من جبله وسخه واحدة يقتسمان ادوارهما ويتناوبانها تباعا .

ولارهاق المناضل واستنزاف طاقته الحيوية التي تتحكم في ردود فعله يستخدم العدو وسائل اخرى اكثر وحشية ومباشرة كالضرب المبرح او الضرب على اماكن حساسة او الشبح او اجبار المناضل على القفز والركض او الوقوف ايام عديدة او الحرمان من النوم لعدة ايام ، او ملاحقة المناضل باسئلة متعددة في نفس الوقت او الصراخ والشتم عليه .. كلها وسائل لاستنزاف الاعصاب وارهاق الدماغ والانهاك العام . وصولا الى قطف الثمار وهي واهنة متعبة .

كل ذلك يتم وفق نظريات ومفاهيم علمية . فالجهاز العصبي عالي التعقيد والمتمركز في الدماغ بوصفه اكثر الاجزاء تطوراوتنظيما يستجيب ويتأثر بأية ارتكاسات ومؤثرات خارجية . فحواس الانسان الخمس تعكس الواقع الموضوعي وتنقل منعكساته بواسطة الاعصاب الى الدماغ لتحليلها وبالتالي الانفعال لها والرد عليها . والانفعال قد يكون ظاهريا بتصرف ما (وباطنيا بافراز

هرمونات حيثما تتسع الشرايين مثلا ممايزيد من تدفق الدم وبالتالي هبوطه ونقصه الامر الذي ينعكس سلبا على الجهاز العصبي الذي يستهلك نصف دم الانسان ، وكنتيجة على الدماغ وكل الاجزاء الداخلية (معدة ، رئة ...) . وهذا ينهك الدماغ والاعصاب ويثير الاضطراب فيهما كفرصة مناسبة لرجال المخابرات لذبح ضحيتهم .

كل هذه الحرب المعلنة على الانسان الفلسطيني عشية وغداة الاعتقال تستهدف استنفاذ طاقته الحيوية واتعاب اعصابه ودماغه ونفسيته ، ليكون لقمة سائغة لهم !

ولكن المناضل الفلسطيني ليس عاري اليدن ، فهو بوسعه التمرد كما ان عزيمته وارادته تمدانه بغذاء معنوي لا يستطيع العدو الاطباق عليها . فكم من مناضل اطبق فمه وحطم اساليب العدو ونظرياته الفاشستية .

وهناك اخيرا حيلة مستهليكة يتوسلها العدو لخداع المناضلين تدعى (البوليغراف) . وهي منشأه مكونة من اجهزة بسيطة ، جهاز لقياس الحرارة واخر للضغط وثالث للتنفس .. وهذه الاجهزة توصل بجسم المناضل لقياس وظائف جسمه . وحينما توجه له اسئلة عادية تسجل مؤشراتها وبين الاسئلة العادية يحشر حول قضية التحقيق (اسلحة ، منظمات ..) لتسجل مؤشرات ايضا . وهنا تقارن المؤشرات الاولى مع الثانية لكشف الصدق من الكذب ! ولكن هذا الجهاز ينطوي على اداة تكذيبه ، فهناك احتمال ان يخاف المرء منه او من رجل التحقيق أو قد يتصور مشاهد مزعجة أو مخيفة ، وكل ذلك يبلبل الجهاز و ..

المبـــدء الوحيـــد

في التحقيق يرمي العدو الى خلق حالة تعاون بـين المناضل ورجل التحقيق ، بأن يأمره فيطيع .. وبالنهاية يأمره فيجيب ، مستغلا هيبته كرجل مخابرات وما لديه من وسائل ترهيب وخداع . وما أن يرفض المناضل اوامـره ويتحداها حتى يسقطا هذين الشرطين الضروريين لعملية التحقيق . والمبدأ الوحيد هنا هو رفض التعاون واسقاط حاجز الخوف والرهبة . وحالما يتحدى المناضل جـلاده مرة يستطيع ان يتحداه مرات . ومهما اشتدت قساوة التحقيق فان السعادة كل السعادة تكمن في عدم احنـاء الراس لعدو والهبوط من الزنازين الى اقسام السجـن مرفوع الهامة والهمة ليكون مضرب المثل في الشجاعـة والاقـدام .

وحرية المناضل مهما قيدتها اسوار السجن تكمن في فهم قوانين الاعتقال والتحقيق وتجييرها لخدمة الصمود والثورة . وما دامت ثورتنا حق ونضالنا حق فان الدفـاع عن هذا الحق حق . وان التضحية في سبيـل الحـق والحقيقة هي بداية الحرية .

والحركة الوطنية الفسطينية بعد هـذا التـراث الخصيب والتجارب المريرة بما تكنزه من انويه مشرفـة في التحقيق حان موعد مغادرتها دائرة الرعب والانتقـال الى دائرة الجرأة . وان الامساك عن كتابة الافادة هـو خط نضالي يتعين رعايته وتعميده بالدم . فالاعترافـات والافادات هي السلاح الاكثر فتكا لضرب الحركة الوطنية في الداخل .

وخط يحظى بهذه الدرجة من الاهميـة خليـق الاهمية خليق بالدراسة والتوعية والتغذية والتحصـين والمحاسبة على كل من يخل به . ان الوقوف انتقاديـا امام تجربة الحركة الوطنية وتجربة كل مناضل في التحقيق واجب ملحاح لفرز القمح من الزؤان . وليكن الموقف في اقبية التحقيق متساوقا مع منسوب تضحيات الثـورة وبطولتها وليكن بحجم الوفاء لعدد شهدائها ؛ وليكـن بصلابة البندقية طريق الخلاص الوطني الوحيد .

هذا ما يناقشه ويشرحه باسلوب بارع وميسـور هذا المؤلـف .

مقدمـــــة

تعتبر تجربة التحقيق من اهم التجارب التي يعيشها المناضل الفسطيني الرازح تحت نير الاحتلال ، فهـــي التجربة التي يقف فيها منفردا ، بلحمه ، ودمه ، في وجه آلة القمع الفاشية ممثلة بطواقم وادوات ووسائل واساليب التحقيق . وهي التجربة التي يمكن ان تمر بسلام علـى المناضل ورفاقه ، أو يمكن ان يتخللها اغلاط وانهيـارات تلحق اكبر الضرر بالحركة الوطنية ، والمناضل نفســه ، ماديا ومعنويا ، وتقدم أجل الخدمات لقـنوات القمـــع الفاشية من معلومات ، واخبار ، وطرائق تفكـــير ، واسرار ، ومناضلين ومواد نضالية ، وازمات ثقة بـين المناضلين .

وما دام الامر على هذه الصورة ، فان موقف المناضل في التحقيق ليس عاديا من زاوية خطورة نتائج التجربة ، ومن زاوية انها تجربة نضالية مكثفة أشد ما يكون التكثيف مهما كانت اوضاع المناضل ومنزلته النضالية وحجـــم الاسرار التي في رأسه ، هذا التكثيف الذي يتجلى مـن خلال عملية التحقيق بطرفيها المتصارعين : المناضل ومـا يحيط به من اسرار ، وطرائق بوصفه تجسيدا حيا لقطب كامل من اقطاب الصراع الوطني ، والقومي في مواجهـة مندوبي الفاشية ، طواقم التحقيق بوصفهم الاداة الضاربة والمعبرة عن مصالح القطب الاخر ، الاحتلال والرجعية .

وعلى ذلك فان دراسة التحقيق تكتسب اهمية كبرى : فالمواطن الفلسطيني المكافح معرضا للتحقيق في كل اماكن تواجده وكل مراحل حياته ، وكذلك فالحركة الفلسطينيـة كانت ولا تزال تعاني من نتائج تجارب التحقيق الشـيء الكثير . وسلطات الاحتلال تهتم أشد الاهتمام بهـــذه المسألة وتوليها عناية فائقة لما حققته عن طريق التحقيق

من عظيم الفائدة لها ، وبسبب الضربات القوية التي استطاعت توجيهها للحركة الوطنية الفلسطينية على ايدي رجال التحقيق ، بل على ايد المناضلين الفلسطينيين انفسهم الذين قدموا الخدمات الجليلة للاحتلال باعترافاتهم ووشاياتهم عن رفاقهم ، وعن اشياء كثيرة وخطيرة .

وتكتسب دراسة التحقيق اهمية اخرى بالغة ، من حيث أن المناضل الذي لديه درجة مل الالمام بمجريات التحقيق عبر عمليات التعبئة الوطنية والنضالية التي يحتاج لها لن يكون ابدا لقمة سهلة في بلعوم العدو .

وبالرغم من هذه الاهمية الفائقة لدراسة التحقيق واساليبه ، وبالرغم من الخبرة الهائلة التي عاشها مناضلو الحركة الوطنية الفلسطينية في فلسطين فان هذا الباب لا يزال بحاجة الى مزيد من الطرق ، ولا زال المناضل الفلسطيني متخلفا في الالمام باسط مسائل التحقيق . ويعود ذلك الى :

١ ــ النقص في الدراسات العلمية المتوفرة وايـة كراسات ونشريات تناول هذه المسألة .

٢ ــ النقص في المراجعة ، والوقفات النقدية التي على الحركة الوطنية بكافة فصائلها وقوفها للتعرف على اسباب الضربات التي تتعرض لها ووضع السبل لمعالجتها .

٣ ــ درجة الاعداد والتأهيل التي يتلقاها المناضل عندما يلتحق بالاطر الوطنية .

٤ ــ آليه العمل النضالي بصورة عامة وطرائق ترتيبه في مواجهة الاحتلال واجهزته القمعية بما فيها اجهزة التحقيق .

٥ ــ مستوى الاهتمام المحدود بهذا الجانب .

هذا مع العلم ان مسألة التحقيق مسألة يومية ، وان عشرات الالاف من ابناء شعبنا قد تعرضوا لها ، وان مصادر البحث والدراسة خصبة ووفيرة ، وان الكثير من الضربات الهائلة التي تعرضت لها الحركة النضالية نشأت عن الانهيارات في التحقيق ، وان عملية التحقيق عموما كعملية قمعية يواجهها كافة المناضلون في الكثير من البلدان ويمكن التعرف بالتالي على اساليب التحقيق وطرائق مواجهتها ، وان عملية التحقيق ذاتها على جانب عظيم من الاهمية في حسم المناضلين وتصليبهم اذا ما اجتازوها بنجاح ، أو سقوطهم ، وانهيار معنوياتهم عندما يفشلوا فيها ، وتقديم نموذج سلبي للاخرين . بالاضافة الى ما يمكن ان تقدمه عملية التحقيق الناجحة من وجهة نظر جهاز التحقيق المعادي من حوافز للمحتل للاستمرار في احكام السيطرة والبطش ضد المناضلين والوطن ، واستمرار معرفته باللوحه الوطنية عن قرب بما فيها من اسرار والية عمل وآلية تفكير ، ونوعية مناضلين .
ولو شاءت الحركة الوطنية الفلسطينية ومفكريها لصاغوا تجربة التحقيق ، ونظريات الصمود والصراع في الاقبية على خير وجه ، من تجربتهم وتجربة الثوريين في انحاء العالم ، وعمموا خبراتهم بالارتباط مع الخبرات الثورية مما يقدم مادةدراسة واطلاع للجماهير والمناضلين خاصة،
ان الملم المناضل الفلسطيني باساليب التحقيق واشكاله المختلفة يساعده مساعدة كبرى واكيدة على الصمود والمقاومة في وجه أجهزة التحقيق الفاشية مما يجنب الحزب او الثورة أو الحركة الوطنية عموما والجماهير معها ، نتائج الضربات والانهيارات ، كما ان المناضل يسهل عليه الافلات من براثن وخدع ومطبات رجل التحقيق سهوا أو سذاجة ، رجل التحقيق هذا الذي يحصر اهتمامه في احيان كثيرة في مسائل هامشية (ظاهريا) ويركز على مسائل اجتماعية ، أو اسئلة سياسية عامة او اقتصادية ، او سلوكية وشخصية تبدو انها لا علاقة

لها بعملية التحقيق والصراع الضاري المتجسد فيها ، وفي الواقع تشكل معلومات كهذه للعدو مستندا يمكن ان يدخل بواسطته الى مداخل خطيرة ، كما يمكنه من التعرف على البيئة العامة والخاصة ، والحالة النفسية والعادات والتقاليد والاهتمامات وغير ذلك من الضروريات للطرف الاخر في الصراع . بينما اي مناضل عرف الارتباط سلوك المحقق واسئلته مهما كانت . واهدافه النهائية سوف لن يقدم له هذه الخدمة ، وبالتالي لن يتمكن المحقق من رواية قصة عادية (انت وفلان اصدقاء ، وهو يحب فلانة ، وفلانة صديقة علانة) وبعد ان يروي قصة كهذه يدعي انه يعرف كل شيء ويضع المناضل قيد التحقيق في موضع المكشوف تماما والعارف بالخفايا والاسرار ، فيقع المناضل الساذج في المطب ويروي ما لديه او بعض منه .

اذا كانت عملية التحقيق تجسيدا مكثفا لحالة الصراع بين الحركة الوطنية ورموزها وابطالها من جهة ، ورجال التحقيق وسلطاتهم وحكومتهم من جهة اخرى فلا بد اذن من الخوض في معرفة النظرية التي تحكم هذا الصراع وقوانينه . فما هي نظرية التحقيق .

نظرية التحقيق

تدرس نظرية التحقيق ، عملية الصراع الضاري في مضمونه ، وغالبا الضاري في اشكال تجسيده ، الدائرة بين ممثلي الحركة الوطنية ، والمحققين في اقبية التحقيق ، هذا الصراع ، بوصفه استمرارا وتركيزا للعملية النضالية ، (الصراع) الدائرة عموما بين الحركة النضالية ، فصائلها ، واحزابها واجهزتها ، ورموزها ، وبين السلطات الرجعية ، القمعية ، الفاشية (الاحتلال) واجهزته الامنية (الجيش ، والشرطة ، والمخابرات ، والاجهزة ، والثقافة ، الحضارة ، والسياسات والاهداف ، والممارسات) والتي تأخذ مجراها عبر كافة اشكال النضال العلني ، والسري ، المشروع ، وغير المشروع ، العنيف ، والسلمي ، المادي ، والنفسي والمعنوي ، هذه الاشكال المستندة على الوضعية النضالية والحضارية والثقافية والنفسية والمعنوية لكلا الطرفين . ويكون الصراع في اشده (تناحريا) حينما يكون هدف كل من الطرفين ، الاجهاز نهائيا وبصورة تدميرية على الطرف الاخر ، عبر خطط تكتيكية أو استراتيجية ، وعبر مختلف المراحل الهادفة الى الوصول للنتيجة المحتومة .

وعندما نحصر الحديث عن حالة الصراع في اقبية التحقيق ، فانه يجري بين رجل التحقيق (اجهزة التحقيق عموما وبصورة مباشرة من خلال اللجان المختصة) وشتى الاساليب والادوات والفنون والالاعيب التي يتبعها ، وبين المناضل الثوري المعتقل وشتى الاساليب التي يرد بها على المحقق وطرائقه مدافعا عن صموده .

ولان هدف كل منهما الوصول الى نتائج هامة وضارة أو معطلة للطرف الاخر ، ولان كل منهما ممثل مباشر لطرف من اطراف الصراع التناحري فان التضاد

بينهما تناحريا دون شك بالمعنى النسبي للكلمة ، حيث يهدف المحقق الى تفريغ المناضل من محتواه الوطني والطبقي والاجهاز على موقفه النضالي ، بينما يهدف المعتقل الى الصمود وتفويت هذه الفرصة ، وبالتالي حماية نفسه وحزبه وحركته الوطنية من ضربات العدو .

وهكذا : فالمحقق في قطب ، يدافع عن ما هو قائم ويسعى الى تعزيزه عن طريق اضعاف القطب الاخر . مسلحا بتعبئة وثقافة ، ومحفزات ، ونفسية ، ومعنوية واعداد يخدم مصلحة القطب الرجعي في الصراع ، ويمارس اساليب فنية ووحشية فاشية بغية النيل من القطب الاخر .

ورجل التحقيق هذا يمارس دوره بصفته مستخدما (موظفا) لصالح نظام الحكم المعادي ، الذي وظفه وقام باعداده لمهمة رجل التحقيق ، ويطالبه بالنجاح في مهمته بوصفه اداة وركيزه من ادوات وركائز الحكم . ومن اجل ذلك يزوده بالمعرفة ويعبئه ويقدم له الاغراءات ، ويمنحه الصلاحيات اللازمة لتطبيق اساليب التحقيق المختلفة ضد المناضلين من اجل ابتزاز المعلومات ، وتوصيلهم الى حالة اليأس من النضال او الانهيار التام ، هذا الهدف الذي لا يمكن الوصول اليه الا في حالة تردي وضع المعتقل جسديا او نفسيا كليا او جزئيا .

والمناضل قطبا مضادا : وهو الوطني المكافح من اجل الحرية ، مستندا على قضيته العادلة ، وردا على الحالة العامة التي يعيشها في مجتمعه او يعيشها وطنه ، مدافعا عن تلك القضية بقواه الجسدية والعقلية ، النفسية والمعنوية ، بدرجة من الصلابة تتلائم مع وضعه الشخصي وتكوينه الفردي ، وعمق ايمانه بقضيته وعدالتها ، وعمق فهمه وارتباطه بالمباديء النضالية التي تلتزم بها حركته النضالية ، ودرجة اعداده وصلابته على وجه الخصوص ، ومدى حرصه على رفاقه وحزبه ، وفهمه الحسي والعميق لضرورة عدم الادلاء بشيء من

شأنه ان يعرض الرفاق لما هو فيه ، أو يعطل او يبلبل اليه عمل الاجهزة والمنظمات ، التي ينتمي اليها ان سلاح المناضل في أقبية التحقيق بالدرجة الاولى هو صبره وصلابته المرتكزين على فهم اولي ، او عميق لما يجري في اقبية التحقيق . وسلاحه ايضا عزته وكبرياءه الوطنية وعمق انتماءه الوطني والعقائدي .

وبين القطبين المذكورين اعلاه يجري الصراع المكثف ويرتدي الطابع العقائدي في مداه الاستراتيجي ، بين ارتباطات عقائدية متناقضة تكثف وتركز طبيعة القطبين في اوضاعهما الملموسة ، حيث ان خصائص كل قطب تؤثر على عملية الصراع التي هي في التحليل النهائي وعبر تطورها ومراحلها ، نتاج لقدرات وفعاليات وقابليات وسمات ، وردود فعل كل من القطبين بشكل مباشر ، وما يمثله كل قطب من خلال العملية نفسها .

وما دام المعتقل قد القي عليه القبض فان الصراع قد بدأ يأخذ مجراه ، ولا بد من حسمه لصالح احد الطرفين كليا أو جزئيا . ويجري حسمه باوجه عديدة ، وحالات ووسائل مختلفة يستخدمها كلا الطرفين — المحقق بشكل اساسي . وفي صراع كهذا لارجحية أن ينتصر الاقوى عقائديا ، الاقوى ارتباطا ، الاعمق مبدأية ، ينتصر الاكثر ايمانا ، ينتصر المناضل اذا صمم على الصمود والانتصار . ينتصر المناضل اذا ظل في جميع مراحل التحقيق واضعا صوب عينيه ان يصمد ، وعارفا باهداف المحقق مهما كانت الصورة التي يظهر بها ، ومصمما على عدم خيانة رفاقه ومنظمات حزبه وحركته الوطنية ، مصمما على عدم خيانة شعبه او الخروج من صفوفه . مع ملاحظة ان رجل التحقيق في النهاية هو موظف يقوم بواجبه الروتيني في اغلب الاحوال وقوته نابعة من وضعه العام ، والسلطات التي تحيط به . بينما المعتقل هو مناضل من اجل قضية عادلة لا يهمه ان يفنى في سبيلها . بالاشارة الى ان المناضلين ليسوا نموذجا واحدا وانما

يتفاوتون في مواقفهم في التحقيق تبعا لصمودهم واعدادهم وصلابتهم ووعيهم وفهمهم لعملية التحقيق ، ودرجة تصميمهم على الصمود مهما غلت التضحية ، وقست الظروف ، لمعرفتهم الاكيدة ان مرحلة التحقيق التي بدأت لابد وان تنتهي ، فيجب ان تنتهي بشرف وبطولة .

في عملية الصراع البطولي هذه التي يخوضها المناضلون ، يثبت رجال التحقيق في مواقعهم ووظائفهم فترة محددة من الزمن ، ويمر عليهم العشرات وربما المئات من المعتقلين الذين يتعرضون للتحقيق ، مما يساعد على اكسابهم خبرة ودراية ومعرفة بطبيعة المعتقلين ونماذجهم ، ونفسياتهم ، بينما يتلقى المعتقلون خبرتهم وصلابتهم من النماذج التي سبقتهم ، والمعارف التي احاطوا بها ، مع العلم — كما ذكر اعلاه — ان الصراع يرتدي في التحليل النهائي طابعا عقائديا من الناحية الاستراتيجية ، وان الانتصار حتما للاقوى عقائديا والاقوى ايمانا بمبادئه وحزبه وشعبه ، وذلك هو المفهوم العلمي لنظرية التحقيق ، نظرية الصراع في الاقبية .

أن الالمام بتجربة التحقيق ومراحل تطوره ونتائجه القريبة والبعيدة على المناضلين والحركة الوطنية واحزابها وفصائلها ، وفقا لهذه الرؤيا العلمية الواقعية ، يعمق دون أدنى شك فهم المكافحين ومعرفتهم للصلابة في التحقيق ، ويواصل استعداداتهم الكفاحية قبل الاعتقال واستعداداتهم للتضحية ، والاستشهاد ، يواصلها معهم داخل اقبية التحقيق ، بالاستناد الى معرفة الصلابة ، ومقوماتها ، والاستعداد لها ، بنفس الاستعدادات والحماس والايمان ما قبل الاعتقال ، وتجنب الانهيار والتعاون مع رجل التحقيق وصيانة شرف المناضل وحزبه وحركته الوطنية وشعبه المكافح . ان فهما كهذا يهدف ويمكن المعتقل من فهم عملية التحقيق ، كيما يتحلى بالصلابة ويتحاشى الانهيار ، ويتحاشى الوقوع في احابيل

المحققين بحجة عدم القدرة على الصمود (ان كثيرا من المناضلين دفعهم الحماس الوطني (او الطبقي) للكفاح ، وبذلوا صمودا وتضحيات هي مفخرة وعزة للثورة ، وبلغت درجة استعداداتهم للتضحية والعطاء حد الشهادة في ميدان المعركة ، ومنهم من تجاوز التحقيق ومنهم من باع ما لديه . فلماذا يكون استعداد الواحد للعمل والتضحية حتى الشهادة خارج المعتقل ، ولماذا يكون مستعدا للموت بالرصاص او القنابل قبل الاعتقال استعدادا فعليا ، ومع ذلك تخبو استعداداته في الزنازين ويعترف تحت ضربات العصي غير القاتلة ؟)

ان رجل التحقيق يستطيع ان يوقع الالم ، يعرض المناضل للجوع ، للعطش ، للارهاق والتعب ، يستطيع كسر اليد ، يستطيع مواصلة الضرب حتى الاغماء ، لكنه لا يستطيع تحريك لسان المناضل ليبوح بالاسرار الثمينة وفقا لرغباته دون ان يلقى معونة مباشرة يقدمها المعتقل نفسه ، انه لا يستطيع بهذه الطرائق أن ينتزع من المناضل ايمانه بقضيته ، وعزمه في الدفاع عنها . ان تقديم المعلومات للمحقق هو عمل طوعي في ظروف قهرية قاسية يخلقها المحقق في اقبية التعذيب لكل زوار الاقبية المناضلين منهم وغير المناضلين ، المهمين منهم وغير المهمين ، يخلقها كنهج فاشي ، يتوقع منه وفي ظل تلك الظروف ان ينال من صمود المناضلين وعزيمتهم .

والمحقق يلجأ لشتى الاساليب هادفا ان تكون نتيجتها الحصول على عون وتعاون المعتقل في كشف الاسرار عن نفسه وعن حركته الوطنية والرفاق ، بغية ايقاع الضرر بهم جميعا ، وهو يحصل على المعلومات (من ناحية فنية) حتى يستخدمها ضد المناضل شخصيا وفقا للقوانين والانظمة المعمول بها كأن يقدمه للمحاكمة ، يهدم بيته ، يصادر ممتلكاته ، ينفيه ، وكيما يحصل منه على الاعتدة والممتلكات والمواد التي تخص الحزب ضاربا بذلك الوسائل النضالية والخطط الكفاحية ، أو الحصول على ما يمكن

الحصول عليه من معلومات عن الحزب والاحزاب والفصائل الوطنية بما يساعده على ضربها وتحطيم مقاومتها واعتقال نشطائها وايقاع الاذى بهم لسلامة امنه العدواني ، ولا يوجد رد على ذلك سوى الصلابة والصمود في التحقيق .

الصلابة والصمود

هي الموقف النضالي البطولي أمام رجال التحقيق ، الذي يقفه المناضل ، والذي يمثل ، ويوصل الى حالة الانتصار ، وحسم الصراع بين قطبي التحقيق لصالح المناضل ، مؤديا الى نجاته ليس كشخص فحسب ، بل كمناضل صان شرفه ، وحمى نفسه بنفسه من الوقوع في براثن رجال التحقيق ، والاعيبهم ، وخلص مصيره من بين ايديهم ، وصان بذلك نفسه كمناضل وجنب ، وحمى رفاقه وحزبه وشعبه من الضربات والعدوان على يديه ، واكد بذلك صحة مبادئه وعمق عقائديته ، واكد نفسه كمناضل ثوري ، وضرب مثلا حيا ونموذجا لرفاقه المناضلين وشعبه المكافح . وايضا افشل بجسمه ، لحمه ودمه وارادته ، مخططات اجهزة التحقيق والمخابرات مؤكدا استمراريته الكفاحية وقدرته على التحدي والذل والعطاء في اقبية التعذيب مزودا نفسه وغيره بسلاح معنوي لا يقهر .

أن الصمود والصلابة هي سمات المناضل الثوري البطل ، هي سلاحه القاطع الذي لا يلين والذي يمكنه من الانتصار على رجال التحقيق . هذه السمات وهذا السلاح المتوفرة مقوماته لدى كل مناضل مهما كانت بنيته الجسمية ، واحواله المعاشية (كما اكدت التجربة) اذا ما قرر استخدامها ، واذا ما ادرك طبيعة الصراع القائم

بينه وبين رجل التحقيق ، اذا ما كرس ارادة الصمود والصلابة ، ارادة الانتصار اثناء عملية التحقيق .

ان كثيرا من المناضلين ومن بينهم ضربوا آيات من البطولة والصمود ، دون ان يكون لديهم اعداد مسبق وخبرة ودراية بمسألة التحقيق واساليبه مستندين الى مغذيات من ارادتهم ، وتصميمهم ، وواقعيتهم ، ومعرفتهم بخطورة الادلاء بالمعلومات مهما حاول رجل التحقيق تبسيطها لهم .

غير ان ذلك لا يعفي من ضرورة تربية المناضلين وتوعيتهم وتأهيلهم لاحتمالات الاعتقال والتحقيق ، وتزويدهم بالمعرفة والخبرة ، والنماذج البطولية ، وتعريفهم بخطورة التعاون مع المحقق على الفرد بصفته الشخصية ، والنضالية ، وخطورة التعاون مع المحقق على الحركة النضالية والجماهير الشعبية والثورة . وذلك حتى يكون اكثر قدرة على الصمود والتحدي ، والتصدي لاساليب التحقيق ، واكثر فهما لعمليات التحقيق واشكاله ، واطواره ، وادوار المحققين بين الفينة والاخرى والاعيبهم وخدعهم . وبذلك يكون صموده ليس تعبيرا عن ارادته فحسب ، وليس تعبيرا عن مجرد موقف دفاعي عن الذات ، بل تعبيرا عن عقائديته ، وارادته الوطنية ، الثورية ، الصلبة في حماية نفسه كمناضل وصيانة حزبه وشعبه وثورته ، بما يدعم صمودة ويعززه ويجعل الصراع يدور في مجراه العقائدي بوعي وتصميم مستندا على خلفية الوفاء للثورة والشعب .

ما هو الصمود ؟ : يتعرض المعتقل لاساليب التعذيب بغية التأثر فيه نفسيا وجسديا كما ذكرنا سابقا . اي بغية احداث افعال وردود افعال ، وتفاعلات في البنية الانسانية المادية والمعنوية ، بعض هذه الافعال والتفاعلات يتلقاها المناضل وتقع فعلا (كان يتعرض الانسان لضرب فينتج الالم ، يمنع عنه الماء فيعطش ، او

الطعام ، فيجوع ، يصلب ساعات متواصلة فيتعب ، يمنع من النوم فيصيبه الارهاق والتعب والنعاس الشديد) وبعض هذه المؤثرات والتفاعلات قد يقع فعلا وقد لايقع (الحرمانات المذكورة سابقا تؤثر على الحالة النفسية للمعتقل بدرجات متفاوته فالبعض يتاثر اكثر من الاخر). هذا هو الجانب المهم : فالمزود بالايمان ، والارادة ، يتاثر فيزيائيا وجسمانيا من الضرب ولكن لا تهتز له قناة في الجانب المعنوي . لان الجانب المعنوي لا يعتمد على الطعام والشراب وانما على الاستعداد وهذا خاصة ضمن المواقف النضالية .

فالصمود هنا هو التفوق على المؤثرات المادية والمعنوية التي يتعرض لها المناضل ، انه مرتبط تماما باطوار التحقيق ، وينمو ويزدهر ويتعمق جذره كالكائن الحي ، ويتغذى من التجربة السابقة (صمود في مرحلة تحقيق سابقة) كما يتغذى من الارادة الصلبة والحماس النضالي. أي أن التجربة النضالية المعاشة في اقبية التحقيق ، والتي تستند دوما على صمود (ساعة اخرى) والتي يتحقق فيها صمود أولي في مراحل التحقيق الاولى ، ستزود المعتقل بارادة صمود جديدة تضاف الى صمود الساعات والتجارب الاولي . اذ ان صمود المراحل السابقة زادا ومغذيا لصمود المراحل اللاحقة . وهكذا فانه يتحقق المثل الدارج القائل (بين النصر والهزيمة صبر ساعة). هذا الصبر الذي يتحقق فعلا كلما ازدادت استعدادات لمناضل قيد التحقيق لتضحية اكثر فاكثر . وبالتالي يبتعد عن الانهيار . ان مغذيات الصمود في التحقيق كلها داخلية وفي ذات وكيان المناضل ، وان فكرة بسيطة تخطر على بال المعتقل كأن يفكر بأنه عيب عليه ان يعترف ، وان من العار ان يدلي بمعلومات عن البيت الذي امده بالغذاء ، أو عن رفيقاته الفتيات ... او اي شيء من هذا القبيل حتى يتعزز صموده لدرجة جبارة تفشل كل اساليب التعذيب والتحقيق .

اما الصلابة وانطلاقا من كونها صفة شخصية فهي تغني الثبات الحديدي على الموقف البطولي المتحدي لارادة العدو وادوات قمعه واجهزة تحقيقه . انها الارادة الحديدية القوية في مقارعة العدو في كل مكان استنادا على الايمان العميق بعدالة القضية ، والدفاع عنها والنضال من اجلها ، وهي تتجلى في كل مكان وكل مناسبة وكل ظرف خارج السجن وداخله ، عبر صراع مباشر مع العدو في المعارك المختلفة بما فيها معركة التحقيق . فالمناضل الثوري صلب في مبادئه ، صلب في معتقداته ، صلب في مواقفه وكما ذكر سابقا فالصلابة تنبع من الشخص ، ومن القضية العادلة ، والحزب الثوري الواضح المواقف ثوري التوجهات . وهنا تبرز الصلابة بوصفها التحام بالقضية مهما كانت هذه القضية (شخصية ، فئوية ، او عامة) وبالتالي فهي صفة متاحة لفرد ويمكن ان يتحلى بها اي مناضل فيكون بالتالي قادرا على ايقاع الهزيمة بالمحقق ودفعه واساليبه للافلاس .

وبوجه عام فان الصلابة والصمود في التحقيق هي الصفات العامة للمناضلين الثوريين العقائديين مهما كانت ادوارهم النضالية ، ومراكزهم الحزبية ، ما دام الحزب قد اخذ بعين الاعتبار مباديء علمية وثورية في اختيار وبناء مناصريه واعضاءه ، ولا يمكن ان يكون العيب في المباديء الثورية اذا وقع غير ذلك .

الانهيار في التحقيق

الانهيار (الاعتراف) هي حالة الهزيمة والاستسلام والتخاذل التي تعبر عن ضعف المناضل في التحقيق وانتصار المحققين عليه . هي حالة فشل التحدي ، وذل

التعاون مع رجل التحقيق مما يمكنه من الحصول على المعلومات التي يريدها ؛ من فم المناضل نفسه ، وادانته واتخاذ كافة الاجراءات العقابية ضده . هي شيء من الخيانة (واعية ام غير واعية سيان) التي يصلها المعتقل قيد التحقيق نتيجة لتعاونه مع المحقق وادلاءه بالمعلومات وافشائه بالاسرار التي تهم المحقق وبالتالي خيانة الرفاق والحزب والثورة ؛ أي الانتقال من صف الثورة الى صف اعدائها (ولو عبر مرحلة التحقيق فقط) مما يقوي صف الاعداء ويضعف صفوف الثورة ولكن باداة من داخلها هذه المرة . (باستمرار يسعى العدو للتغلغل في صفوف القوى الثورية عن طريق تجنيد عملاء ودفعهم للتسلل لها ؛ وقلما ينجح في ذلك ؛ وباستمرار يسعى لضرب الحزب (بوصفه أداه ثورية من الخارج وقلما يحقق هدفه ؛ بل تنتصر الثورة . ولكنه في حالة التحقيق ، وتحت شتى المسميات يسعى للحصول على تعاون مناضل من الحزب نفسه أو من الثورة نفسها ، ويتبع شتى الاساليب ؛ وينبغي تفشيل ذلك . وعندما ينهار احد المعتقلين يكون العدو قد وصل الى بغيته ؛ فقد جند ولفترة التحقيق على الاقل احد العناصر لصالحه وحصل منه على الاسرار . هذه هي واقعة الانهيار في التحقيق والتعاون مع العدو).

وعلى ذلك فان الانهيار (الخيانة) هي حالة الاستعداد لتقديم المعلومات ، والتبرع بالاسرار عن الثورة والحزب بحجة الخلاص من جولات التحقيق ، في ظل اعتقاد يسود انيا عند المنهار ، بأن تقديم الاعترافات هو نهاية المطاف ، وهو الخلاص الحقيقي ، الذي يتلوه سيجارة ، وكون شاي وتتحول الحياة في أقبية التعذيب المظلمة الموحشة الى رغد وسعادة لبضع دقائق وربما لساعات في ذهنية المنهار . علما بأن الانهيار ليس موقفا آنيا في التحقيق . انه حالة عامة لفرد تبدا وتستمر مع استمرار التحقيق ، بعد ان ادرك المحقق ان مزيدا من

الضرب يعني مزيدا من المعلومات والانهيار . وهكذا فان المحقق لن يكتفي بمجرد الاعلان عن الاستعداد لتقديم المعلومات ، بل انه سيمارس كل اساليبه ، ويستمر في نهجه حتى يأخذ كل ما يستطيع ، وايضا حتى يتأكد ان المعتقل قد افرغ كل ما جعبته . وهنا تتبدل الحالة بعد ذلك مع استمرار التعذيب والضرب : فبدلا من الضرب للنيل من صمود المعتقل فان الضرب سيستمر ولكن هذه المرة هزءا واذلالا للمناضل وتعبيرا عن النصر للعدو ، وحتى يحقق اهدافا اخرى من استمرار الانهيار . وليصار الى استثمار المنهار في استكمال التحقيق مع زملائه الذين وشى بهم ؛ ليكون أمامهم النموذج القذر ، وليقوم بالشهادات الوجاهية ، وربما محاولة اقناعهم بمحاسن الانهيار والخيانة !

والانهيار يحصل في الغالب مع المعتقلين الذين يتركز اهتمامهم اثناء جولات التحقيق في الخلاص الذاتي (من التحقيق) وكان التحقيق هو نهاية المطاف ، ومع اولئك الذين يتمكن المحقق مع تركيز اهتمامهم على ذواتهم ومصالحهم الشخصية واهلهم ، ونسق حياتهم السابق ، مخرجا أياهم من سياق الثورة الى سياق المحطمين بانانيتهم وبالتالي ينجح المحقق في اخفاء شناعة الانهيار والتساقط وتصويره على انه الخير العميم وطريق الخلاص .

ان تجنب الانهيار أمر ممكن وفي متناول اليد ، اية يد وقد دلت على ذلك مئات بل الاف التجارب الناضجة ، وتجارب المنهارين أنفسهم ، وتجارب مناضلين أولوا بمعلومات للعدو في التحقيق واحتفظوا بقسط كبير من المعلومات في صدورهم رغم قسوة التعذيب ، حيث يعني ذلك انه كان في مقدورهم عدم الادلاء بمعلومات بالقدر الذي قدموه كما أكدوا هم أنفسهم بعد مراجعة الحساب. وكذلك تجارب أولئك الذين تدموا في التحقيق افادات كاذبة تماما ليس لها أية مصداقيه من الواقعية والصحة ، رغم

انفسهم ، وانتهى التحقيق معهم دون ان يعترفوا بالاتهامات التي قدمها العدو ضدهم . ومرة اخرى فان تجارب المنهارين انفسهم قد اكدت قدرتهم وقدرة غيرهم على الصمود بعد مراجعة انفسهم وبعد ان تبين لهم ان انهيارهم غير مبرر ، وان كل المبررات الذاتية المحفزة على الاعتراف في التحقيق لاقيمة لها ، بل انها من السذاجة بحيث تخجل صاحبها ، وانه كان في مقدورهم الصمود ، وان بعضهم عاد وسحب اعترافاته ونفى افاداته بعد ان تبين لهم ان اعترافاتهم قد الحقت ابشع الاضرار بهم وبثورتهم . كما ان تقديمهم للمعلومات يضعهم في مصاف العملاء الذين يقدمون المعلومات عن الثورة ، وانهم قد باعوا الثورة من اجل نجاتهم الشخصية التي تبين انها وهمية .

ولنتفهم الامكانيات الواقعية المتاحة جدا لتجنب الانهيار يمكننا ملاحظة الحالة عن قرب :

فالانهيار هو اسم الحالة التي يكون فيها المناضل قيد التحقيق ، في حالة انسجام وتعاون مع المحقق يأمره فيطيع ، يسأله فيجيب ، يصفعه ، فيجثوا على قدميه ممتهنا شخصيته ورجولته ، وعقائديته ، قالبا نفسه من مناضل في حالة صراع عنيد مع العدو قبل التحقيق ، من مناضل في حالة صراع عنيد مع العدو في بداية التحقيق الى زميل ، عبد ذليل ، يحترم السلطة والاحتلال بحجة انه في التحقيق ، وانه تعرض لتعذيب (وكأن الاخرين الذين يصمدون لا يتعرضون للتعذيب مثله) وان المحقق ضابط كبير ؛ او انه لم يسبق له ان اهين في حياته ولا يريد الاهانة (مدافعا بذلك عن كرامة مزيفة ومنحطة ادنى درجات الانحطاط) . وهو ايضا في حالة نسية متهاوية بحيث يعتبر تقديم سيجارة له او كرسي يجلس عليه عطية كبرى لابد ان يدفع ثمنها عشرات السنين يقضيها بين جدران السجون ، وعدد من رفاقه يشي بهم لرجل المخابرات ليكونوا ضحايا سيجارته ،واسرار هامة يتبرع بها لاجهزة المخابرات .

ان الكثير ممن أفرغوا ما في جعبتهم من معلومات واودعوا في السجون يعزون انهيارهم لاسباب تافهة (فالضرب القاسي هو من نصيب الجميع) كأن يقولوا بانهم اعترفوا بسبب حرمانهم من الجلوس مدة طويلة ، أو حرمانهم من التدخين ، أو لان المحقق وجه له اهانات تمس شرفه وعرضه وصونا للعرض ، قرر اباحة نفسه وتنظيمه وكل ما يعرف . واخرين قدموا ما لديهم بعد أن استحلفهم المحقق بالقرآن أو بدينهم وصلاتهم وصيامهم ، وبالتالي وخشيته من الحرام ، وبعدا عن الكذب الذي حرمه الله فتح كنوزه المغلقة . وبعضهم يعزي اعترافاته بعد ان هدده المحقق بجلب اخته ، او أمه او زوجته امام الغرباء ، والاتفه من كل ذلك أن بعض المعترفين قد ادلوا بما لديهم بعد ان طلب منهم المحقق أن يتعروا من ملابسهم ويكشفوا عوراتهم لهذه الاسباب وغيرها ارتضى هؤلاء لانفسهم ان يكونوا خدما للمخابرات على الاقل طوال فترة التحقيق وربما استمروا في ذلك . وبعدها قضاء ما تيسر من السنين في ظلمة السجون وما يتبع ذلك من اجراءات اخرى .

أن الانهيارات والاعترافات هي مأساة الحركة الوطنية الفلسطينية كلها وبكل فصائلها بدرجة من الدرجات ، وهي اقوى سلاح استخدمه واستثمره العدو في مكافحة وتقزيم وتحجيم الحركة الوطنية الفلسطينية . وكانت الانهيارات والاعترافات اللا محدودة سببا في ازدحام المعتقلات بالاف المناضلين ، والاحكام العالية التي نالوها والاجراءات القاسية التي اتخذت بحقهم وحق اهليهم ، وليس غريبا أن نجد في معتقلات العدو الصهيوني العشرات الذين اعتقلوا في فترة واحدة ، بل ومنظمات كفاحية باكملها (٢٠ ، ٤٠ ، وحتى ٦٠) انهارت كلها معا نتيجة انهيار فرد واحد أو بضعة افراد او تسلسل الاعترافات من المعتقل الاول الذي يشي بخمسة آخرين، وبعض من الخمسة يشي بعشرة آخرين وهكذا حتى

الاجهاز الكامل على منظمة بكاملها . عدا عن الخلايا المكونة من خمسة أو عشرة والتي تندثر مرة واحدة بسبب اعتقال واحد منها وانهياره .

لقد تعرض جميع المعتقلين للتحقيق بصورة من الصور ، صمد بعضهم كليا أو جزئيا (كحقائق واقعة) وتخاذل بعضهم ، هذا البعض الذي تخاذل أودى بعشرات ومئات المناضلين في السجون ، هؤلاء كان ممكنا لهم أن يحتفظو بكرامتهم الوطنية والشخصية ، ويكموا افواههم، لتظل نشاطات الحركة الوطنية لغزا امام العدو ، فيبقى في الساحة مناضلون يمارسون مهامهم ، ويواصلون التجربة ، ويطوروها الى المستوى الكفاحي اللائق بها .

هذا مع العلم أن ليس الفرد المنهار وحده هو الذي يتحمل المسؤولية ، فكما ذكرنا في البداية فان المناضل امتداد لواقعية الصراع نفسه .

وهكذا فان الانهيار في التحقيق ، وبكلمة اكثر دقة التعاون مع المحققين والادلاء بالمعلومات التي تتعلق بالمناضل ورفاقه ، وكل ما لديه من معلومات أو بعضها، ينشأ عن جملة من العوامل التي يمكن التغلب عليها جميعا على النطاق الفردي والجماعي ، ويمكن لاي شخص مهما كانت بنيته الجسدية وحتى لو كان جريحا جراحا بالغة (كما حصل مع العديد من المناضلين) أن يفلت من اثرها مهما تعرض لصنوف التعذيب الجسدي والمعنوي .

وبالرغم انه بمقدور اي شخص مهما كان انتماؤه ، ومهما كان وعيه أو حتى من غير انتماء سياسي (كثير جدا من اللصوص والمجرمين يجتازوا التحقيق بسلام) أن يجتاز مراحل التحقيق بنجاح ، الا اننا سنلخص هنا جملة من العوامل التي تجعل المناضل ينهار ، وجملة اخرى تكفل له الوقاية .

فاسباب الانهيار عند اعضاء الحركة الوطنية تكمن فيما يلي :ـ

١ ـ عفوية الانتماء وضعفه : حيث ان الكثير من

المناضلين لا يشعرون بمعنى عضويتهم في هذا التنظيم او ذاك ، ولم يصلوا الى درجة الانتماء السياسي ولا حتى الانتماء الوطني الحقيقي الواعي .

أن الانتماء هو الانحياز التام للطبقة والوطن ، فكريا وعمليا وربط المصير الشخصي كلية بمصير الحزب المعبر عن هذا الانتماء وهو درجة متطورة من الوعي السياسي والفكري المرتبط بالكفاح اليومي من خلال الادوات النضالية المعبرة ، وبالتالي فان الانتماء من افضل الاسس المحفزة للصلابة والصمود ، وهو يتضمن اعظم درجات الاستعداد للتضحية والبذل والعطاء ويجعل المناضل عميق الارتباط بالحزب والثورة من اجل القضايا التي يناضل من اجلها مما يجعل محاولات رجال التحقيق لفك هذا الارتباط صعبة ومستحيلة .

وترتبط عفوية الانتماء وضعفه لدى العديد من المكافحين الوطنيين بنقطة اخرى هي :

٢ ـ ان الاطار التنظيمي (العديد من الاطر الفلسطينية) في كثير من الاحيان لا يضبط عملية انتماء الاعضاء ، واختيارهم ، ويبذل قليلا جدا من الجهد لاعدادهم سياسيا وتنظيميا وفكريا لخوض معركة النضال . ان العضو المنتمي لعديد من الاطر الوطنية لا يختلف عن اي شخص عادي ليس له اي انتماء . وفي احيان اخرى نجد ان بعض المواطنين العفويين في انتمائهم الوطني اشد التصاقا بالقضية ، وتعمقا فيها من بعض آخر من المنتسبين أو المحسوبين على بعض المنظمات .

وفي هذه الحالة فان عملية الصراع العقائدي في اقبية التحقيق تكون من طرف واحد قوي ومتبلور هو رجل التحقيق مقابل الطرف الاخر الضعيف الارتباط والانتماء .

٣ ـ أن عدم الاعداد الكافي . وايضا عدم تثقيف الاعضاء بحقائق الوضع السياسي والنضالي ، والفكري عموما وعدم تثقيفهم بواقع التحقيق يجعل الصراع يجري

من جانب المناضل ضمن محدوديته الفكرية وانماط سلوكه ، ونوازعه ، وتكوينه الفردي والنفسي ، الذي افرزه المجتمع المتخلف الذي قبع سنوات بل قرون عديدة تحت ظلم الطغاة المتخلفين (الاتراك ، بريطانيا ، الاردن) وعاش طويلا في انعدام التحدد القومي والوطني ، والانسحاق الطبقي . أن سمات المجتمع المتخلف التي تشكل خلفية المكافح العفوي ، في ظل مرحلة متفجرة ثوريا لن تكون قادرة على مجابهة المحقق الذي وعى هذه الظروف وتعامل معها بافق حضاري أرقى ، ومواقف فاشستية عنصرية .

أن ضعف الاعداد وتدخل السمات الشخصية بصورتها المتخلفة الموروثة ، تجعل المناضل يقف امام المحقق موقفا دفاعيا ، ليس هذا فحسب بل تجعل دفاعه ينحصر في أحواله الذاتية الانية بالتحديد حيث ينصرف للتفكير بالخلاص من ورطة الاعتقال ، بل وفقط من ورطة التحقيق ، التي لا تنتهي ، ولا تنتهي اساليب العنف والتطبيقات المستخدمة فيها الا وفقا لقرار المحقق في النهاية ، بغض النظر ان هذا القرار مستندا الى موقف المناضل في التحقيق ، او شخصية لمحقق نفسه ، وعليه يصبح توجه لمناضل لكسب رضى المحقق الذي لا يمكن أن يتم ، دون تقديم المعلومات له .

أن هذه العوامل التي قدمت كنموذج يمكن التغلب عليها ببساطة ، وخاصة ان المناضل الذي يجري اعتقاله، سوف يجري تعذيبه في جميع الاحوال ، وان لم يكن من اللظة الاولى أو اليوم الاول ، ففي الايام التي تلي . وما دام المناضل يصر على حماية نفسه وانتمائه من الاجراءات التي تتمخض عن اعترافاته ، وما دام يتجنب ذكر اي معلومات مهما كانت طفيفة فان مسألة التعذيب سوف لن تكون ذي بال لمكافح مسلح بالصبر والصلابة ، وجملة من المعارف البسيطة ، كمناضل أعد للكفاح اعدادا معقولا .

ويجري التغلب على مسألة الانهيار والتعاون مع المحقق على النطاق العام بما يلي :

١ ــ رفع درجة العضو المنتمي لعضوية المنظمة او الحزب سياسيا وفكريا واجتماعيا ، وتعبئته ايديولوجيا بحيث يصبح مناضلا نشطا وصلبا وعقائديا ، وهذا يجعله قطبا فاعلا وصلبا وقويا امام رجال التحقيق .

٢ ــ ان عملية انتماء الاعضاء لا يمكن فصلها عن عملية اعدادهم وتربيتهم ، وايضا فان صحة الاطروحات السياسية الاساسية ، والنضالية ، لا يمكن ان تنفصل عن عملية تعميق أيمان المناضل ، وربطه عضويا بالنضال والكفاح بمختلف اشكاله . وكذلك فان علو هيبة المنظمة النضالية في اعين المناضلين تجعل ارتباطهم بها اكثر تعمقا بحيث يصعب على رجل التحقيق احداث هزة أو ثغرة في العلاقة بين المناضل ومنظمته اثناء عملية التحقيق . وهذا ضروري للرد على الحالات التي يتمكن فيها المحققون تشكيك ضحلي الانتماء بمنظماتهم وقادتهم من خلال ايهامهم بأن (قادتهم هم الذين وشوا بهم) ومن خلال عمليات المقارنة بين وضع المناضل في ظل ظروف التحقيق القاسية ، والمعاملة السيئة ، بينما رفاقه أو قادته في اوضاع مريحة ، وربما يتلهون في المقاهي او يتنزهون في الحدائق ؟!

أن رجل التحقيق لن ينجح في هذه الالاعيب اذا كان يواجه شخصا واثقا من اهداف وسياسة منظمته ، وواثقا من رفاقه ، وقانعا بانتمائه .

٣ ــ تثقيف المناضلين بكل مجريات عمليات التحقيق، وشرحها بتفصيل وعمق ، وتبيان وضعيته جهاز التحقيق، والمناضل المعتقل عبر مراحل التحقيق المختلفة ، وتكرار هذا الشرح باستمرار مترافقا مع التعبئة الضرورية من خلال التركيز على النماذج الصلبة التي تجاوزت التحقيق

بنجاح تام كامثلة ملهمة بوصفهم اناس مناضلين شقوا الدرب ، وبوصفهم برهانا ودليلا على واقعية امكانية الصمود ، وايلاء هذه المسألة ما تستحقها من اهتمام ومتابعة . مع ضرورة شرح الظروف العامة التي سبق وان كانت تعيشها فصائل المقاومة والتي احاطت بحالات الاعتراف والانهيارات التي كانت تقع في مرحلة ٦٧ وما تلاها ، ومن ثم كيف اخذت حالات الاعتراف تتقلص . مع الاشارة ايضا الى النماذج الصلبة التي انتصرت على المحققين في السنوات الاولى للاحتلال وتجنب بالتالي المصير القاسي الذي واجهه المناضلون الذين اعترفوا والاضرار التي لحقت بهم وبمن اعترفوا عليهم ، والاضرار التي لحقت بسمعتهم وسمعة الثورة على ايديهم .

ان متابعات كهذه قد ادت وسوف تؤدي الى تقليص ملموس في حجم الانهيارات ، بحيث يصبح المعترفون في التحقيق حالات استثنائية ويصبح الصمود هو القانون . هذا اذا استمرت عمليات التثقيف والتعبئة بصبر ، ومثابرة ، وخاصة ان سلطات الاحتلال لن تصبر على الحركة الوطنية حتى تتم استعداداتها بهذا الشأن ، وهذا يعني ان حالات معينة غير مهيأة باعداد كاف في المراحل الاولى لحملة التعبأة قد تنهار جزئيا أو كليا . مع التأكيد بأن الانهيار هو نوع من الخيانة الحزبية المخزية التي يرتكبها ليس عملاء يحترفون بل اعضاء من الحزب او المنظمة نفسها ، وبالتالي معاملة المعترفين على هذا الاساس ، وعدم اظهار اي احترام او تقدير لهم .

٤ ـ اتخاذ الاجراءات العقابية ضد المنهارين (المعترفين) : أن عدم اتخاذ الاجراءات ضد المنهارين قد جعلتهم ويجعلهم نماذجا سيئة في أعين الاخرين اذا استمرت المنظمة أو الحزب في معاملتهم معاملة عادية ، بالاضافة الى ابرازهم كأبطال سجون ، وليس المقصود هنا تركهم لقمة سائغة في يد العدو ، بل معاملتهم (وخاصة بعد

خروجهم من السجن) بالاستناد الى خلفية اعترافاتهم ودرجة صلابتهم .

أن موقف فصائل الحركة الفلسطينية المائع ، وغير العلمي من هذه المسألة اثر تأثيرا سلبيا ومخزيا على مواقف المناضلين اثناء عملية التحقيق بحيث ظلت قضية الاعتراف في نظر العديد جدا من المناضلين المبتدئين على انها مسألة مفروغ منها (كل من يعتقل يعترف) وسوى قلة قليلة ادركت المسألة بصورة اخرى .

أن رسم صورة صحيحة عن مجريات التحقيق مراحله واطواره ، وترسيخ موقف الصمود والصلابة ، وادنة موقف الاعتراف (جزئيا او كليا) وترسيخ نهج ثابت لمعاملة المعترفين ، ومعاملة الصامدين الابطال سوف يجلي الموقف ، وتزول مقولة (الكل يعترف تحت التعذيب) وتستبدل بمقولة (الكل يصمد في التحقيق ، وربما انهار بعض الافراد القلائل الذين يمكن تقليص خطرهم على المنظمة باتباع فنون خاصة في التنظيم) . حيث تبرز سمعة عامة ايجابية لصالح المنظمة (اعضاء هذه المنظمة لا يعترفون في التحقيق) وبالتالي تزداد طمأنينة الجماهير لهم ، ويزداد الاقبال على خطهم السياسي ، بينما تدان المنظمات التي تنهار باستمرار على ايدي رجال التحقيق وعلى ايدي اعضائها انفسهم .

وباجمال شامل ، فان صياغة المنظمات وابنيتها بطرق صحيحة ، واعداد المناضلين سياسيا وتنظيميا وايديولوجيا ، وتمريسهم على كافة اشكال النضال بما يتلائم مع خصوصياتهم الفردية ، ومستوى تطورهم ، واطلاعهم على كافة اساليب العدو في مطاردة الثوريين في شتى المجالات والمناسبات بما فيها ظروف التحقيق . سوف يسلح العضو بالصلاحية الثورية الضرورية التي تجعله قطبا ثوريا قويا امام رجال التحقيق ، فينتقل عبر مراحل التحقيق من دور ثانوي أمام قطب فاعل الى دور أو قطب فاعل أمام قطب فاعل ، وبالتالي الى مرحلة

الحسم التي يصل فيها المحقق الى درجة اليأس وينتهي دوره بانتصار المناضل بما يقلص حجم الاعترافات والانهيارات والمعلومات التي يحصل عليها العدو الى الحد الادنى . وبالمناسبة نذكر هنا شهادة الرفيق كاسترو عن الشيوعيين الكوبيين الذين وصفهم (برغم مواقفهم ، الا انهم مستعدون للموت ، ولكنهم غير مستعدين للادلاء بأية معلومات ، وان صلابتهم في التحقيق هي نموذج يحتذى به) وفي ذهننا ايضا عدد هائل من الامثلة التي اطلعنا عليها الادب السوفياتي الذي يتحدث عن الحرب العالمية الثانية وصمود الابطال الشيوعيين كالجدار امام العسف النازي الذي لم يكن يتوانى عن اطلاق الرصاص على كل من لا يبدي روح تعاون في مجال اعطاء المعلومات، لمجرد وجود شكوك لدى السلطات النازية في انتمائه لعضوية الحزب الشيوعي السوفياتي . وفي ذهننا ايضا نشل سافاك الشاه بكل اساليبه العسفية التي كادت تصل لحد تحطيم الجسم وتشويهه في التحقيق ، دون ان تحصل على شيء امام صلابة وصمود الابطال الثوريين الايرانيين ، فحال صمودهم دون انهيار الثورة وظلوا ولا يزالوا شديدي الفاعلية . واقرب الى ذهننا نماذج الوطنيين الفلسطينية ابان الاحتلال البريطاني وعسفه في التحقيق ،حيث كان يشوي المناضلين على الصاجات المحماة ، ولا ينبسون ببنت شفة . وكذلك عسف التحقيق الاردني الذي استخدم الاساليب البريطانية واضاف عليها الكثير . واكثر قربا تلك النماذج الفلسطينية الفذة (من اناس بسطاء ، ومناضلين ، وثوريين مؤهلين) تلك النماذج التي صمدت لتعذيب متواصل استمر عشرة ايام متتالية دون ادنى استراحة ، وجولات شبيهه لاحقة وهجمات من شتى الاشكال كلها تحطمت على صخرة صمود الابطال . في سنة ٦٩ ، اعتقلت سلطات الاحتلال حوالي ٢٥ مواطنا من قرية يطا ليس بينهم متعلم واحد ، واجرت معهم كل اشكال التعذيب القاسي في ذلك الوقت،

وخرج جميعهم من التحقيق دون ادانة مع ان التهم التي وجهت لهم ثابتة عليهم وفيها اسلحة وعمليات عسكرية اي شديدة الخطورة والحساسية بالنسبة للاحتلال . وما لا يقل عن ١٥٠٠ مواطن بين سنوات ٦٨ — ٧٠ اودعوا بالسجن الاداري بسبب ثبوت تهم خطيرة ضدهم ، ولم تستطع السلطات محاكمتهم لانهم لم يعترفوا بشيء رغم قسوة وشراسة التحقيق . وفي تجربة الاعتقال الفلسطيني فقد اعترف (سليم) على (حسن) بانه اشترك معه في عملية مسلحة وان لديه اسلحة واموال تخص الثورة ، اما (حسن) فقد اصر على الانكار حتى نهاية التحقيق . وفي النهاية حوكم سليم بالسجن المؤبد ، ونسف بيته ، اما حسن فقد اودع بالسجن الاداري ولم يدل بأي معلومات عن نفسه وبالتالي لم يدل باي معلومات عن علاقاته وارتباطاته وظل مصرا على موقفه يتلقى اشكال التعذيب بالعصي ، والماء البارد والساخن ، والكهرباء ، واساليب الاقناع والاغراء ، والمواجهة بينه وبين سليم ، ولكنه كبرياؤه كانت اكبر وشرفه الوطني كان اعظم .

ان تحرر المناضلين من الوهم القائل بحتمية الاعتراف في مراحل التحقيق (هذا الوهم الزائف) سيمكن ابسط المناضلين واقلهم خبرة ودراية بالحياة ، واضعفهم بنية ، من الصمود والانتصار على رجال التحقيق ، وبالتالي اضافة تأكيد جديد على عدم صحة هذا الوهم .

فالعدو اثناء التحقيق ينشر جملة من الاشاعات ، ويقوم بعملية تعبئة متواصلة للمناضل قيد التحقيق ، بأن ! الصمود مستحيل ، وان الجميع هنا يعترفون ، لن تختلف عن السابقين الذين وضعوا كل ما لديهم بالعنف او باللين ، تكلم احسن واستريح .. .) خالقا بذلك وهما معقولا مرتكزا في بعض الحالات على امثلة ونماذج منهاره محاولا خلق تبرير وهمي امام المناضل ووضعه في حالة (ما دام الجميع تكلموا ، سأتكلم) بحيث يربط المناضل نفسه لا بالنماذج الثورية بل بالنماذج المنحطة ، وكان

حقيقة ، او وهم ان فلان اعترف ، كافية لدفع الاخر ليحذو حذوه . وهذا عادة اسلوب لا ينجح الا في حالات نادرة ، حيث يحصل لدى العديد من المناضلين موقف عكسي تماما فحينما يميل احد المناضلين الى تصديق رجل المخابرات بأن غيره قد اعترف ، تنشأ لديه ردة فعل قوية بأن يصمد ويحاول انقاذ ما يمكن انقاذه ، ويتخذ من ابطال معروفين نموذجا ورمزا له .

وعليه فان اعداد الاعضاء ، اعدادا كافيا ، وتفسير حالات الاعترافات التي تمت في الماضي تفسيرا علميا لهم (بدلا من التبرير السخيف القائل بأنهم اعترفوا لان التحقيق قاس ، وكأن هناك تحقيقا غير قاس) وتقديم النماذج الصلبة كأدلة امامهم سوف يمكنهم من نبذ هذا الوهم الزائف ويحررهم من احابيل التحقيق والوقوع في براثنها الخطيرة .

ان المحقق الذي يلجأ لايهام المعتقل بأن الاعتراف آت لا محالة ، وان الصمود مستحيل ، والذي يباشر في تعبئة من هذا النوع مستندا الى بعض الوقائع ، يسعى لايهام المعتقل نفسه بأنه سيعترف اولا واخيرا ويضعه امام سؤال صغير وبسيط ولكنه على غاية من الاهمية (أأعترف ، ام لا) . هذه الحالة التي يسعى المحقق جاهدا وبكل اساليب التعذيب والتضليل لخلقها على انها درجة من زحزحة المناضل عن موقفه الاول (لن اعترف مهما كان الثمن ومهما كانت التضحية) ، هذه الحالة يستغلها المحقق عندما يدرك انها اخذت تجول في نفس المناضل ليعززها لاطول فترة ممكنة باقوال وافعال وتعذيب واغراءات وخيالات وغير ذلك الى أن يعترف المناضل او يدرك المحقق انه حسم الموقف مرة ثانية (لن اعترف) . وهذه الحالة شبيهة بحالة خلق التعاون المباشر انطلاقا من اسئلة واجوبة ونقاشات غير مباشرة ، وبعيدة عن جوهر التهم التي يجري التحقيق حولها .

ان التعاون مع المحققين يبدأ من اتفه الاشياء

(سواء تطور هذا التعاون أو انقطع) هذه الاشياء التي قد لا يكون لها اية صلة مباشرة بالمعلومات التي لدى المناضل ، ومن ثم يبدأ رجل التحقيق في تعزيز هذا التعاون وتطويره ، وتحويله خطوة فخطوة عبر اساليب من الخداع والتعذيب الى تعاون ذو علاقة مباشرة بالمعلومات والاخبار والمعارف التي لدى المناضل . وهكذا فان اي شكل من اشكال التعاون مع المحقق يعتبر خطوة لا بد من الخلاص منها لافشال اساليب التحقيق وتوصيله الى احدى قناعتين : اما ان المناضل هذا بريء تماما ، أو انه لن يتكلم ابدا) وفي هذا نهاية التحقيق بانتصار المناضل انتصارا حاسما يحطم معنوية رجل التحقيق ويشككه في قدراته ، أو يشغل نفسه بالتحقيق مع آخرين او يشغل نفسه باشياء اخرى .

ان نظرة مقارنة بسيطة يجريها المناضل بين ان يكون منهارا ومتعاونا مع رجال التحقيق وبين ان يكون صلبا وصامدا ويصنع من نفسه بطلا خلال تجربة قاسية، ان نظرة كهذه تكفي لان تعزز صموده ، وتجعله اكثر عنادا من كل رجال المخابرات ، وبالتالي سيد الموقف .

ويجدر بنا ان نلاحظ ان جل اهتمام رجال التحقيق عبر الاساليب المختلفة تنصب على هدف خلق جو التعاون، والاخذ والعطاء ، ودرجة من الانسجام في المواقف مهما كانت طفيفة وفي اي مجال كان ، كمقدمة لابد منها ، وانه دون ان ينجح في هذا الهدف لا يمكنه ان يحصل على بغيته ، وهذا ما يحدد منطلقه الاساسي لاستخدام اي من الاساليب التي بين يديه واي منها يستخدمه بعد أو قبل او مع ، وكم من الوقت سيستمر في استخدام هذا الاسلوب او ذاك . وبالمقابل فجل اهتمام المناضل السياسي ، ان تنتهي فترة التحقيق مهما طالت ، ومهما كانت قسوتها دون ان يتعاون بأي شيء مع رجل التحقيق، ودون أن يقدم له اية معلومات ، غير متلفتا لما يحدث بجسده من آثار التعذيب والتشويه التي غالبا ما تزول في

الاسابيع الاولى التي تلي عملية التحقيق ، والتي وان لم تزل — كما حصل في بعض النماذج لا تساوي شيئا امام صموده وحماية حزبه وقضية شعبه .

وعبر هذا التضاد العنيف بين الهدفين الذي يتجسد من خلال قطبي الصراع وسلوكهم ، وفعلهم ، وردود افعالهم ، وبين عقائديتهم المتضادة ، واعدادهم لخوض المعركة ، يأخذ رجل التحقيق الدور القيادي الاول بيده على الاقل في البداية : ويأخذ في الانتقال من شكل الى آخر ، ومن اسلوب الى آخر ، مرتديا هذا المظهر او ذاك (كان يظهر بمظهر المجرم ، السفاح ، او الناجح الواثق من نفسه والذي لم يخرج من بين يديه ولا واحد دون ان يبيع كل بضاعته . وربما تواجد اكثر من رجل تحقيق في آن واحد ، فيظهر كل شخص بمظهر من المظاهر — ضابط كبير جنرال ، متعلم مثقف ولطيف ، لايحب الظلم ولا القسوة ، همجي وقاس جدا ، عالم نفس خبير وعارف بالخفايا) كل ذلك حتى تتم التهيأة لخلق جو لبداية تعاون مع احدى هذه الانماط من الشخصيات او بعضها . فحالة التعاون هي المطلوبة ، لانها المناخ الملائم لنمو جرثومة التساقط ، وفي سبيل ذلك لابأس ان يتجاوز المحقق عن اي قضية يحقق بها اذا لاحظ صمود وعناد المناضل ازائها ، متجنبا بذلك اية مسألة او اية خطوة تتعارض مع هدفه مهما كانت مهمة ليعود لها فيما بعد اذ وصل المعتقل لحالة السقوط في فخ الاعتراف . واذ تنبه المناضل لسرعة حركة المحقق ، واستعداده للتنازل عن نقطة معينة يحقق بها (دعنا من هذه المسألة فهي غير مهمة حتى ولو اعترفت بها ، ولننتقل الى مسألة كذا ...) اذا لاحظ المعتقل ذلك فمن السهل عليه ان يدرك الهدف ويفوته بنجاح تاركا المحقق يبحث في قاموس راسه وخبراته عن طرائق اخرى . ان المحقق الذي يتجاوز مسألة معينة تتعارض مع هدفه في خلق جو التعاون سيعود لها اذا سنحت الفرصة ، ولن يعود لها ابدا اذا ما استمر صمود

المناضل الا في المرحلة النهائية من التحقيق ، مرحلة (يجرب للمرة الاخيرة ، كتصفية واغلاق ملف) من خلال بضع اسئلة عابرة .

ان عملية الصراع بين هدفي ، بين قطبي عملية التحقيق تمكن المحقق في البداية من ان يلعب ادواره بقدر كبير من الحرية والانتقائية وفقا لخطة مسبقة مرسومة او مطورة بعد المقابلات الاولى ، فيتعامل مع المعتقل من موقع القوي القادر ، ويستخدم هذه الميزه عمليا باخضاع المعتقل لشروط حياة التحقيق عامة ، واستخدام التعذيب. ولكنه يتعامل بآفاق علمية مستخدمة بشكل متكرر ومجربة ، ومفهومة تماما بالنسبة للمحقق ، وهو قادر على صبغ ممارساته بصبغة علمية (مهما كانت بدائية وعادية) واظهار نفسه بانه عالم نفس (لما لعالم النفس من منزلة مهولة في نفسية الانسان العادي) قادر على معرفة كل شيء من تقاطيع الوجه ، او ردود الفعل الانعكاسات) ، وهو يظهر بوصفه الضابط القادر على كل شيء ، قادر على استخدام شتى انواع التعذيب ، وقادر على الكف من اية اهانة ، قادر على ابقاء المناضل في التحقيق قدر ما يشاء ، وانهاء التحقيق معه فورا والافراج عنه ، او ايداعه السجن اي مدة يشاء ، وانه هو الذي يطعم او يمنح الطعام والشراب والتدخين وهو قادر على الشبح والتعليق ، وربما وهب الحياه او قبضها وغير ذلك من هذه المحاولات التي ان انساق ورائها المناضل وقع في الهاوية ، وان ادركها وادرك مغزاها تمكن من تجاوزها بصبره وصموده ووعيه ، ونجا ، ان المحقق يهدف بذلك الى ايهام المعتقل بأن ارضاءه هو الضمان من كل هذه الشرور ، بل هو الخير العميم . هذا من وجهة نظر المحقق : اما المعتقل فهو يلعب دوره بصورتين فقط : اما انه بريء ولا يعرف شيئا ، او انه في جميع الاحوال مصمم على عدم قول اي شيء مهماكانت الاساليب المتبعة ومهما كانت النتائج . هذا مع العلم ان المعتقل بأمكانه ان

يصر على الانكار وعدم اعطاء اية شيء مهما كانت الاساليب ، ومهما كانت الادلة المقدمة ضده دامغة او معقولة او واقعية ، بما فيها المواجهات والشهادة وجها لوجه (عندما يتبرع معتقل لجهله ، او لانه منهار بالادلاء بشهادة على زميل له مواجهة ، او عندما يوضع جاسوس في زنزانة المعتقل ويسترق منه بعض المعلومات ثم يواجهه بها امام المحقق) . فاذا ما وضع المناضل نفسه في مكانته الصحيحة ، كقطب مناقض ومعاد لرجل التحقيق، يخوض معه صراعا ذا ابعاد عقائدية وارضية وطنية او طبقية ، فانه سينتصر حتما ويسخر من كل الاساليب والادلة ، ويسخر من وهم الانهيار ، ويرفض كل (منح وعطايا) الجلاد وبالتالي يضرب مثالا ثوريا في البطولة ولا يخون زملائه المناضلين الذين يمثلون طليعة الشعب والذين يكافحون من اجل الحرية والمباديء السامية من اجل تحرير الشعب والوطن .

ذكر آنفا انه في حيثيات التحقيق ومداخلاته يسعى المحقق لخلق حالة من التعاون والاستجابة بينه وبين المعتقل — وبدون هذا يستحيل الوصول للاعتراف — وبالتالي أن هدف شتى الوسائل النفسية والعصبية تنحصر في تهيأة المعتقل التفسخ الداخلي ، حالة امكانية خلق التعاون ، وان الجلاد يبتعد عن القضايا التي يلاحظ ان استمرار طرقها من شأنه ان يخرج المناضل من الجو المقصود ، واستطرادا فان المحقق الذي من ضمن محاولاته اصدار اوامر عادية في جو ارهابي مثل (اجلس على الكرسي ، انهض لماذا انت جالس يا حمار ، اخلع ملابسك ، البس ملابسك ، اجلس على الارض ، تشقلب على راسك بجانب الجدار وغير ذلك ..) يهدف الى دمج المعتقل في الموقف . واذا ما رفض المعتقل الانصياع لهذه الاوامر فانه يضع المحقق في امتحان صعب ، وتهتز الادوار ، وحينها سيسعى المحقق لاخضاع المعتقل لاوامره — علما بانها ليست لها دلالة مباشرة

على المعلومات المطلوبة — ولكنه يريد الدخول في معركة اخضاع أن نجح فيها فسيستخدمها لاهداف اخرى . ولذلك ليس غريبا ان يقضي المحقق ربع ساعة او نصف ساعة وربما اكثر في محاولة للضغط على المعتقل ليقول (انا كذاب ، او انا حمار ، او حتى يضغط عليه ليشرب ماء ، وربما ليدخن سيجارة) ويستعمل الضرب والصراخ واللكمات وكل ما بين يديه ليرغم المعتقل على الطاعة . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان الضرب واقع لا محالة في معظم مراحل التحقيق او بدون حجج ، فان المناضل الواعي الذي يدرك ابعاد ممارسات المحقق ، سيصر على رفض تقبل الاوامر من هذا النوع واذا اصر فان المحقق لن يرجع لها ثانية الا على سبيل التجربة او التاكد من ثبات الموقف . وان عاد فليس صعبا على المعتقل ان يدرك انه صاحب الموقف الاقوى في هذه المرحلة .

أن ترديد العبارات وراء المحقق او الانصياع لاوامره عبارة عن موقف هادف اما للاذلال واضعاف النفسية ، او خلق جو اكثر ملائمة للتحقيق ، وقد دفع الرفيق شهدي عطية حياته ثمنا لموقف كهذا في السجون المصرية حينما اصر عليه الجلادون ليقول انا (مرة) واصر هو بصلابة الشيوعي الثوري على الرفض ، وظلوا يضربوه حتى استشهد بطلا لن ينساه التاريخ .

قد تكون اوامر رجل التحقيق مجرد طلب السكوت اثناء حديثه — بصفته هو ضابطا كنوع من التعالي وتركه يصب حممه السامة من تعبوية وتشكيكية ، وارهابية على المعتقل ظنا انه ينصاع ويحسن الاستماع ويرفض أن تجزي اي مقاطعة حتى ولو كانت لصالحه لسببين :

١ — فرض الطاعة ٢ — التشويش على افكار المعتقل وتركه عرضة للتشتت الذهني ومتابعة الافكار المتناقضة المطروحة لشل فاعلياته الفكرية ومن ثم الهجوم عليه بما هو مخفي ، أو لدفع المعتقل للانسجام مع حديثه والتساؤل الداخلي حوله (قد يكون صحيحا ان اصحابي

هم الذين وشوا بي ...) وبالتالي يدرك المحقق الحالة النفسية المعتملة في المعتقل ويتفاعل معها بما يراه مناسبا . واذا ما تفهم المعتقل هذه المناورات ورفض الانصياع واصر على مقاطعة المحقق (او على الاقل عدم الانتباه لما يقوله) فان المحقق سيفشل في طرح ما يريد ، واذا لاحظ ان المعتقل غير متنبه فانه يحاول ان ينبهه لصالح اللعبة ، واذا دمر المعتقل هذه الخطط فان المحقق سيكشف عن شخصيته الحقيقية ، شخصية الجلاد ويستانف الضرب كأمر طبيعي ، وبعد الجولة يضطر لاعادته للزنزانة .

وبعكس الاوامر ، يلجأ المحقق لوضع المعتقل في حالة ما تظر له فيها بعض الاحتياجات فيحرمه من السجاير او الماء ، لا يسمح له الذهاب الى دورة المياه .. حتى يبدا المناضل بالمطالبة وهنا تبدأ المساومة : قل كل كل ما عندك وانا اعطيك سيجارة بل علبة سجاير كاملة ! — لا بأس عشر سنوات سجن وعدد من الرفاق وكمية من الاسرار بسيجارة — !؟! قد يكون الموت افضل من هذه التجارة بمئات المرات .

أن الامتناع عن طاعة الاوامر ، والامتناع عن المطالبة بالاحتياجات البسيطة حتى ولا شربة الماء هي اسلحة قوية اقوى بكثير من الحرمان منها ، وحتى اقوى من اشد الاساليب الفاشية المتبعة ، فالمناضل لن يموت عطشا فهم بانفسهم سيقدمون له الماء حينما يشعرون بالحاجة ، بل انهم سيتحولون الى لطفاء ومعاتبين له لانه وصل الى هذه الحالة دون ان يطلب الماء وفي نفس الوقت ستتفاعل في انفسهم الهواجس بانه مستعد للموت ولكن لن يقول شيئا ولن يطلب شيئا .

وقد يلجأ المحقق لاستخدام الحديث الاستنكاري كأن يقول : انا عارف ومتأكد ١٠٠ ٪ انك غير منظم ، وانك رفضت التنظيم ، وانك لم توافق على ثقل كذا ... ، او الاجتماع مع فلان ... ، وهو يستغل فرصة مواتية لدفع

هذه الالفاظ بعد مقدمات حتى يقع المعتقل على راسه فورا: لانه اما ان ينظر للمسالة على انها بسيطة ، او قد ينساق ويعطي ولو كلمة بسيطة كأن يقول نعم (رفضت التنظيم) وهذا يعني ان احدا عرض عليه التنظيم . فمن هو ؟ ولماذا عرض عليه ؟ وان قال (رفضت اعمل كذا) اذن من الذي عرض ، واين ؟ وفي اي ظروف وهذا معناه ان تضنف الوقائع وهذه بداية الاعتراف . وقد وقع عدد من النذج في هذا الشرك ولكن النجاه منه ليس بالامر العسير ولا يحتاج الى كثير من الذكاء ، ولا حتى صمود ولا تضحيات تذكر ، فاما عدم الاجابة والاستجابة ، واما القول (ان احدا لم يعرض علي شيئا) او يغير اتجاه الحديث . ومن الانسب ان لا يدع المحقق يتم حديثه في هذا الصدد واغلاق الطريق عليه كليا . وعندما يتمكن المناضل من تفويت فرصة كهذه يكون في نفس الوقت قد انتزع انتصارا مشجعا على تجاوز وتفويت فرص اخرى .

أن تحطيم محاولات رجل التحقيق لخلق جو من التعاون من البداية سوف يدفع رجل التحقيق لتغيير اسلوبه باستمرار ، مما يشعره باستنزاف طاقته وجعبته. وهذا يعني ان المناضل الصامد قد بدأ يأخذ زمام المبادرة واخذ دوره في عملية الصراع يطفى شيئا فشيئا على دور رجل التحقيق . واذا ما دعم موقفه هذا باظهار الاستخاف بالجلاد وبعض المواقف والعبارات التي تدلل على صلابة واستخفافه بالتحقيق وعدم جدواه فان نفسيته ومعنويته كرجل التحقيق سوف تهتز وتتضعضع مما يدفعه الى انهاء التحقيق والخلاص منه — بصفته موظفا — وحتى لو جرى استبداله بمحقق آخر فان تقارير المحقق السابق ستضعف من عزيمته مهما حاول الظهور بمظهر المنقذ للتحقيق ، وخاصة اذا لمس نفس الاصرار والصمود من المناضل ، ولن يمض وقت طويل حتى يعلن هزيمته لرؤسائه بشكل من الاشكال ، محاولا مداراة فشله بطريقة من الطرق سوف تكون حتما لصالح المناضل .

اساليب التحقيق

استنادا الى الاستعراضات السابقة ، يسهل علينا ان نستنتج بأن اساليب التحقيق المختلفة تعتمد على نوعية المناضل وموقفه ودرجة صلابته ووعيه ، وموقعه في عملية الصراع . وما اذا كان منتميا ام على هامش الضربة ، وما اذا كان سمينا في نظر رجال التحقيق ، أو قليل المعرفة ، طويل النفس وعالي التصميم ويعي ما يقوم به أم انه ضعيف الارتباط قليل الاعداد وذاتي النزعة . وبالاجمال فان اساليب التحقيق واستخدامها وطرائق تطبيقها تعتمد على نوعيه المعتقل الذي يقع بين ايدي المحققين ، وكذلك على نوعية رجال التحقيق ومجمل صفاتهم ونفسياتهم ونظرتهم لعملهم في وقت من الاوقات .

ويمكننا ان نقسم المعتقلين الى نوعين شاملين ، وذلك حتى يسهل طرح المسألة وتعميقها ، وحتى يسهل ايضاح العلاقة القائمة بين اساليب التحقيق ونوعية المحقق معهم . وكذلك بين نوعية المحقق معهم ، واساليب التحقيق المتبعة من جهة ، ونتائج التحقيق من جهة اخرى ..

واذا كانت نتائج التحقيق مع نوعيات مختلفة من البشر خاضعة للدراسة والتمحيص ، فيجب ان لا يغيب عن البال مطلقا ان الصمود والصلابة والخروج من حرب التحقيق بسلام ليس حكرا على نوعية محددة من الناس او المناضلين . فكثيرا من الناس العاديين جدا والذين ليس لديهم اي تأهيل او اعداد نضالي سوى فطرتهم ، واستنادا الى فهمهم البسيط ولكن الاصيل (الارجل ، الاحسن ، الاشد ، الاشرف لا يعترف ، وان الاعتراف والاقرار عار وعيب) ، (الحكومة تدينك من لسانك) نتيجة لهذه المعارف البسيطة والهامة جدا ، كثير من

الناس العاديين اجتازو التحقيق بكافة مراحله دون ان ينبسوا بكلمة واحدة ومهما كانت دوافع الاعتقال سياسية أم غير سياسية فالمعتقلون نوعين :ـ ١ ـ الصدفيين ٢ ـ والمحترفين .

مع ملاحظة ان اختلاف الاساليب المتبعة مع كل فريق ليس اختلافا مطلقا لان هدف الاساليب المختلفة في النهاية ينحصر في ايصال المعتقل قيد التحقيق الى مرحلة التعاون والاقرار وتقديم المعلومات ، اي ايصاله الى حالة الانهيار ، وتحويل العلاقة الجوهرية بينه وبين محققيه الى علاقة يتخللها تبدل في موقع المعتقل باتجاه موقع المحقق ، وانسجام وتطابق معه بدلا من الصراع الحاد والوقوف على طرفي نقيض .

المعتقل الصدفي :

ليس غريبا ان يقع بين ايدي المحققين اناس ليس لهم خبرة ودراية بما قاموا به ، ولا سابق تصميم وتصور عن الاحداث ونتائجها ، او ليس لهم معرفة باهمية مرحلة التحقيق والصمود فيها ، ونتائجها في مجال الادانة والتعرض للحكم والعقاب ، وفي معرفة مغزى عمليات التحقيق في الحصول على المعلومات المختلفة .

وربما يقع اناس قاموا باعمال عن طريق الصدفة مثل القتل الخطأ ، أو مشاهدة ثوار اثناء قيامهم بعمل مسلح ، أو الصاق مناشير وملصقات على الجدران ، أو ربما مساعدة شخص ما (فدائي) في المرور من مكان ما او تقديم الطعام له بدافع الحماس أو دافع انساني او أجتماعي ، أو ربما يقع شخص بين ايدي المحققين نتيجة قيامه بعمل ما ، أو مشاهداته لاشياء معينة دون أن يكون طرفا حقيقيا في هذا العمل لا من باب المشاركة ولا من

باب الانتماء ، واندفع عن وعي أو غير وعي للتستر أو المشاركة ، وفي وقت من الاوقات ونتيجة لشبهة ، أو وشاية ، أو اعتراف ، وقع بين ايدي المحققين .

في ميدان العمل الوطني الفسطيني ، اندفع الكثيرون وبدافع الحماس الوطني الاصيل الى المشاركة بشكل من الاشكال دون أن يكون لديهم تصور شامل عن نتائج تصرفه على ذاته ، ساعد بعض المناضلين المطاردين لانهم اقربائه أو لانهم عبروا ارضه أو بالقرب من بيته .. الخ وكل هؤلاء معرضون او تعرضوا فعلا للاعتقال والتحقيق حالما تعرف السلطات عنهم لسبب من الاسباب. وكذلك الحال مع عامة الناس الذين يشتركون في اعمال نضالية جماهيرية — مظاهرات ، اضرابات ، اعتصامات، ويصادف ان يلقى القبض عليهم .

هؤلاء جميعا لدى اعتقالهم يتأثرون وحتما ستتأثر مواقفهم : بالوضع المعنوي العام الذي يحيط بالحركة الوطنية ، سمعتها ، سمعة الاحزاب او المنظمات التي احتكوا بها ، مستوى الوعي السياسي والثقافي عند الجماهير ، الخلفيات الذهنية عموما التي تشربوها في حياتهم من المجتمع ، ومدى الخبرة الاجتماعية التي تتناقلها الالسن عن سلوك العدو في التحقيق ومواقف المناضلين ، والموقف الاجتماعي من نتائج التحقيق سواء على مستوى البيئة الخاصة او البيئة العامة والقيم الاجتماعية التي يحملونها هم انفسهم كل هذه العوامل وغيرها ستؤثر على مواقفهم في التحقيق ونوعية ردود فعلهم على اساليبه واطواره بالاضافة الى الصفات الشخصية التي يتحلون بها داخل اقبية التعذيب . ولدى تحليل نتائج التحقيق مع هذه النماذج فانها تتراوح بين الانهيار التام واعطاء كل شيء ، والانكار التام ونفي كل شيء ، وبين بين .

فمثلا منهم من لا يشعر بضير أن يقول بانه شاهد كذا وكذ على اعتبار أن الفعل اصبح ماضيا ، وان مشاهدته

كانت عابرة وصدفية ، بينما موقف المحقق يختلف فهو يريد اية معلومات عن الحدث ويطالبه بها ويطالبه باشخاص اخرين شاهدوا مثله بالاضافة الا انه يحاكمه بتهمة عدم اخبار وهنا ترتفع العقوبة بقدر خطورة الشيء الذي شاهده .

وفي ميدان العمل الوطني ايضا هناك من يلتحق بصفوف المنظمات والاحزاب حديثا او لم يتلق اية تدريب واعداد ، ويقع في التحقيق لسبب من الاسباب .

هؤلاء جميعا هم من نطلق عليهم المعتقلون المناضلون بالصدفة او الصدفيين .

كيف يعاملهم رجل التحقيق ؟

من المهم الاشارة اولا ان المحقق عندما يقف أمام المعتقل انما يقف امام سر مجهول ومرهوب ايضا ، فهو لا يعرف نوعيته ، ومدى صلابته ، وهو لا يعرف أن كان مجترفا أم صدفيا ، ولا يعرف أن كان ذا شخصية متماسكة وقوية وواعي أم أنه ساذج وعلى (باب الله) هذا من ناحية .

ومن ناحية اخرى فسواء كان المعتقل صدفيا في وضعيته ، أم محترفا وعن سبق اصرار ، فان السمات الشخصية للفرد وتربيته وعقائديته تظل فعالة في جميع الاحوال ، وبالتالي لا يمكننا بوجه القطع ان نقول بأن المحقق سيتبع هذا الاسلوب او ذاك ، ولكنه سيحاول جهده ان يفك الرموز الاولى حول شخصية المعتقل . من هو ؟ وما دوره ؟ وهل المعلومات الاولية عنه بانه شارك في كذا فقط ، او اطعم ، أو أرشد هي كل نشاطه ووضعيته أم ان هذه الحالة فقط هي التي انكشفت ؟

ان المحقق يرى في المعتقل الصدفي انسانا بسيطا (حتى ولو كان شديد الصلابة والعناد) ولذا ، وبناء على

هذه التقديرات ، يلجأ الى اساليب من شأنها ان تؤثر على هذه النوعية حسب اعتقاده . كأن يثير عواطفه ، يشرح له بأن لا خطورة من اعترافاته وانما هذه اجراءات روتينية تقوم بها الحكومات عادة عندما تصلها معلومات، فقط بهدف اغلاق الملف ، وانه سيفرج عنه حال الانتهاء من التحقيق ، وما عليه الا ان يستعجل اذا رغب في العودة الى اهلة . وهنا من المناسب أن نورد حادثة (فقد اعتقل شاب من نابلس مع آخرين زملائه بناء على وشاية وتقدير اجهزة الامن بانهم منظمون ولديهم اسلحة قديمة من زمن الاردن . وقد عانا الشابين من ابشع اساليب التحقيق دون ان يتفوهوا بشيء . وهنا خطر على بال ضابط التحقيق أن يعتقل والد احدهما وكان شهر رمضان ، ووالده هذا شيخ مسن يصلي الاوقات ويصوم الشهر . وبعد وضعه في الزنزانة ، مر عليه ضابط مخابرات فاظهر الدهشة لوجوده واخذ يشتم ويسب على اسرائيل ، مجرمين ، كفرة ، فاسقين وفجأة سأله هل صليت ؟. لا . اذن تعال لنصلي معا فلا يوجد احد هنا وانا اصلي بالسر ولو اكتشفوا بأني مسلم لقرموا رقبتي . وهكذا صلوا جماعة ، واوهمه بانه سيسعى له بطعام الافطار .. ثم قال له ان قضيته بسيطة وانهم فقط يريدوا منه (الحديدة) أي قطعة سلاح ، وان ما عليه الا ان يسلمها حتى يفرج عنه راسا وخاصة انه حاول الافراج عنه فرفض اليهود الملاعين . فسأل الشيخ عن ابنه فوعده الضابط ان يفرج عنه وعن ابنه ، في الليل ذهب الشيخ مع رجال الامن وسلمهم البندقية . وبعد العودة طلب منه ضابط المخابرات ان يوقع على بضع اوراق كروتين حكومي حتى يتمكن من اغلاق ملفه والافراج عنه — وهكذا وقع على الافادة — . وبعد ذلك قال له بانه لا يستطيع الافراج عن ابنه قبل ان يعترف وما عليه الا ان يقنع ابنه .. وهكذا حصل .. وبالنتيجة حوكم الرجل وابنه والشاب الاخر وبالطبع نسفت بيوتهم)

وتدلل هذه الحادثة وغيرها على تفاعل رجال التحقيق مع الحالة امامهم وقد ينجحوا ببساطة وقد لا يصيبهم النجاح . فكثير من الحالات لطمتهم على وجوههم بقوة ولم تنفعهم لا مشاعر الفوقية ، ولا حتى أقسى انواع التعذيب .

ان المعتقلين بالصدفة والذين لا يمكننا ان نجزم بنتائج التحقيق معهم معرضون دائما لاساليب التبسيط ، والتحجيم ، والاغراءات ، والتشكيك بالثورة ، والتشكيك بجدوى النضال ، النضال ، والقادة وهم الذين يعمد المحققون الى استخدام اساليب الضغط الخارجي عليهم كان يحاول اغراؤهم ، أو يهددهم بالاعتداء على نسائهم، أو يحضر اقاربهم لنصحهم بالاسراع بالاعتراف حتى يسرعوا بالافراج عنهم .

قد لا يجد المحقق صعوبة كبيرة في خداع هذا النوع من المعتقلين ، وفي الواقع ان اساليب الخداع التي تتبعها اجهزة التحقيق مع مناضلي الحركة لوطنية لفلسطينية هي الاوسع انتشارا ، بسبب جدواها لهم ، وبسبب النقص الكبير في اعداد المناضلين وتربيتهم وتثقيفهم والنقص في تشبيعهم بروح الصمود البطولي في التحقيق ، وتمريفهم على اساليبه ولان معظم المعتقلين تلقوا فقط تربية المجتمع ونفسيته وايديولوجيته المتخلفة (حيث لم تكن روح النضال الشعبي الجماهيري كما هي الحال في السنوات الحالية) تلك الايديولوجيته التي ورثها من الاقطاع الشرقي واشبعت بالروح البرجوازية الانانية التي لم تتوان عن لعب ادوار مشبوهة في عهد الاحتلال البريطاني والاردني والصهيوني، هذا علما أن بعضا من الاحزاب الثورية قد اخذ يتجاوز نواقصه كما تشير الدلائل في السنتين الاخيرتين وبالاخص منذ بداية ١٩٧٨م .

لقد افرزت نشاطات الحركة الوطنية في اعوام ٦٧ — ٧١ عددا كبيرا من المعتقلين ومن بينهم نسبة كبرى من

الصدفيين ، حيث اودعت سلطات الاحتلال كل من (رأى، او اطعم ، او سقى ، او سمع ، او آوى ، او قدم اية خدمة لمناضلين) بل قد اودعت كل من تواجد في منطقة عمليات او احداث نضالية ، بهدف عزل المناضلين عن الشعب بممارسات تعسفية واعتقالات شملت عددا كبيرا من الناس . وطبعا تعرض هؤلاء للتحقيق وشكلوا مادة خصبة للمخابرات واستثمرت المعترفين منهم ضد غير المعترفين ، وعسفت بهم ونسفت بيوتهم وسجنتهم بتهمة عدم الاخبار او الصقت بهم اية تهم اخرى ليكونوا عبرة لغيرهم حتى ولو كانوا (ابرياء مئة بالمئة)

لقد خلقت الفترة ما بين ٦٧ ــ ٧١ بالرغم من تأجج الاوضاع النضالية خلالها ، أزمة ثقة للمناضلين والصمود في التحقيق ، حيث كانت نسبة الذين ادلوا باعترافات لا تقل عن ٩٥ بالمئة ممن ادخلوا الى زنازين التحقيق ، بالاضافة الى ذلك كانت تسود آمال التحرر السريع حيث لايهم مقدار الحكم في السجن ، والنسبة الاخرى تمكنت من الافلات بسبب صمودها وصلابتها .

غير ان تغيرات جوهرية واسعة النطاق قد ادخلت على بنية وطرائق العمل التنظيمي للمنظمات الثورية ادت الى تقليص حجم الاعترافات وبالتالي حجم المعتقلين سنويا . وقد تنامت قابليات المناضلين وقدراتهم على الصمود بالتوازي مع تطور المنظمات وصيغ عملها وابنيتها ، وتناميها ، وتحسين نوعية اعضائها ، وهذا بدوره يؤدي بشكل اتوماتيكي الى تقليص عدد المعتقلين من المناضلين الصدفيين . طبعا دون ان يعني ذلك ان عسف الاحتلال سيتوقف عن المواطنين واعتقال اي عدد منهم بسبب تواجدهم او احتمال مشاهدتهم لشيء مخالف وخاصة في الاوقات التي يتنامى فيها حجم العمل الفدائي .

٢ ــ المعتقل المحترف :

يختلف المعتقل المحترف عن المعتقل بالصدفة ، فالمعتقل بالصدفة ضمن الحركة الوطنية او لعلاقة ما معها هو مواطن اثاره حسه الوطني البسيط ، وعمل هذا العمل او ذاك ، نتاج تأثير الوضع العام دون ان يتلقى اعدادا او تربيه ، او انه انتمى لاحدى المنظمات لانها اتصلت به اولا او لان صديقه او قريبه عضو فيها ، او لانها الاقرب الى فهمه الخاص ، او لان دعايتها وصلته دون غيرها او قبل غيرها ، وبعد ان ارتبط بها لم تجر له عملية تربية سياسية واعداد ، يمكنه من فهم مجريات الاحداث السياسية والعلاقات السياسية ، واللوحة المتفاعلة في الساحة . وبالتالي لم يجر تحويله الى سياسي محترف او مناضل محترف يعي بما يقوم به ويؤمن به ويتطور على فهمه الحسي الوطني العام .

اما المعتقل المحترف فهو مواطن ينتمي فكريا وسياسيا وتنظيميا ، ويربط مصيره نهائيا بعجلة النضال من خلال الحزب او المنظمة ويندمج فيها اندماجا نهائيا ، بحيث يتوحد مصيره بمصير الثورة ، ويصبح مصير الثورة والحزب الثوري او المنظمة هي قدره ومصيره . ومن خلال انتمائه يتشرب الروح الثورية الكفاحية وترتفع وتائر استعداده للتضحية ، ويرتفع مستوى وعيه ونضوجه ويدرك ان كافة افعاله وتصرفاته محكومة في النهاية بالوضع التنظيمي . وان مصيره الشخصي لايهمه بحال من الاحوال بقدر ما يهمه مصيره بوصفه عضوا بهذا الحزب او التنظيم .

ان المناضل المحترف هو نتاج الوضع السياسي الموضوعي الذي جعله يدرك ولو بصورة جزئية اهمية الانتماء . هذا الوضع الذي تتفاعل فيه نشاطات الاحزاب والمنظمات السياسية مما يطور الوعي الجماهيري بصورة عامة ووعي الافراد المنتمية بصورة خاصة . وبطريقة

ملموسة اكثر فان انتماء الفرد الى منظمة سياسية تطرح شعارات ومواقف تعبر عن الظرف الموضوعي ومتطلباته، وامالي الجماهير ، يجعله اكثر ارتباطا بهذه المنظمة مما يسهل عليها القيام بنشاطات تنظيمية تعبوية خاصة على اعضائها بحيث يتطور انتماؤهم واستعدادهم لان يكونوا مناضلين محترفين ، عميقي الارتباط ، يجري تصليبهم وتقويمهم عبر الممارسات النضالية اليومية ، وتجري توعيتهم بامور التحقيق ومختلف اشكال التوعية التي تجعل منهم عقائديون شديدي الصلابة ومدافعون حازمون عن مبادئهم متصلبون بالتمسك بها .

وبالاجمال فان المناضلين المحترفين هم معتقلون محترفون ، وهم نتاج التفاعلات الاجتماعية والوضع الطبيعي المتفاعل مع المناخ الحزبي ، بالاستناد الى قابليات فردية للنمو والتطور هذه التفاعلات التي تندمج مع نشاطات وتفاعلات المنظمة الحزبية التي ينتمون اليها بوصفهم افرادا ومناضلين . أن العضو الذي تجري تربيته على هذه الاسس سوف يدخل زنازين التحقيق طودا شامخا يقف أمام المحقق مسلحا بوعي وصلابة كافيين لتعزيز مكانته في الصراع البطولي ، يتصرف بوعي وردود فعله هادفة .

هل يمكن خداع المناضل المحترف وتوريطه ؟

لقد اكدت مئات بل وآلاف التجارب في الوطن الفلسطيني وفي كل البلدان ان المناضلين المحترفين المعبأين في مأمن تام من خدع واحابيل المحققين ، وانهم ببساطة يضعون المحقق في وضع صعب ، وليست قليلة الحالات التي يحاول فيها المحقق الخلاص من الورطة بطريقة من الطرق وربما عدم اللجوء الى التحقيق نهائيا بعد ان يكتشف الواقعة الصلبة التي امامه وكثيرا ما يدخل المحقق الى زنزانة التعذيب والاستجواب مثبطا سلفا ،

ينفخ ، ويفرك يديه ولا يدري من اين يبدأ ولسان حالة يقول (لا داعي لان اتعب نفسي) فمستنداته على الخلفية الاجتماعية العامة ، واساليب تبسيط القضية او التشكيك في الوضعية الثورية والاغراءات ليس لها نفع هنا . ويظل فقط التعذيب الجسدي عله يعطي نتيجة. ما هذا التعذيب الذي يتحول الى روتين. ميت لا حياة فيه امام استعداد المناضل للتضحية حتى النهاية والصمود مهما كان الثمن .

فعندما يدرك المحقق انه امام مكافح صلب ، يصعب عليه التحكم فيه ، وادارة موقفه النفسي ، ويصعب عليه (التفاهم معه) سيلجأ الى اساليب مختلفة عن تلك التي اتبعها مع المناضل الصدفي لان المناضل المحترف سيجتازها بسهولة وبنجاح تام مما يعزز معنويته ويشوش خطط المحقق . وهنا لابد للمحقق من اللجوء الى العمل المكشوف ، ويبدأ في محاصرة المعتقل عن طريق تقديم الادلة والبيانات والبراهين (وهذا يساعد المناضل على معرفة حجم التهم الموجهة له ونوعية الادلة ضده فتفقد رهبتها بدلا من ان تظل سرا) فخلاف المعتقل الصدفي الذي تكفي اشارة من بعيد الى احدى تصرفاته النضالية او حتى الشخصية حتى يعترف ، فان المناضل المحترف سوف يجتاز هذا الاسلوب ويفوته ويدفع بالمحقق لكشف كل اوراقه واحدة واحدة الى ان يفرغ كل ما في جعبته ويقف أمام المعتقل عاريا الا من عصاته . اي انه يمارس كل ما من شأنه زيادة الهوة بينه وبين المعتقل الصامد دون ان ينجح في خلق اي صورة من صور التعاون وبالتالي دون ان ينجح في وضع المعتقل في المسار الذي يؤدي به الى الانهيار .

أن المعتقل المحترف يعي ما يقوم به ، ويعي ما يواجهه ، ويعتبر نضالاته ونشاطاته واجبا ملزما ، كما يفهم أن خدماته النضالية عاملا من عوامل تحقيق اهداف الحزب والطبقة التي يمثلها والشعب الذي ينتمي اليه ،

وهو مشبع فكريا وعقائديا ، وهكذا فانه يمثل قطبا قويا امام المحقق ، وان عمق ارتباطه وعقائديته سوف تجعله ينتصر في عملية الصراع اذا استمر على صلابته ، مع معرفته بأساليب التحقيق واستعداده لها بكل عنفها وقسوتها . وهو اذا ادرك انه اثناء التحقيق يخوض صراعا عنيفا بين ما يمثله كاتجاه سياسي وبين ما يمثله رجل التحقيق كاتجاه سياسي آخر فانه سينتصر حتما لان النصر حقا للاقوى عقائديا فيهما مهما كانت البنية الجسدية .

ولا بد من الاشارة قبل كل شيء الى ان المعتقل المحترف بخلاف معتقل الصدفة لا يفكر مطلقا بمصيره الشخصي ، ولا يعتبر مجرد وقوعه بين أيدي المحققين (ورطة لاخلاص منها) ، انه يعتبر التحقيق ، ومعركة التحقيق والصمود البطولي فيها ، استمرارا لوضعه الكفاحي ولانتمائه النهائي الذي اختاره وارتبط فيه نهائيا وبلا عودة .

وفي هذه الحالة فان مواقف المعتقل اثناء التحقيق تتضمن ليس نجاته الشخصية فحسب ، بل كونه مدافعا صلبا بجسده ولحمه ودمه عن رفاقه وحزبه دون ان يشي بهم او ينبس بكلمة واحدة تلحق بهم الضرر وتؤدي بهم الى الوقوع بين ايدي المحققين . وكثيرون هم الذين اباحوا اجسادهم حتى النهاية ، حتى الشهادة دون ان يقولوا كلمة واحدة تسر خاطر الجلاد ، او تكشف سرا من اسرار الحزب ، ومنهم من تعرض الى تشويهات فعلية يعتبرها وسام شرف ، وشهادة صمود وبطولة ، وليس اشرف من ان يقضي المرء شهيدا في الدفاع عن الحزب واسراره وما يمثله .

ان الاستشهاد البطولي في التحقيق هو قمة المجد والشرف الثوري للمناضل والحزب والثورة ، ورمزا شعبيا لاينسى .

يغذي المواطنين والرفاق والثورة ويزيد من سخط الجماهير واستعداداتها للتضحية والعطاء ويقدم نموذجا رائعا للبطولات الثورية . ولا يزال ابو عكر الذي استشهد في المسكوبية سنة ٦٩ ، والخواجا الذي استشهد سنة ٧٦ في زنازين رام الله منارة يهتدى بها امام المناضلين الحقيقيين .

ومن الجدير ذكره هنا أن التحقيق ليس مأمون العواقب دائما من ناحية الاضرار الجسدية وتلك الاضرار ليس من نصيب الصامدين فقط ، وهناك معترفين ، بل منهارين تماما تعرضوا للاضرار ولم تحمهم اضرارهم من نتائج اعترافاتهم . وبالمقابل فان معتقلين جرحى ، أو حتى مصابين اصابات خطيرة قد استعملت معهم ابشع واقسى الاساليب بما فيها التعذيب في المناطق المصابة وتوسيعها، دون ان يفوه الواحد منهم بحرف واحد ، وقد غيب احد الجرحى اسمه الحقيقي ، وطبيعة مهمته التى دخل البلاد من اجلها ؛ ولم يدل باي شيء عن اعضاء مجموعته رغم انهم استخدموا اجراحه وكسوره كنقاط ضعف ، وخرج المحققين بالنتيجة المفجعة لهم (لورتسي لدبير) ، اي لا يريد ان يتكلم ، وخرج وهو بطلا عظيما صان شرف الحزب والثورة وحمى رفاقه . ان البطولة تتجلى في الاوقات الصعبة ولو بعمل بسيط ، وان بطولة التحقيق فخرا لا يوازيه فخر حينما يقاسي المناضل شتى الوان العسف والقهر والتعذيب ولمدة طويلة ويظل ثوريا وبطلا وفي صف الشعب ، دون ان يكل او يمل ، دون ان ينبس ببنت شفة .

قلنا ان المعتقل المحترف يلحق هزيمة ساحقة بخطط واساليب المحقق التي تعتمد على اثارة العاطفة ، ودفع المعتقل للتفكير بمصيره الشخصي ، او ايقاعه بخدع وحيل ، مما يضطر المحقق للكشف عن اوراقه والعمل على محاصرة المعتقل عن طريق تقديم الادلة والشهادات الثبوتية ، وربما جلب أشخاص معترفين أو غير معترفين

للادلاء بشهادات بطريقة من الطرق قريبة أو بعيدة عن القضية ، أو جلب الاهل والاقارب وخاصة النساء ، غير ان المحقق سوف يظل يسعى الى خلق جو التعاون الهادف، ولذلك وكلما وقف المعتقل بصلابة عند مسألة من المسائل كلما دفع المحقق لتجاوزها أو تأجيلها أو حتى اغلاقها نهائيا ، وتظل العملية تجري على هذه الصورة وضمن سياق الى ان يستنفذ المحقق كل وسائله ويعلن فشله ، واذا ما جرى استبدال احد المحققين او مجموعتهم فان عمليات التحقيق التالية والتي في الغالب تعتمد على الارهاب والقسوة لا تكون اكثر من اجراءات استكمالية اما على سبيل التجربة مرة اخرى ، او حتى تكون اجراءات التحقيق معززة من مجموعة من الافراد .

أن المحقق لا يستخدم اساليب التعذيب المختلفة من اجل التعذيب ، بل يستخدمها ضمن سياق وخطة من اجل ارغام المعتقل على التعاون معه ، ان هدفه النهائي من التعذيب بشتى اشكاله وصوره هو خلق الجو النفسي الملائم للحصول على المعلومات ، ولذا فانه عندما يلاحظ أن المعتقل يقدم معلومات مهما كانت طفيفة ، أو حتى مجرد ينصاع للاوامر فانه سوف يعتبر اسلوب التحقيق المتبع مجديا ويعززه أما عندما يجابه بالصدد النهائي وبدون تعاون فانه سيلجأ الى اساليب اخرى ، معنوية ونفسية (مصحوبة بالاضرب والصلب ، والتجويع) وجملة من الحيل والالاعيب التي تشكل ممارستها حسب اعتقاده عاملا مساعدا . وبمعنى اخر فان المحقق يجرب كافة الاساليب التي بين يديه بغية الوصول الى نتيجة واحدة وهي الحصول على الادانات والمعلومات عبر خلق جو التعاون ، وتقليص الهوة بين موقفه كسلطة وموقف المعتقل كمناضل ودفعه نحو الانهيار .

واجهزة التحقيق عبر ممارساتها الطويلة وخبراتها المكتسبة او المستوردة من اجهزة قمعية اخرى ، قد اكتسبت خبرة واسعة النطاق وادخلت اساليب مدروسة،

وادخلت العلم والتكنولوجيا وكل الامكانيات المتاحة بغية دفع المعتقل على تحريك لسانه والتلفظ بالكلمات الثمينة . غير ان كافة الاساليب المتبعة لم تنجح نجاحا قاطعا ، وقد كشفها المعتقلون وكشفوا ادوارها الزائفة ، ولم تتمكن كل هذه الاساليب من ايصال المعتقل المحترف الصامد الى حالة التعاون . فالمحقق بالاساس يريد معلومات صحيحة ومفيدة ، ولا يمكن ان يتم ذلك الا عندما يكون المعتقل في حالة من الوعي تكفي لذلك . ولذا فانه لم تتم حالة واحدة في التحقيق افشيت فيها الاسرار تحت التخدير أو في حالة الغيبوبة ، وان المئات تعرضوا لحالات الغيبوبة اثناء التحقيق ولم يدلوا بحرف واحد يؤثر عليهم، واذ كانوا قد تعاونوا مع محققيهم فليس اثناء الغيبوبة حيث لا يسمع الانسان ولا يحس بماحوله . علما بأن المحققين يلجأون الى خداع المعتقل وايهامه بانه قال كل شيء أثناء الغيبوبة وقد يستشهدون ببعض المعلومات التي يعرفونها ، ولكنهم بقدر ما ينجحوا مع بعض البسطاء فقد فشلوا بكل الحالات ، واساسا فانهم ينشغلون اثناء غيبوبة المعتقل لاعادته الى رشده .

ونضيف هنا ان كل حالات الاعترافات التي وقعت هي حالات واعية كان بامكان المناضل أن يتجنبها بنجاح تام لو انه اكثر ثباتا وتصميما ومعرفة ودراية ، بل لو كان اكثر عنادا بقليل .

أن المحقق لا يستطيع ان يعرف المدى الذي وصلته نفسية المعتقل اثناء التحقيق سوى تخمينا (او اذا هو كشف عنها) ولا يستطيع أن يعرف ما اذا كان يفكر بالصمود حتى النهاية ، أو يفكر بالاعتراف والخلاص من اقبية التحقيق ، كما أنه لا يستطيع أن يدرك الاتجاه الذي تسير فيه آثار عملية التحقيق من جانب المناضل سوى ما يلحظه من صمود او تردد أو انهيار ، ولذا فان ضابط التحقيق يكون باستمرار في حالة تشكك من الاسلوب

الذي اتبعه ، ومدى نجاعته ، والى اي مدى يمكنه الاستمرار في استخدامه ، وباي كيفية ، اي ان الحالة النفسية للمحقق لا تكون عادية اثناء التحقيق بل في حالة تردد مما يضطره لاستشارة مسؤولية باستمرار ، فهو يتصرف وفقا لاوامر مضبوطة ومدققة من جهات أعلى منه لاتشترك مباشرة في التعامل مع المعتقل بل تتبع اخبار التحقيق من خلال تقارير آنية أو دورية ، والمحقق مطالب بالنجاح ، واستخدام اساليب محددة ، ولكنه لا يستطيع ان يدرك اثرها على نفسية المعتقل اذا صمم المعتقل على اخفاء ردود فعله وافتعال ردود فعل اخرى ، أو اظهر ردود فعل تدلل على صلابته .

وليس قليلة هي الحالات التي يفلس فيها المحقق ويلجأ للترجي والاستجداء ، والاستعداد التام لتقديم كل ما يلزم من جانبه للحصول على اي شيء ، على اي ادانة افضل من الفشل التام . وليس غريبا أن نقول أن بعض السذج قد وقعوا في هذا المطب ، وساعدو المحقق الانساني المسكين ! ولا بد من القول ان الحالة النفسية والانفعالات ومجموع العواطف والافكار التي تتفاعل في ذات المعتقل ، تملك اثرا كبيرا على وضعه ، وسوف تملك اثرا أكبر فيما لو كشفها بطريقة من الطرق للمحقق الذي يحاول وباستمرار ، وباستخدام كل ما لديه من مهارة لمعرفة الانفعالات والعوامل الداخلية المؤثرة على المعتقل والتنبؤ بها ، حتى يستطيع استخدام انجع العوامل الخارجية للتفاعل معها ، والمحقق يعتمد في ذلك على فرضيات ونظريات يحاول تفحصها في شخصية المعتقل ومن ثم اتباع الاساليب المقابلة ، وهنا بأمكان المعتقل ان يضلل المحقق اذا لزم الامر وخاصة اذا انصرف كلية عن التفكير في شؤونه الخاصة ، واولاده وبيته وامه . واذ ما كان واقعيا ، وتعامل مع نفسه وظروفه على انه في مناخ تحقيق سوف ينتهي يوما ، ويجب ان ينتهي دون تساقط فانه سيخدع المحقق ، الذي بدوره يضع فرضيات

خاطئة عن حالته النفسية ، وتبعا لذلك يتصرف تصرفات خاطئة تقوده الى الفشل المحتم .

هذه الاحتمالات المذكورة اعلاه ، ونتيجة لطول تجربة المحقق ، واستخدام معطيات العلم ، تدفع المحقق الى القيام بنشاطات وحركات ، وسلوكات ، واتباع اساليب من شأنها أن تخلق حالة نفسية معينة (كالخوف مثلا) اذا قدر له أن ينجح (فالهجوم الذي يقابله هجوم مضاد عبر عملية الصراع يستدعي هجوم جديد) واذا نجح في خلق الحالة النفسية المرجوة يكون قد سار بالتحقيق على الطريق الذي يريده الا اذا تنبه المعتقل وطعن خططه

أن من اهم نقاط الانطلاق لدى المحقق في ذات المعتقل ، ووسائله في ذلك هي تجريبيه ، وتعتمد على استجابات وردود فعل المعتقل ، فالمحقق في جميع الحالات لا يستطيع تحديد الحالة النفسية أو خلقها الا اذا تجاوب المعتقل مع المحقق بكيفية معينة ، وأبرز جملة من الممارسات والسلوكات التي يدرسها المحقق ،ويحاول أن يتصرف على بواعثها النفسية .

الحالة النفسية هي شيء ما داخلي يظهر من خلال تقاطيع الوجه وتقلباته ، وطريقة النطق والتعبير ، وتصرفات وكلمات وردود فعل ميكانيكية أو آلية ، وعلى ذلك فان اخفاء الحالة النفسية الحقيقية أمر ميسور ، خاصة اذا حافظ المعتقل على توازنه ، ومظهر وجهه ما امكن ، او امتنع عن استجابات ، أو قاطع المحقق في الاحاديث التي يدلي بها ، أو منع نفسه من الانخراط في مظاهر الانفعال التي يتعمدها المحقق ، أو رد بسخرية أو بفظاظة على تصرفات أو كلمات المحقق ، أو استخدم نفس الردود على الاسئلة المتنوعة (لا أعرف ولا يهمني ذلك) أن ردود فعل كهذه سوف تربك المحقق وتضعه في دوامة .

وتجدر الاشارة هنا ان كافة اساليب التحقيق (التي سنذكرها فيما بعد) تهدف بالاساس الى خلق

نقطة انطلاق ، ينطلق منها المحقق بنسق معين للوصول الى حالة ملائمة لبداية مرحلة التعاون والاعتراف . فحتى الاساليب الجسدية والنفسية والعصبية او اية اساليب أخرى من اساليب الارهاب والتعذيب ، يراد منها الوصول الى هذه البدايات ، ومن ثم الحصول على المعلومات .

وليست نادرة الحالات التي فشل فيها المحققون ، ولجأوا صراخة الى الاعلان عن مطالب محددة ، (اريد ادانة ، اريد معلومات عن التنظيم وانا على استعداد لانهاء التحقيق . أن كل ما قيل حتى الان لا يشكل لك مجرد ادانة تحاكم عليها ، نحن مقتنعون انك مدان باشياء كثيرة ، اعطنا ادانة باية شكل ومهما كانت كاذبة وغير صحيحة ومختلفة عن الواقع وسوف نتركك) ويستمر ضغطهم وتعذيبهم من أجل الحصول على الادانة ولو كانت بكلمتين (أنا منظم) وينتهي التحقيق اذا كانوا لا يأملون بشيء آخر ، أو يبدأون من جديد اذا اعتقدوا ان هذه بداية جيدة .

وغالبا ما تحصل هذه الحالة في المرحلة النهائية من التحقيق ، فاذا استمر صمود المناضل يوما آخر فانهم سيتركوه بعد تهديدات مرعبة وفارغة بالانتقام ، وربما اودعوه السجن اداريا اذا كانت معلوماتهم عنه خطيرة . ولكن كل تهديداتهم وسجنهم لا يساوي شيئا أمام الصمود الحديدي وحماية شرف الحزب وأعضاءه وصيانة شرف الثورة وقضية الشعب .

وبرة أخرى على سبيل التأكيد فان الادلاء بالمعلومات يعني افشاء الاسرار والادانة وبالتالي الاضرار بالحزب والمناضل نفسه ، وفي السجون نماذج متعددة : اناس قدموا عن انفسهم ادانات واعترافات عن افعال لم يقوموا بها مطلقا وحوكموا وادينوا في المحكمة ومنهم من يقضي سجنا مؤبدا ، ونماذج أخرى عن مناضلين اعترفوا بما قاموا به وتعرضوا للجزاء ، وآخرين ناضلوا ، ولكنهم كموا افواههم في التحقيق واصروا على الصمود وكانت

النتيجة مختلفة . أن الصمود لا يعني فقط وسيلة للخلاص الشخصي من نتائج الاعتراف ، فهذه نظرة ضيقة، بل أن عدم الافشاء باسرار الحزب ، والثورة يتضمن في نفس الوقت حماية الحزب وحماية المناضل نفسه ، وهكذا فان مصير المناضل في أقبية التحقيق يلتحم التحاما عضويا بمصير الحزب ، هذا الالتحام الذي أن تعرض لاي خلل ، وقعت النتائج على كلا طرفيه في آن معا مهما كان هذا الخلل بسيطا . أن المحققين الذين عرفوا بحكم اوضاعهم وتجاربهم اهمية الارتباط بين المناضل والحزب ، بين مصير المناضل ومصير الحزب ، يسعون بكل ما لديهم من وسائل لخرق الارتباط عن طريق ايهام العضو بانه لا اهمية له من وجهة نظر الحزب ، أو ان الحزب يضحي به من اجل سلامة القادة ، او أن هذا الحزب فاشلا ولا يمثل طموحات الشعب ... الخ وكل اساليب الدس الخسيسة التي من شأنها أن تدفع (فيما لو نجحت) بالمناضل للتفكير بشخصه لخلخلة ارتباطه الحزبي كمقدمة لعزله عن الاطار الذي يحميه . أن بضع كلمات كافية لشل هذه الاسلوب (لا اعرف هذا الحزب ، لست منتميا لهذا الحزب ، ولا يهمني أمره) أو تمجيد الحزب رغم انف المحققين ، ومقاطعة المحقق وعدم اتاحة الفرصة له لنفث سمومه .

ايجازا لكل ما سلف : فان التحقيق هو عملية صراع بين قطبين متضاربين رجل التحقيق الذي يمارس كافة الاساليب المتاحة لارغام المتهم على الادلاء بما لديه من معلومات عن نفسه وحزبه وثورته . والمتهم مناضل محترف أو غير محترف ، يتلقى اشكال التعذيب واساليب التحقيق ويصمد امامها ساعيا لتشويشها وافشالها ، ويمارس دوره مؤثرا على عملية التحقيق لانهائها بنجاح ، ودفع المحقق الى ممارسات غير مجدية وبالتالي ايصاله الى حالة اليأس من امكانية الحصول على أية معلومات.

تجرى هذه العملية بين قطبين : من جانب المحقق وفقا لمخطط يضعه وقابل للتعديل بحيث يتلائم مع المعتقل

والمراحل التي قطعها التحقيق معه ، وطبيعة ردود فعله وصلابته ومواقفه ونوعيته ، بهدف التأثير على المتهم وحالته النفسية والعصبية بغية خلق نفسية ضعيفة تمكن المحقق من الانطلاق منها نحو اخضاع المناضل وخلق حالة من التعاون بينه وبين محققه كمقدمة لانهياره وسقوطه .

ومن وجهة نظر المناضل : تجري العملية بردود فعل معينة وهادفة الى افشال التحقيق والتأثير على المحقق وايصاله لاحدى قناعتين (أما أن المتهم بريء مما ينسب اليه ، أو أنه صعب ولا يمكن ارغامه على الكلام) .

ويستند كلا قطبي التحقيق على جملة من العوامل والدوافع التي تمتلك اثرا على صبر واستمرارية كل طرف . فالمحقق متأثر بقابلياته الشخصية ورضاه عن عمله ، وحنكته ودرايته ، والاساليب العملية والمهجية التي تعلمها . والرقابة التي تشرف عليه ونوعية علاقته مع مرؤوسيه ورؤسائه ، وشخصيته بينهم ، والتعبئة الخاصة التي تلقاها ، وعمق مبدئيته وعقائديته ، كما يتأثر المحقق بدوره في عملية التحقيق بوصفه السلطة أو ممثلا عنها بالنسبة للمتهم .

أما المناضل فيتأثر بعدة عوامل : شخصيته الصلبة، وعدالة قضيته وقضية الطبقة والجماهير التي يناضل من اجلها وايمانه بها ؛ والتربية السياسية التي تلقاها ، وكيفية تعامله مع المحقق ، وثقته بنفسه ، ووعيه ، وحنكته في التعامل مع الاخرين ووضعه الاجتماعي ، ودرايته ووعيه بمسائل التحقيق واساليبه ، والهدف القبلي الذي يحدده للصمود في التحقيق والتربية التنظيمية والفكرية التي تلقاها .

وبين هذين القطبين تجري عملية الصراع ، صعبة وقاسية ، ويبدأ المحقق في البداية قيادة عملية الصراع والتحقيق ويسعى الى :

١ ــ أخذ وجمع كل ما يمكن من معلومات ومن اي مصدر كان ، تتعلق بالشخص ، وحياته ووضعه الاجتماعي واهدافه الحياتية وطموحاته ، ومواهبه وهواياته ، واهتماماته ونوعية اصدقائه وثقافته ووعيه وخبراته ومزاياه في التحقيق ... الخ من المعلومات التي يطلق عليها عادة المعلومات الاجتماعية أو الحالة الاجتماعية .

٢ ــ التعرف على المعتقل عن قرب ، من خلال احاديث قصيرة واسئلة ، والتعرف على بنيته وملامحه ومظاهر شخصيته العامة وربما حالته الصحية ، أو أي احاديث ممكنة في اللحظات الاولى ، ويهدف المحقق لربط معلوماته وتكوين صورة متكاملة ما امكن عن الشخصية المقابلة والتي سيبدأ معها الصراع العنيف قريبا .

٣ ــ يقوم المحقق بجولة اولى حول الموضوع كأن يبدأ بشروحات عن التحقيق وصعوبته ونصائح بالاعتراف. ويوهمه بأن كل شيء معروف وان لا فائدة من الصمت .. وربما يبدأ الاسئلة عن بعض الرفاق المعتقلين هل يعرفهم ام لا ؟ وهل يعرف انهم معتقلون أم لا ؟ وأية اسئلة اخرى ، والاستماع الى اجابات المتهم أو اي كلام صادر عنه وتكوين فكرة عن الموقف في التحقيق ، وتحضير أو بلورة خطة للتحقيق معه يجري التحقيق او جولاته الاولى وفقها .

٤ ــ دراسة نتائج الجولة الاولى وما يتجمع من معلومات ومحاولة التعرف على الحالة النفسية للمعتقل ، وذكائه وسرعة بديهيته .. الخ ودراسة الفرضيات التي يكونونها عن نفسيته وشخصيته لتقرير اساليب التحقيق اللازمة (ربما تجري هذه الخطوات الثلاث في نفس الجولة أو في نفس اليوم أو بطريقة اخرى) .

أن المعلومات التي يحصل عليها المحقق في اللقاءات الاولى التي تبدو عادية ، وليس لها اهمية خاصة ، هي التي تشكل نقطة الانطلاق للتحقيق التالي ، كما ان المحقق

يحتفظ بها لاستخدامها في اي وقت يشاء ، وربما من خلال الاستجوابات الاولية يحصل المحقق على معلومات عن اشخاص آخرين (اذا كان المناضل مطيعا) كحالتهم، وضعهم الاجتماعي ، نوعية لباسهم ، الاطعمة التي يتناولوها ، الصحف التي يقرأوها ، عن سلوك محدد في يوم محدد في مكان محدد ، حدث عادي وقع للمناضل ومعه افراد آخرين ، كل هذه المعلومات تدون وتحفظ وتستخدم عند الحاجة ضد الذي أدلى بها أو ضد آخرين، وربما تستخدم كوسيلة خداع ضدهم وكأن المحقق يعرف عنهم كل شيء . يبدأ المحقق في التعرف على الحالة النفسية للتأثير عليها ، ووضع المعتقل في وضعية معينة لخلق نفسية معينة عبر جملة من الممارسات والاحاديث.

٥ ــ بعد التعرف وتقرير شكل التحقيق وخطوطه العامة وخطواته الاساسية يبدا المحقق في استخدام وممارسة الاساليب اللازمة .

ويجدر ملاحظته هنا أن المعتقل الذي يعي دور وهدف واساليب المحقق ، يمكنه ان يربكه ويدفعه باستمرار الى استخدام الضرب محطما بذلك كل المخططات ، حيث ان اعادة المحقق الى الضرب تعني اجباره على ستخدام ابسط الوسائل (ضرب .. سؤال : تريد ان تتكلم ام لا ... ضرب ، تريد ان تتكلم ام لا ... ضرب) ومن ثم عودة الى الزنزانة . وعودة الى التفكير باساليب جديدة وكأن شيئا لم يكن من التفكير والتخطيط السابق .

ان المحقق يلجأ الى الضرب كلما فشل في اساليبه، محاولا تبرير ضربه (كنوع من التأثير) فمثلا يشرح للمناضل انه لو تكلم لما ضربه ، وفي احيان اخرى يخلق مبررات سخيفة كان يطلب من المتهم أن يقف ، ومن ثم يستشيط غضبا ويسأل لماذا وقفت ؟؟ وينهال عليه ضربا لانه وقف . وربما يحاول ارغامه على اخذ سيجارة لان

قبولها يعتبر نوع من التفاعل الايجابي ويضربه ان رفض واذا لاحظ ان المتهم قبلها نتيجة الضرب فسوف يتشجع على استخدامه بوصفه عمل ناجع . اي أن أي اسلوب واي سلوك مهما كان لابد وانه يهدف الى التعرف على الشخص ، أو ايقاع اثر معنوي ونفسي وسياسي واجتماعي ، غير ان التوصل لايقاع مثل هذه الآثار يتم عبر جملة من الاساليب والممارسات التي تهدف في النهاية لا لايقاع الاثر الجسدي بعينه او التشويه أو القتل ، بل اخضاع المعتقل وخلق مناخ التعاون والانهيار ليدلي خلاله المتهم بالاعترافات .

فأساليب وسياسات التحقيق المختلفة والمتعددة ليست منفصلة عنبعضها البعض وهي ان استخدمت كلهاأو بعضها ، أو واحد منها يقوم بينها ترابط وصلات عميقة تكميلية او تجميعية الاثر . فجهاز التحقيق يمثل وحدة واحدة مهما اختلفت ادواته ، ومهما تعدد وتلاحق المحققون فهم يواجهون نفس الشخصية . وكذلك فان طرفي التحقيق يحملون اهدافا ثابتة : فاهداف المحقق وغاياته ثابتة وهي موجهة لمناضل ، واهداف المناضل وغاياته ثابتة وهي تخصه بالدرجة الاولى ، ويواجه بها المحققون .

اهداف المحققين نوعان : عامة وهي التي تهدف الى تحطيم الحزب السياسي المعادي من خلال افراده الذين يقعوا بين يديه واستخدام اية معلومات منهم لمطاردة الحزب والتضييق عليه وقمعه .

وخاصة : وهي التي تهدف الى الايقاع بالمتهم والحصول على اعترافاته واتخاذ الاجراءات ضده . واهداف المناضل هي صيانة شخصيته النضالية الثورية وتجسيد استعداداته للتضحية خلال التحقيق ، وترسيخ ارادة الصمود والصلابة لديه ، وينتج عن ذلك حماية الحزب والثورة خدمة لهدفه السياسي وصيانته لعضويته

كمناضل يخرج من محنته مرفوع الرأس منتصرا مبرهنا بذلك على قوة عقائديته امام رجال التحقيق .

وما دام التحقيق يسير بهذه الصورة ، واقطابه يحتلون هذه المواقع ، والمناضل مصر على الصبر والصمود ، فان اساليب التحقيق المتنوعة تتداخل وتتوحد، وربما يجري اتباع اسلوبين أو ثلاثة أو اكثر في نفس الجولة وفي نفس السياق كان يتعرض المعتقل للتعذيب الجسدي بغية النيل من نفسيته ، وفي نفس الوقت اتباع اساليب نفسية اخرى كان يحاول المحققون عقد صفقة مزيفة معه ، أو تشكيكه أو تصغير قضيته أو تكبيرها .. ووحدة الاساليب تظهر من خلال الممارسات المتعددة التي تهدف الى فك الارتباط الداخلي العميق بين العضو وبين شعبه ، فاسلوب التشكيك مثلا لا يمارس بدون تعذيب ، وتقديم ادلة ادانة ، وبدون تدخل محدد من المحققين تحت مظاهر متعددة (صديق ، انساني ، مجرم ، سفاح ، وسط ، مثقف) اي انهم يستخدمون اسلوبا معينا ويدعوه بعدد من الاساليب في محاولة لانجاحه .

وسوف نتعرض الان لجملة من الاساليب محاولين توضيحها كل بشكل منفرد لتسهيل الدراسة ، ولتبيان اثر كل واحد على الاخر ، وآلية ممارسة كل اسلوب ، وكيفية مقاومته مع العلم أن مقاومة وابطال أساليب التحقيق ممكنة بطرق غير محدودة .

ا ــ الاسلوب النفسي .

ب ــ الاسلوب العصبي .

الاسلوب النفسي

يقصد بالاسلوب : سلسلة من الممارسات والعمليات المؤطرة ، ومنهج ، يهدف الى التأثير على الوضع النفسي للمعتقل واخضاعه ، واضعافه نفسيا ومعنويا ، وافقاده تماسكه ، وخلق خلل عام في حالته النفسية وارتباطاته الداخلية ، بحيث يصبح اكثر قابلية للاستجابة لمؤثرات اخرى معينة ، واتخاذ ردود فعل محددة ، ويكون حجم تأثر المعتقل بالمناخ المحيط اكبر درجة ممكنة .

والحالة النفسية تتأثر بالحالة الجسدية (قليلا او كثيرا) حالة الجسم في وقت من الاوقات وبعض العوامل الخارجية كالاحاديث والروايات والاخبار السارة او المزعجة ، واثبات او دحض الافكار ، وتهويل القضايا وتخفيفها وغير ذلك . ويمكن التأثير على الحالة النفسية بممارسة الضرب مثلا بينما الجسم في وضعية معينة ، مربوطا او معلق ، او ملقى على الارض عاريا ويلقى على مسمعه عبارات ذات دلالة .

ويتم التأثير على الوضع النفسي باساليب وطرق منها :

١ ــ اسلوب التشكيك وهز الصلات : ــ

ليس بالضرورة ان يتبع هذه الاسلوب قبل غيره من الاساليب ، وهو لا يتبع بمعزل عن الارهاب ، وتقديم الادلة والمعلومات ومحاصرة المتهم ، وكذلك قد لا يكف المحقق عن اتباع هذا الاسلوب عبر مراحل وجولات التحقيق المختلفة . فما هو اسلوب التشكيك ؟

هو جملة من الممارسات ، والمظاهر ، والاقاويل التي تهدف الى عزل المعتقل عن ارتباطاته السياسية

والتنظيمية والفكرية ، ومعاملته (كفرد) وتناول قدراته وامكاناته الشخصية في الصمود والثبات ، وتيئيسه من الاستمرار في الانكار ، وتناول معتقداته ومبادئه بالتسخيف والدحض والاستخفاف ، والاستخفاف بموافقه النضالية، وممارساته ضد الاحتلال ونظام الحكم ، وتصويره على انه انسان ضعيف معتقداته خاطئة وغير معقولة ، وايهامه بانه تورط في أمور ليس له فيها ناقة ولا بعير ، وهي ليست اختصاصه أو واجباته ، وهو ليس في مستواها ، وان حكومات كبيرة عجزت عن تحقيق ما يهدف اليه ، وعبرت عن عجزها بالهزائم ، أو المواقف المتخاذلة ، وانه مغرر به خدمة لاهداف أشخاص يجنون من ورائه السمعة والثروة ... الخ . وبالاجمال فان التشكيك عبارة عن ممارسات تستهدف اضعاف صمود المعتقل من خلال تناول امكاناته الشخصية ومعتقداته وارتباطاته التنظيمية والسياسية وتسخيفها وتشويشها ، وتشويهها والطعن بها ، وتصغيره وتصغير دوره الى درجة عدم الجدوى ، وتصوير دوره انه ليس في خدمة القضية ، وتشويه دور القيادات السياسية والاحزاب والطعن في اهدافها ونواياها ، ونوايا القادة ، وادوارهم وسلوكاتهم اليومية ، وحرصهم على ذواتهم ، التفريط بالمغررين من امثاله . وايهام المناضل عبر اطروحات وتكرار اطروحات، بأن رفاقه هم الذين وشوا به ، وان واحد من مجموعته عميل نقل كل ما حدث لهم ، أو ان المسؤول متعاون معهم وهم يعرفون كل شيء عن الحزب ونشاطه ونشاط افراده وهو فقط (الضائع بين جماعته) ... أو ان نشاطه هذا ما هو الا خدمة لاشخاص لان خدمة القضية لا يمكن ان تكون بهذه الصورة لان اشكال النضال هذه لا يمكن ان تكون مجدية وها هو قد مضى كذا سنة ولم تعط اية ثمار ، وها هم المحكومون مؤبدات في السجون ماذا استفادوا بعد ان خربت بيوتهم والحقوا بانفسهم وباهلهم اضرارا لا يمكن تعويضها ... وبالنتيجة انه

غلطان وما عليه الا ان يكفر عن ذنوبه ويصلح خطاه بالاعتراف والادلاء بما لديه ضد نفسه وضد الذين ورطوه ولا داعي لان يتعب نفسه اكثر ويتعب المحققين معه بدون جدوى لان صموده لن يستمر وسيعترف في النهاية .

والمحقق يهدف الى اضعاف المناضل نفسيا وبلبلته ، ومن ثم اضعاف ارتباطاته بالحزب والقضية ، وحصر اهتماماته بنفسه فقط وبمصيره الشخصي في حدود مرحلة التحقيق ، متبعا شتى الوسائل والمعلومات ، أو شهادة احد المتساقطين ، أو رواية احداث عادية حصلت معه ، او احداث لها علاقة بالقضية من بعيد او من قريب كدليل على ان المحقق يعرف كل شيء ، أو كدليل على أن في الحزب خيانة (الله يجازي أولاد الحرام) الذين وشوا به ، والا كيف عرفوا كل ذلك عنه) وان الخيانات (بوصفها امر واقع) هي التي تمكن المخابرات من القبض على أولاد الناس وها هي المعتقلات ملأى بالمساكين امثاله ، أو انهم دفعوا مبالغ طائلة من أجل القبض عليه وانه من حسن حظه انه قبضوا عليه اليوم قبل الغد وهذا لمصلحته ، أو أنهم من مدة طويلة يتتبعوه ولم يشاؤا القبض عليه الا في الوقت المناسب ، أو قبضوا عليه قبل ان تورطه جماعته باعمال خطيرة تؤدي الى احكام عالية وذلك لمصلحته لان المخابرات لا تحب ان تضر بالناس ، وانهم ايضا يحققون معه فقط من باب الشفقة بغية مساعدته على الخلاص افضل من ان يحقق معه غيرهم ولا يرحمونه وهم سيضمنوا له حكما بسيطا على ان لا (يعيدها) ..

ويلجأ المحقق الى تصوير نفسه على انه العارف ببواطن الامور ، والقادر على كل شيء ، وانه يفهم القضية السياسية فهما عميقا وصحيحا بينما يفهمها المعتقل بشكل سطحي او مغلوط او مخدوع ، أو ان المعتقل لم يفكر جيدا بنتائج اعماله ، ولم يتصور الاعتقال والتحقيق وعذاباته ، ونسف البيت ، وترك العمل والاطفال والحبيبة ، وانه (فكر نفسه أشطر من

المخابرات ولكن ها هي المخابرات صادته في الوقت المناسب ، وها هو امامهم انسان ضعيف لا يساوي شيئا) (واذا كنت في الخارج تفكر نفسك شيء كبير ها انت بين ايدينا كالعصفور) .

ويلجأ المحقق الى تصوير نفسه على انه الاب العطوف ، والناجح الامين الذي لا يخسر شيئا ولا يكسب شيئا وانه فقط يرغب في مساعدة المعتقل وحمايته مما هو اعظم واشد . مع ذكر عدد من الوقائع المتعلقة بتضخيم دور المخابرات ونجاحاتها وامكانياتها الهائلة في العمل برا وبحرا وجوا ، والوصول الى كل مكان ، وكل بيت ، في الداخل والخارج ، وان لهم في كل مكان عملاء ومتعاونين واجهزة توصلهم المعلومات اول بأول .

وفي سياق تركيز كهذا على النفس والذات ، وحصر المسالة في المعتقل شخصيا من خلال التشكيك المتواصل بكل شيء ، يلجأ المحققون الى ايهام المناضل بانه الوحيد في المجموعة الذي لا يتعامل معهم وان كل المجموعة عملاء

وان كل ما حدث في الخارج هو عبارة عن (فيلم معد سلفا) حتى يتمكنوا من الايقاع به وجلبه الى هذا الوضع حتى يستطيعوا التفاهم معه او اقناعه التعامل منهم ، او ان المجموعة كلها عملاء وقبضوا الفلوس من اجل الايقاع به وتدميره وهو غبي لم يكتشف اللعبة ، وانه لا اهمية للمعلومات التي عنده فهي معروفة المهم ما بعدها ... او ان المجموعة مخروقة بالعملاء وعند اعتقالهم اعترفوا كلهم بكل ما لديهم ، واعترفوا عنه وارتاحوا من التعذيب وفقط هو (الحمار الذي لازال يركب راسه) ويقاسي العذاب ويتعرض للضرب والجوع والارهاق (وكل التعذيب الذي حصل حتى الان بداية) وانه لن يستطيع الصمود مهما كان راسه يابسا وسوف يقول كل ما عنده ، ولماذا الخوف من الاعتراف .

واستمرارا على هذا النهج ، واذا ما اتاح المعتقل لهم الفرصة ، يلجأون الى عملية الاستخفاف المتواصل

باهدف المعتقل (تريد تحرير فلسطين !!؟؟ .. فلسطيز) من انت حتى تحررها .. جيش الدفاع فعل كذا وكذا .. والعرب تقواهم الكبرى ١٠٠ مليون هزموا في الحرب كالنعاج .. وانت تريد ان تعدل الميزان .. أم انك تثق بقدرة المنظمات على التحرير .. يحررها ابو عمار وهو في منتزهات كذا .. وغالبا تستخدم هذه العبارات مع الضرب الشديد اذا كان المناخ غير مناسبا ، او بشكل تعبوي أبوي في اوقات اخرى .

وهكذا يستمر حصر تفكير المعتقل في وضعيته الذاتية، مجردينه من كل ما حوله .. الحزب خائن او ضعيف .. الرفاق خونة او ادلوا بما لديهم .. الثورة ضعيفة . . الاهداف مستحيلة .. قدرة المخابرات ليس لها حد . . انت فعلت كذا .. نحن من مصلحتك .. انجو برأسك . كل ذلك بغية ان تعتمل في ذهنية المناضل تفاعلات وافكار في حدود مصيره الشخصي وتجريده من اقوى سلاح هو عقائديته وارتباطاته والاستفراد به .

ان استخدام هذا الاسلوب جزئيا او كليا يعتمد بالدرجة الاولى على ١ — وعي المعتقل ٢ — ارادته فالمعتقل الذي يعي ومنذ الكلمات والممارسات الاولى انه بصدد التعرض لحملة تشكيك ، وان المحقق سيطرح اشياء مزورة وكاذبة لن يصدقها مهما دعمها بالوقائع فهدف الحملة في التحليل النهائي تشكيك المناضل ودفعه لقول اسراره وبالتالي فان شكلها او كثافتها او مضمونها وما يقال ويثار خلالها ليس مهما في هذه الحالة ما دام المعتقل محصن سلفا وعارفا بالملموس حالته ووضعه النضالي وموقفه في التحقيق واسراره الذي لاحد له على الصمود والصبر . ان هذه الحملة لن تنال من صمود الثوري ولن تدفعه للانهيار حتى لو تضمنت وقائع صحيحة ، فهذه الوقائع لا تعني تحريك اللسان والبوح بالاسرار ، فقط تعني ان رجل التحقيق يقوم بمهامه ويحاول انتزاع الاعتراف بدرجة من التصميم ليست

قليلة ومعروفة . أن حقيقة كون هذا اعترف ، او ذاك ذكر بعض المعلومات ، او انهم (يعرفون كل شيء) لا تكفي المحقق ولو كانت تكفيه لما استمر في التحقيق . انه يصر على الحصول على المعلومات ، والمناضل يصر على الصمود والامتناع عن قول اي شيء مهما كانت الادلة ، وغالبا ما تكون الادلة وهمية او ايمائية ، ولكنه حتى لو كانت صحيحة فهي لا تبرر الاعتراف بل ستدفع المناضل الواعي الى المزيد من الاصرار والمزيد من التضحية .

علما بأن المناضل الواعي يستطيع وبكل بساطة انشال حملة التشكيك من اولها كان يظهر وعلى الفور عدم الاستجابة ، وعدم الاكتراث ومقاطعة المحقق ، والتنصل من التهم والارتباط بالمنظمات والاحزاب وان كل ما يقال لا يهمه ولا يعنيه في شيء .

ان المعتقل يستطيع ان يعي مهارات المحققين وخدعهم ما دامت كلها تعبيرا عن هدفهم ورغبتهم في اضعاف نفسيته وتشكيكه ، فقد يلجأ المحقق لدعم اطروحاته بوضع رفاق المعتقل في اوضاع معينة كان يجلسوا في مكان مريح ويتحدث معهم مجموعة من الضباط بمرح ، ومعهم سجاير وأمامهم فناجين الشاي والقهوة ، ويتبادلون النكات المفتعلة ، أو اي حديث بمظهر ودي مخطط ومبرمج من قبل المخابرات وبدون وعي الرفاق الاخرين للدور الذي يقومون به ، ثم يدفع بالمعتقل قيد التحقيق بعد حملة من الاهانات والضرب والتشكيك للمرور من جانب زملائه ، ومن ثم مقارنة وضعه باوضاعهم ، وايهام المعتقل بانهم اعترفوا وانهوا ما لديهم او انهم متعاونين معهم منذ البداية .

وليس غريبا على سلطات فاشية ان تلجأ لافتعال مظاهر اخرى استنادا على معرفتهم لخلفية المعتقلين ، بأن تدفع باحدى المجندات لتجاذب اطراف الحديث مع زميل آخر معتقل وبطريقة مائعة ، وربما عادية كان تسأله عن اسمه ، واسم قريته ، وعمله ، وبينما يكون في هذه

الحالة يفتعل المحقق حركات معينة من شأنها إن تلفت انتباه المعتقل ليشهد الحادثة ومن ثم يصب عليه حملة من الاباطيل بأن هذا الزميل اعترف بكل شيء وسنساعده وها نحن نكافئه بأن نجلب له المجندات ليتسلى معهن ويصطحبنه الى غرفهن ... واي شيء مما ذكر اعلاه يقصد الايحاء للمعتقل للمقارنة بين وضعه الصعب ومعاناته من اشد واقسى انواع القهر ، بينما غيره يمازح المجندات، او يشرب الشاي مع اكابر الضباط وكانه في وليمة .

ان الهدف النهائي هو خلق جو معين حول المناضل وصياغة حالة نفسية معينة له يتركز خلالها اهتمامه على وضعه الشخصي بعد ان (يكفر) بالقيم التي اعتقل من اجلها فيصبح لقمة سائغة بين ايدي المحققين يسهل عليهم فهم حالته النفسية الحاضرة والتنبؤ بها ومن ثم وبعد ملاحظة الترددات ، ولتشتت الافكار والسرحان في التفكير ، الاستمرار في تعميق الهوة بين المناضل وارتباطاته ورفاقه وشعبه .

وكما قيل سابقا فان مجرد وعي هذه الاساليب يكفي لتفويتها سواء تمكن المحقق من الاستمرار في استخدامها ام لاحظ فشلها من البداية .

وبالاضافة الى وعي المعتقل لاسلوب التحقيق تبقى ارادته الصلبة ارادة الانتماء ، ارادة النضال ، وارادة الصبر والصمود والصلابة ، وماذا تجدي كل اساليب التشكيك أمام الارادة الحديدية الواعية لما حولها ، وماذا تجدي كل اساليب التحقيق أمام الارادة المصممة على التحدي والتضحية مهما كانت النتائج .

ولننظر للمسألة من زاوية انها تفاعل (صراع ، وانسجام) بين قطبين هم في الاصل متناقضين ومتعاديين ويهدف المحقق الى تدمير شخصية الطرف الاخر وابتزازه وكشف أسراره ، وتعبيرا عن هذه الغاية يسعى الى اضعاف مركز النقيض ، والاتصال به نفسيا ومعنويا عبر الضرب والارهاب والتشكيك ، ويسعى الى ادخال درجة

ولو بسيطة جدا من القناعة الى ذهنية المعتقل بانه يقول شيئا صحيحا او على الاقل مهما ، انه يسعى الى اسماع المعتقل بشيء يعتقد ان من المهم له ان يسمع ويتابع ، وربما يفكر بما يقال ، وربما يسأل ويستفسر ، وهنا يأخذ دوره في الانتقال تدريجيا من دور المناقض الى دور المتمايز ثم المنسجم (او المتعاون في خلق الجو النفسي) هذا اذا مكنه المعتقل من ذلك او اذا انطلت اللعبة ووقعت الكارثة . والمحقق يتابع نتائج حملته اولا بأول فكلما لاحظ انه استطاع تحقيق بعض الاثر مهما كان بسيطا فانه يستمر ، اما اذا اخذ دور المعتقل ينتقل شيئا فشيئا من السلبية الى الفعل ، كان يقاطع المحقق ، وينفي التهم الموجهة له شخصيا ، ويعبر عن عدم اكتراثه بكل التقييمات ، اي اذا عمل ما من شأنه ان يوضح للمحقق بأن اسلوبه فاشلا فان المحقق سيكف عن هذا الاسلوب ويتركه لاسلوب آخر . قد يكون من المناسب ان يظهر المعتقل عدم الانتباه ، وحينها سيحاول المحقق دمجه في السياق بواسطة حديث حواري يتخلله اسئلة ويحتاج الى ردود ، والمعتقل الصلب يظهر عدم انتباه وانه لا يريد ان ينتبه ، وانه لا يهتم ما اذا كانت القيادة عميله ، ام ثورية ، ما دام ليس له اي علاقات او ارتباطات، او انه لا يريد ان يعترف بشيء تحت اي صيغة (في حالة القبض عليه متلبسا فليس امامه اي دفاع سوى انه لا يريد ان يعترف وانه لم يقبض عليه في الوضع المذكور وانه لا يعرف شيئا) .

ان الموقف الصلب هو خير وسيلة لافشال اسلوب التشكيك مهما كانت درجة احكام الحصار التي يحاول ان يخلقها المحقق ، ومهما كانت الثغرات التي يسعى الى فتحها . ان المحقق لن يتورع عن خلط جملة من الافكار والاراء والوقائع والاوصاف دفعة واحدة ثم يعمد الى البرهنة على واحدة منها لتكون دليلا على صحة كل ما طرحه فمثلا (القيادة عميلة ، والنضال لا اهمية له

وهو كله في (البطال) ، والاعضاء الاخرين كلهم متعاونون معنا واعترفوا كلهم ، وبكل شيء ، ولدينا كافة المعلومات عنك وعن حزبك ونعرف ماذا تغديت وتعشيت ... الخ ثم يحضرون احد زملائه (اذا كان احدهم معترفا) ليدلي امامه بشهادته ضده ، ومن ثم يتخذونها ذريعة لصدق كل ما يقولوا (يحاولوا ايهام المعتقل بأن كل ما قالوه هو عين الصواب ، وربما احتاجوا الى دليل اقل بساطة كان يستعملوا المجنده المذكورة سابقا ليشككوه بزميله وبنفسه وحزبه) .

ان مجرد صدق واقعة واحدة من بين جملة من الوقائع ليس دليلا على صدقها كلها ، فاذا كان احد الزملاء معترفا بالتهم المسندة اليه فهذا لا يعني انه معترف او متساقط حتى ولو كانت رغبة المخابرات تشويه سمعته .

وايضا فان اعتراف احد الزملاء وحتى شهادته المباشرة ضد المعتقل لن تعني شيئا وليست مبررا لدفع المعتقل للاعتراف بما لديه فالمسألة ليست مسألة توفر ادلة عند المحقق أم لا ، فان لم تكن لديه ادلة صمدنا ، وان كانت لديه ادلة اعترفنا ، ان المسألة هي مسألة الصمود في التحقيق في جميع الاحوال وتحت شتى الظروف والخروج من التحقيق بنفس الهيبة والمعنوية والحالة النفسية العامة ، والتصميم النضالي ما قبل التحقيق . وكثيرون هم الذين توفرت لدى المحققين ادلة ضدهم ولكن لم تتوفر لديهم القدرة على تركيع المناضل وابتزاز المعلومات منه . وكثيرون ايضا من الصدفيين ، الذين افتعل المحققون امامهم ما يوحي بتوفر ادلة وهي غير متوفرة وبعضهم اعترف لهذا السبب وتورط .
(لا اعرف شيئا هي الجواب العلمي الحاسم على اسئلة المحققين التي يراد منه الايقاع بالمناضل وبرفاقه) .

٢ ــ اسلوب الارهاب

في التحقيق كما في الساحة النضالية نفسها تمارس سلطات القمع الارهاب والتنكيل بالوطنيين الثوريين والمواطنين بغية تمرير سياساتها ، ولجم الحركة الجماهيرية المناضلة الرافضة لسياسة السلطة ووجودها، والارهاب الرجعي سمة ملازمة لسلطات الرجعية تكشف عنها بهذا الشكل أو ذاك حسب الوضع السياسي العام ودرجة خطورة الحركة الجماهيرية ، فكلما ازدادت وتيرة النضال ، ازدادت درجات القمع والتنكيل ، ومن ضمنها زيادة حجم الاعتقالات المنظمة والعشوائية وازدادت وحشية المخابرات والجلادين في التحقيق .

وعلى نطاق التحقيق بالذات ، كلما شعر الجلادون (متأثرين بالوضع السياسي العام) بخطورة المنظمات والاحزاب ومجموعات المقاومة ، كلما ازدادت فاشية ممارساتهم مع المعتقلين ــ نهج واحد ، وهدف واحد .

وكما أن القمع المتواصل ، ونسف البيوت ، ونظام منع التجول ومختلف اشكال المضايقات والكبت المادي والمعنوي لا يثني الحركة الوطنية ، والاحزاب الثورية المكافحة عن اهدافها وسياسة تصعيد نضالها ، كذلك الحال مع المعتقلين الثوريين المكافحين من اجل الحرية ، تزداد درجة استعدادهم للصمود كلما زاد عسف المحققين وحشيتهم ، نهج واحد وهدف واحد ــ الصمود والتضحية وافشال اهاف الجلادين .

فاهداف الارهاب واحدة في النهاية ــ التخويف ــ وضع الحركة الوطنية ، واحزابها على عتبة الخوف ، وهنا تبدأ سياسات السلطة تعطي ثمارها :ــ فالحزب الذي يخاف ، ويرهب اعضاؤه الاعتقال والعسف ، والاقامات الجبرية والمضايقات يحني رأسه للعاصفة ويتحول من حزب مكافح قولا وعملا ، الى حزب على هامش الحركة والنضال ، ويحسب حساب السلطة

ويخشى غضبها في كل سلوك يسلكه فردي كان ام عام . أما الحزب الذي يصمم على الكفاح وقيادة نضالات الجماهير ، وتحسين ممارساتها وتوعيتها ، وحشدها ودفعها للمواجهة فانه يستثمر كل عسف سلطوي ، واجراء همجي كقتيل يزيد الحركة اشتعالا مما يربك السلطة ويدفعها باستمرار لتغيير سياساتها حتى تصل الى درجة العجز .

وفي التحقيق يقف المناضلون المتلئون ثورية ووطنية، المؤمنون بقضيتهم وقضية شعبهم سدا منيعا ، وجدارا قويا في وجه ارهاب المحققين ، ويزداد حقدهم ورفضهم كلما ازداد تعسف المحققين ووحشيتهم الى أن يستنفذ المحقق كل وسائله واساليبه ويجلس مفرغا منهكا ومهزوما . فأدوات القمع المختلفة ، هي في التحصيل النهائي جهازا واحدا بيد السلطة يعمل في الساحة بما فيها المعتقلات خدمة لنفس الغاية الرجعية ، وعلى درجة من التكامل والتمازج . والمناضلين في الساحة والشارع الذين يكيلون للعدو الصفعات والضربات ، هم انفسهم الذين يواجهونه بصدورهم ولحمهم ودمهم في الاقبية اضعاف اضعاف ما هي عليه في الشارع بسبب كثافة التحدي وعنف الصراع .

لم يجعل أن فكرت سلطة رجعية بابادة الجماهير جسديا عن بكرة ابيها ، وهي أن قتلت أو جرحت او استخدمت كل أشكال العنف انما تستخدمها بقصد الارهاب ، بالاستناد الى خلفية فاشية ، تعسفية متوحشة . واستنادا الى ايديولوجية حاقدة وتعبئة رجعية . وكذلك الحال في التحقيق : فان المحقق لا يهدف الى الابادة الجسدية عبر جولات التعذيب المختلفة ، أنه يهدف الى الارهاب ، التخويف للوصول الى نتيجة اخرى هي الاعتراف . أن الارهاب هو وسيلة لتخويف المناضل وهز معنوياته وارتباطاته ، وسيلة لهزيمته في التحقيق . فما هو اسلوب الارهاب ؟.

اسلوب الارهاب : هو جملة من الممارسات الوحشية والمادية والمعنوية العملية ، واللفظية التي تتناول وبشكل مباشر نفسية ومعنوية وصمود المناضل عن طريق التعذيب الجسدي وتهويله ، او التهديدات باستمرار التعذيب الى الابد ، أو التهديد باجراءات قمعية قوية كنسف البيت، وقتل الاطفال ، والاحكام العالية في السجن ، أو كل الطرق معا ، وذلك لتشويش وضع المناضل وتصوير التحقيق له على انه الموت الزؤام ، وانه لن ينتهي وانه يستمر الى الابد ، وان مركز التحقيق هذا لا شيء (بالرغم من كل قسوته) وانه سيجري نقله الى صرفند ، أو مركز تحقيق آخر فيه تعذيب ابشع واقسى ...

يبدأ المحقق في تهويل التحقيق ، واستخدم الضرب القاسي وتمثيل ومظاهر محكمة توحي بنتائج غامضة كان يبدأ عملية الضرب على كفي القدمين بأن يحضر عصاه ضخمة ، وسلسلة حديد كبيرة ومساعدين اثنين أو ثلاثة ، ثم يحضر طشت ماء ، وعلبة كاز ، وخطافة تعليق اللحم وعدة أدوات اخرى من مختلف الانواع بقصد الايحاء ، ثم يفحص عيني المناضل ، ويأخذ في تحريك الاشياء ، فترة من الزمن فاسحا فترة ولو صغيرة لبلبلة المعتقل ثم يبطحه على الارض مصحوبا بصوت السلاسل ، ثم يربط قدميه بالكرسي ، ويبدأ الضرب وخلال ذلك يتلفظ بكل ما يهدف الى الايحاء بالخطر القادم (علما بأن العملية بسيطة وهي عبارة عن رفع القدمين والضرب) ثم يأخذ بالضرب واستمرار الايحاء بالاخطار والاهوال الارهابية مشيرا الى أن هذا الوضع القاسي هو مجرد بداية .. وان المخفي اعظم . .. وانه لا بد من الاعتراف ... وان غيره أعظم منه ولم يستطع الصمود ... وأنه لا خلاص بدون اعتراف ... وان الثورة لن تنفعه ، وان اهله سيموتون جوعا بعد موته .. الخ من التهديدات والتشكيك المتواصل بهدف اخافة المعتقل ، ودفعه للتفكير بوضعه الخاص فهو فقط الذي يجلد الان ، أما قادته فهم في الكباريهات مع

الحسان ، وان قادته يعرفون انه عنيد وقد سلموه للتحقيق بهدف الخلاص منه لانهم يعتقدون انه سيموت تحت التعذيب ....

وهكذا يوحدون جملة من الممارسات ، ويدعموها باساليب التشكيك والتهويل بعد ان يطمئنوا انهم خلقوا جوا ارهابيا يعتبرونه مناخا مناسبا للسيطرة على المعتقل وتوجيهه نحو الاعتراف والسقوط .

صحيح ان المعتقلين انواعا في درجة استعدادهم للتضحية ، وصحيح أن لكل منهم سمات فردية خاصة ، وبنية جسدية خاصة ، وصحيح أن درجة الشجاعة والاستعداد للتضحية متفاوتة ، وصحيح أن الجميع مستهدفين اثناء التحقيق للوصول الى حالة الاعتراف . ولكن صحيح ايضا أن الظروف هي التي تخلق الانسان ، وليس نادرا أن يقف الجبان في لحظات معينة موقفا شجاعا ويذوق طعم الشجاعة ويصبح بطلا ، وصحيح ايضا ان لا أحد يقدم نفسه لقمة سائغة للعدو يحصل بواسطته على المعلومات والاسرار ، ويتلقى بالاضافة للتعذيب القاسي (الذي يستخدم مع الجميع) يتلقى ايضا احكاما واجراءات سلطوية تدوم سنوات وسنوات بدلا من اجراءات زمن محدود وينتهي . والصحيح ايضا ان اي فرد متماسك التفكير لا يقبل أن يحمي يده من الكسر (وهذه حالات نادرة وقعت في التحقيق) ولا يحمي عمره من السجن أو يحمي ثورته من عسف السلطة ، او يستبدل الخطر الواقع على يديه ورجليه بالخطر على عشرات الرفاق من جهة ، والخطر الناتج عن سقوطه من أخرى .

أن المسألة كلها تتركز في وضع المعتقل في حالة رهبة عامة من كل شيء ، من الضرب ، من دخول الزنزانة ، من الخروج منها ، من السير أمام الجندي ، من التوقيف في زنزانة جانبية لانتظار جولة اخرى ، خوفا حتى من تعصيب العينين ، خوفا من حركة يد المحقق ،

من قيامه عن الكرسي ، من دخول أي شخص جديد ، خوفا من اطفاء النور ، خوفا من أشعاله : هذه حالة الخوف العامة المطلوبة التي يرجى أن يعيشها المعتقل في الجو الارهابي .

واذا ما لاحظ المحقق أن المناضل أخذ يتعاون وينسجم مع المناخ ، أخذ يستجيب للوضعية الجديدة فانه سيزيد من اجراءات القمع والتخويف واعداً بانهائها اذا (وضع المعتقل ما لديه على الطاولة) وبالتالي تصبح الحالة على الوجه التالي : نستمر في اجراءاتنا حتى تعترف ، وهذا يهدف الى بلبلة المعتقل ودفعه للتفكير (اصول اعترف وأخلص) .

متى يصل المعتقل الى هذه الحالة : ببساطة اذا خاف من اجراءات ومظاهر سلوك المحقق . أما اذا لاحظ المحقق أن كل هذه الاساليب لم تخيفه فلن يعود اليها . وخاصة أن هذا الاسلوب ليس مضمون دائما . فالمعتقل غير الواعي نضاليا ، والغير واعي لاساليب التحقيق سوف يواجه هذا الإسلوب باحدى احتمالين :

١ — أن يؤدي الارهاب الى رهبة اكبر من الاعتراف بحيث أن المعتقل يرهب الاعتراف اكثر مما يرهب التعذيب، وانه ما دام يتلقى كل هذا العسف فلن يقول شيئا .

٢ — احتمال ان ينفعل المعتقل لسذاجته مع الارهاب ويبدل كل شيء بالخلاص من الضرب مقدما نفسه لقمة سائغة يلوكها المحققون ورجال المخابرات وادوات القمع الاخرى كما يشاؤون .

والمعتقل الملتحق بالحركة الوطنية والذي اعتقل من موقع نضالي ، ولم يتلق الاعداد والتربية الثورية الكافية فانه لن يختلف عن الصدفي الذي اشترك في عمل ما بالصدفة ، فقد يعترف من أول لحظة وقد تشده ارتباطاته الاجتماعية ، وعلاقاته الشخصية مع زملائه ، والقيم الاجتماعية الرادعة ويستمر في الصمود ولا يعترف .

ومن المهم الاشارة الى أن الاعتراف يقع بسبب الاستعداد الشخصي للاعتراف وليس بسبب الضرب والارهاب وقد لايحدث الاعتراف أيضا بسبب الاستعداد الشخصي للصمود في حالات اعتقالات الصدفية . أما المناضلين المحترفين فأن الامر يختلف قليلا من ناحية وجود الاستعداد الشخصي لعدم الاعتراف مسبقا وقبل دخول أقبية التعذيب والتحقيق والاستعداد للتضحية لا يتحمل الالام فحسب ، بل التضحية حتى الشهادة .

فاذا توفر هذا الاستعداد فان تجاوز حاجز الخوف، حاجز الرعب يتم بخطوة واحدة . فبين الرعب والشجاعة حاجز بسيط وهش ما ان يخرقه المناضل باصبعه حتى يقف في ساحة البطولة ، واذا انعدم الخوف انعدم الاعتراف ؛ وانهارت خطط المحققين ، بل أن تجاوز حاجز الخوف ، سيجعل من كل ضربة عصا ، من كل صدمة كهربائية ، من كل لسعة بسيجارة ، جدارا متناميا يفصل ما بين المعتقل والمحقق ؛ سيجعل من كل جولة تعذيب عربونا آخر على الصمود والتحدي ، ليضرب المحقق كفا بكف باحثا عن أسلوب آخر أو واصلا للنتيجة المحتومة (لورنسي لدبير) .

أن الجهل والخوف هما السببين الرئيسيين لوقوع ضحايا الاعتراف عبر هذا الاسلوب ، وعددا ليس يسيرا من مناضلي الحركة الوطنية الفلسطينية قد وقعوا ضحية جهلهم وخوفهم من الضرب ، وكان الضرب شيء غير مألوف ، وصعب وعسير على الفهم ، أو كان الضرب عملية سحرية فاذا ضرب الانسان على رجليه يتحرك لسانه ، واذا ضرب على اعضائه الجنسية فان الله ينطقه باسرار تهم رجل التحقيق ... (المهم أن انتهي من هذا الوضع) هكذا يقول المعتقل الساذج وهو في حالة الخوف .

غير أن المناضل الواعي بعكس كل هؤلاء ، لا يسعى بنفسه الى وقف الضرب ، ولا يستجدي المحقق للكف عن

التعذيب ، بل يشتمه ، يصفه بالاوصاف التي يستحقها ، ويزيده استفزازا ، وكانه يقول له (هيا اضرب فهذا لا يهمني) بل انه قد يستفز المحقق في كل مرة دافعا اياه لاستخدام الضرب والتعذيب الجسدي لانه ابسط اشكال التحقيق واقلها تعقيدا وايسرها على الفهم لان الارهاب المحاط باشكال التعذيب لا يمكن أن يستمر على نفس الوتيرة وحجمه في اليوم الواحد محدود ، غالبا ما يعاد المعتقل بعد الضرب لزنزانة فيأخذ حينها قسطا من الراحة النفسية والجسدية بانتظار جولة اخرى لايهم متى تأتي . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فان الضرب الجسدي هو زاد المحقق في جميع الاحوال وان اختلف التركيز ، او الحجم ، وان الجسد يستطيع تحمل الضرب ولمدة طويلة حتى دون اغماء ، ما لم توجه ضربة الى مكان معين في الجسم تؤدي للاغماء . والاغماء ليس خطيرا وهم يعالجوه عادة برش الماء على الوجه او بعض المنبهات ، وربما كان الاغماء سببا لاستراحة تالية .

ان سلطات الاحتلال في المعتقلات تستعمل كل اساليب التعذيب الجسدي والنفسي وفي معظم الاحيان وفقا لترتيب معين وبرمجة محددة : كان يبدأ الضرب بالصفعات على الوجه والرأس ، والقبضات المغلقة على جميع اجزاء الجسم ، والضرب بعصي او اسلاك على جميع اجزاء الجسم ، والضرب على الاعضاء الجنسية ، وعلى كفي القدمين وبشكل وحشي وقاس يتحسسه المرء في الضربات الاولى وقبل ان تتخدر اعصابه ، وكذلك الرش بالماء البارد شتاء يليه الماء الساخن والرش بالماء الساخن صيفا ، وتعليق الجسم ، واحيانا التعليق من يد واحدة وهذا نادر الحدوث وان حدث فلبضع ثواني قليلة ، والتعليق من القدمين مع الضرب ، ورش الملح على الجراح (وهذا مع ما يثيره من شدة الالم له نتائج ايجابية من حيث حماية الجراح من التعفن) وكذلك

الصعق بالكهرباء ، ووضع المرء في غرفة مع غاز يسبب الام في الراس والعينين ، وضع الراس في سطل ماء بغية المضايقة ، تغطية الراس بقطعة قماش وصب الماء عليه ايضا بغية منع الهواء والمضايقة او تلبيسه بالكيس ذا الرائحة الكهريهة مع صلبه ، الكي بالنار والسجاير ، ووضع البيض المسلوق الساخن جدا تحت الابطين ، الوخز بالابر ، ضرب الجسم بعد ان يكون قد تعرض لجولات ضرب سابقة بقضيب طري وبشكل متواصل ، تكسير الاظافر ، كسر اليد عمدا (مع علمهم ان كسر اليد لا يقتل الانسان) . التجويع لمدة طويلة ، الحرمان من الماء لمدة طويلة ، الحرمان من الدخول لدورة المياه مدة طويلة ، الصلب والتوقيف والمعتقل مربوط الى الحائط من يديه المقيدتين الى الخلف ومكان الربط عال عن مستوى الجسم ، وابقاء المعتقل في هذا الوضع ست ساعات ، عشرة وربما ايام . حرمان المعتقل من النوم ايام عدة او من الاغطية والفراش اثناء النوم ليظل يعاني من البرد وقسوة الارض ، تعصيب العينين ايام متواصلة دون أن يرى الانسان النور . ارغام المعتقل وبالقوة للجلوس على زجاجة ، او وضع عصا في فتحة الاخراج ، وضعه في اوضاع صحية قاسية لمدة من الزمن دون علاج ، وضعة في ساحة واطلاق الكلاب عليه فتنهش كل اجزاء جسمه ، وضع كلاب معه في الزنزانة . ضربه بعصا قوية على راسه وشج راسه عدة مرات ، واذا كان جريحا توسيع جراحه ، واذا كان جرحه معالجا بعملية جراحية ، يزيلوا القطب ويجرحوه ثانية وربما عدة مرات كما حصل مع العديد من المناضلين الجرحى في سنوات ٦٧ — ٧٢ ، واذا كان جريحا ايضا عدم ارساله للعلاج ، أو ارساله للمستشفى والتحقيق معه وتعذيبه في غرفة المستشفى كما يحصل عادة في مستشفى الرملة . والفتيات يتعرض لكل او بعض ما ذكر اعلاه كالرجال مع تخريب مظاهر جمالية لديهن . وهذا فيض من غيض . وقد يستخدم

كله او بعضه في جولات التحقيق اعتمادا على خطورة التهمة او المناضل نفسه .

هذه وحشية الاحتلال وكل السلطات الرجعية في كل مكان ، وهذه اشكال التعذيب التي يصمد لها الابطال المكافحين بثبات وتصميم ويفشلونها تماما ولا يحصل العدو منهم على بنت شفة .

ان ادراك المعتقل لغايات الارهاب والتخويف المصحوبة باشكال والوان التعذيب المختلفة تعتبر خطوة هامة وحاسمة على طريق الصمود ، فالمحقق يهدف الى اخضاع المعتقل ، أما المناضل الذي يصمم على ضرب مثال بطولي في الصمود والتضحية ، وعدم الرضوخ مطلقا مهما كانت الاساليب ، ومهما كانت درجة التعذيب، فانه سيدرك ابعاد التهديد والارهاب ويرد على المحقق : ... افعل ما تشاء ... هذا لا يهمني ... اضرب ... ارسلني الى السجن العسكري لا بأس .. هات الكلاب .. اعطني السم الذي تتحدث عنه .. علق لي مشنقة هذا أفضل ... أن شئت أنا اساعدك في الضرب واضرب رأسي في الحيط .. كل شيء لا يهم المهم انني لا أعرف شيئا) .

لقد تعرض العديد من المناضلين لاصناف من التعذيب تعجز عن الوصف ، من شدتها وقسوتها وطول مدة وقوعها ، في سجن صرفند ، وفي المسكوبية ، والخليل، ونابلس ، وتعرض رفاق مكافحين لقساوة التعذيب لهذه الاشكال من العسف ، وليس لديهم من سلاح يقي جلدهم سوى صبرهم وايمانهم ، وانتصروا على جلاديهم ، هذه تجارب ودروس الثوريين ، هذه المواقف دفعت وتدفع الجلادين في البداية لزيادة وحشيتهم ، وفي النهاية لليأس والتسليم ، فلا الجلوس على المسامير ، ولا الجلد بالقضبان لفترة طويلة يكفي لزعزعة صمود الابطال وتحريك السنتهم ما دامت هذه طبيعة الصراع . والتحقيق يخلق الابطال والرموز الثورية .

ولو كانت اساليب الارهاب هذه مجدية تماما ولو كان الضرب وسيلة تعطي الثمار الحتمية لاستخدمت لوحدها دون غيرها ، فهي لاتحتاج الى كفاية عالية وتدريب خاص فبامكان اي انسان أن يحمل العصا ويضرب ، واثناء الضرب يشتم ويصيح ، ويهدد ويتفوه بابشع الالفاظ ، وبالتالي يصل الى افضل النتائج . غير أن الواقع يختلف ، ونجاعة هذا الاسلوب ولى زمانها ولم تعد تنفع شيئا مع المعتقلين السياسيين الملتزمين الاقوياء في انتمائهم المستعدين للتضحية ببعض الالام اثناء فترة التحقيق .

ان صبر المناضل ، وعدم اكتراثه ، وعدم لجوئه الى طلب الرحمة (هذا الطلب غير المجدي والذي فقط يشجع المحقق على الاستمرار) ولا يظهر اي قلق او تذمر، والاستمرار في الصمود سوف يجعل المحقق يدرك انه فاشلا وأن اسلوبه لا يمكن ان يعطي الثمار بل سيخشى من زيادة الهوة بينه وبين المعتقل ، وبالتالي هو الذي يصل الى حالة التردد كما يدفعه الى التوقف في النهاية لينهي التحقيق او يتبع اساليب اخرى يسهل افشالها ، بعد أن يكون المعتقل قد تناول جرعة قوية من الصمود ، فقط يظل المحقق يهدد باللجوء الى العسف بين المناسبة والاخرى ليدرس ردود فعل المعتقل .

سيستمر المحقق في التهديد باستعمال العنف والعسف فقد يلجأ بعد احدى الجولات الفاشلة الى التظاهر بانه الان مشغول والا لما اوقف الضرب وانه سيعود له مرة اخرى قريبا ، فيقتاد المعتقل ويضعه في زنزانة قريبة للانتظار ، وقبل أن يتركه يهدده بانه سيعود قريبا وسيستمر في ضربه هذه المرة باشد كثيرا من المرات السابقة الى أن يشوهه او يعترف . وان الانكار هذا (تياسة ولن يجلب له الا التعذيب) وصور الارهاب التي شاهدها ، وان هذه فقط هي البداية ، والمخفي اعظم ، ثم يغلق عليه الباب وينصرف . وبعد قليل يأتي بشكل تمثيلي ثم يفتح الباب ويغلقه (ظانا أن اعصاب وحواس

المعتقل ستظل مثارة وفي حالة وجل ، ويكرر هذه الفعلة بضع مرات ، احيانا يدخل عنده ويلكمه على بطنه ، ثم يتظاهر بأن احدا استدعاه ، ويعود مرة اخرى واخرى ويقول له بأن الوقت قد حان للبدء ، وفي مرة اخيره يقتاده من الزنزانة ويبدأ بلكمه وضربه واعداده ماديا للتعذيب فاذا لاحظ اي ضعف فانه سيواصل ، واذا لاحظ الثبات والصمود فسوف يلقي على مسامعه بضع كلمات فيها الوعيد والتهديد ويعيده الى الزنزانة . ان المحقق يعتقد انه بواسطة هذه التمثيلية سوف يزعزع ثبات المناضل . اما المناضل الصابر فانه سيستريح اثناء فترة الانتظار هذه ولن تهمه كل المسرحيات . واحيانا يلاحظ المحقق ان المعتقل غير مكترث من هذه الافلام فيوحي باعادته الى الزنزانة دون ان يستدعيه وينتهي الامر ، وتنتهي جولة مهمة جدا وهي اخطر جولة في مراحل التحقيق المختلفة هذه الجولة التي قد تستمر يوما اثنين او ثلاثة وربما اسبوع متواصل هي في الغالب الجولة الحاسمة في مراحل التحقيق وهي التي تدخل الى نفسيه المعتقل معنى جديدا للصمود ، وتدخل الى نفسية المحقق حالة اليأس ومقدمات الفشل .

ومن الملاحظ مما ذكر اعلاه ان فترات الانتظار في زنزانة قريبة ، او تنبيه المعتقل بانه مطلوب للتحقيق ، ومن ثم تأجيل بداية الجولة معه ، من الملاحظ ان هذه الفترة هامة بالنسبة للمحقق ويراهن عليها كثيرا ، ويمكن ان يطيلها يوم او يومين وربما اكثر وخاصة عندما يضع المعتقل في مكان صعب ووضع صعب ، معصوب العينين مقيد اليدين والقدمين ، مربوط الى شيء ما ، او ملقى على الارض في وضع متعب وجو رطب ومظلم ، وبين كل فترة واخرى يأتي المحقق ، ويمارس شيئا ، او تأتي مجموعة من الجند بشكل تظاهري وتأخذ في التهديد محاولة فتح الباب والدخول الى المعتقل ، وممارسة اشياء اخرى كأن يظهر شخص في الغرفة المظلمة بعد وضع المعتقل

بفترة من الزمن وكان الارض انشقت عنه ... الخ . ان هذه التربيات والجهود تهدف الى خلق مناخ الرعب والخوف وزعزعة الازكان بشكل متواصل ، وعلى الاقل الاستمرار في تنبيه اعصاب المعتقل وعدم اعطائه اي فرصة للراحة . [(اما انا) يقول المعتقل (فهذا وقت الاستراحة من جانبي وسأحافظ على توازني وانسى كل شيء الى ان يطلبوني لشيء اخر) وبالتالي تذهب كل جهودهم وترتيباتهم سدى] . اي ان المعتقل الذي يعي الاوضاع المحيطة به سوف يعرف وببساطة حقيقة الافلام المحبوكة حوله ، ويكتشف اللعبة ، اذ، كان لديه تصور مسبق عنها . ان مجرد معرفة هدف المحقق هي نصف الطريق في التحقيق . وبالتالي سيفهم اللعبة من وجهة نظر اخرى ، وسيتعامل مع كل فترات الانتظار على انها فترة راحة لاعادة الحساب وتجديد العزم والهمة دون خوف او وجل . ولن يفسح المجال امام المحققين وخططهم لتركيم الاثار والنتائج الحاصلة في جولات التحقيق السابقة .

فالمحققون يسعون وفي كل جولة لاحداث اثر ما سواء نجحت جزئيا ام فشلت كليا ، فهم قد مارسوا اشكال اخرى من التحقيق ، واساليب اخرى كالتهويل ، والتشكيك ، وغير ذلك ، وبعد جولة الضرب القاسي او بدونها يتركون المعتقل في فترة الانتظار متيقظا حتى تفعل آثار الجولات الاخرى فعلها مع الخوف من المستقبل المجهول فيقع المناضل في المصيدة . ان المحقق سينظر للمسألة على الوجه التالي : شرحنا له كل ما يلزم ، ووضعناه نفسيا وماديا في جو التحقيق الارهابي ، وضربناه ساعتين متواصلتين ، وشككناه بقيادته وبانتمائه ، وتركناه يعيش على اعصابه في حالة توتر واثارة شديدتين، ولم يبق الا القليل حتى يرفع يديه ويستسلم ويعترف ويدلي بكل ما عنده ، اي ان المحقق يربط نتائج مراحل التحقيق واثارها الجسمانية والنفسية مع بعضها البعض ، وهو

يتبع نسقا محددا او مفهوما لديه ، ويغير اساليب التحقيق بتوالي معين وملائم قبل انتنكشف ، ويغيره من مرحلة لاخرى حتى لا يبقى المعتقل في وضع واحد قد يساعده على الاستقرار ... ومن ثم قد يلجأ الى اشد اشكال العنف والقهر ولفترة طويلة ثم يغير ...

اما المناضل الواعي ، المرتكز على ارضية صلبة من التصميم والصلابة والصمود والتحدي فانه سينظر للمسألة من زاوية اخرى علمية وصحيحة ١٠٠ ٪ وليست مجرد تخمينية كما يفعل المحقق : (افشلت اساليب التحقيق التي اتبعت واحدا واحدا) فهو يصبر اثناء الضرب مهما كانت قسوته ، ويتعامل مع فترات الانتظار على انها فترات راحة ، فان اعيد للضرب مرة اخرى لن تكون هذه الخطوة اكثر من تكرار لما حدث قبل بضع ساعات من الضرب والتعذيب دون تواصل حسب فهم المحقق ، بل يتم التواصل والدمج بين الصمود في المراحل ويدرك ماذا يعني المحقق عندما يبسط له قضيته ويستهين بها على انها لا تستحق كل هذه المعاناة ، ويزداد صلابة ... أي انه يفسخ الروابط بين اساليب التحقيق بردود فعله الصامدة مما يفقدها اثرها التجميعي .

ان اساليب الارهاب التي يتبعونها مع المعتقل ويوهموه بانها ستستمر الى يوم القيامة ، ستنتهي وان التحقيق نفسه سينتهي ، ولا يوجد من هم قابعون في اقبية التعذيب ابد الدهر . ان التحقيق سينتهي يوما ومع نهايته ستنتهي اشكال التعذيب والارهاب ، والمعاناة الجسدية والنفسية ، ولكن هل ستنتهي معه شخصية المناضل وكرامته الثورية ؟ هل سيعترف ويدلي بما لديه ليصبح في نظر المخابرات ليس اكثر من كيس نفاية بعد أن كان السابقة والصمود في المرحلة الحالية على انه غذاء روحي يعزز نفسه فهو يفهم اساليب التشكيك ويسخر منها ، وهو مغلق شيئا رهيبا يستحق كل هذا الاهتمام ؟.

اما ما يتعلق بشدة الضرب والتعذيب فانها ستستمر

كلما لاحظ المحققون انها ستتعطي ثمارها ، وكلما اعتقد المحقق ان مزيدا من الضرب يعني مزيدا من الانهيار والاعتراف . اما المناضل فسيظل يقول (سأصبر ساعة اخرى ، واخرى الى ان يكنوا) وهم بالفعل سيكفوا لدى ملاحظتهم عدم الاكترات للارهاب والتعذيب .

وفي حالات ونماذج عديدة وعندما يكون المناضل تحت التعذيب القاسي فانه يتصور ويتذكر اهله ورفاقه ويتمنى ان يعرفوا انه وهو في اشد الحالات يتذكرهم وانه لن يبوح بأي شيء يمسهم من قريب او بعيد ، وانه سيظل المناضل الذي عرفوه يساهم في بناء التجربة الثورية ويشارك في رغايتها ، وفي التحقيق يصونها ، يحميها بكل ما لديه من عزم وتصميم ولا اهمية لما يحدث لجسده وما يعانيه من الام .

ومع استمراره في الصمود يفتش المحققون عن اساليب اخرى اقل بطشا جسديا واكثر اهمية نفسية .

٣ ــ تبسيط القضية

قبل كل شيء لا بد من الاشارة الى ان هذا الاسلوب لا يمكن انيكون ذو جدوى باي حال من الاحوال رغم كل التركيز والمهارة في استعماله ، الا مع من هم على استعداد للاعتراف ، أو البسطاء الجهلة بالتحقيق واساليب التحقيق ، الذين يسهل خداعهم ، وتضليلهم ، فهو ليس من مصيدة حظ ، ان جاز الكلام كان به والا لا حول ولا . علما بأنه يمكن استخدامه في بداية التحقيق ع او مع التشكيك والارهاب ، او بعد جولة قاسية فاشلة من الارهاب والتعذيب . ان امكانية استخدام هذا الاسلوب تظل معقولة مع جميع المعتقلين واصنافهم وفي اي مرحلة من مراحل التحقيق بعد جو من التهيئة ، او استغلالا لجو قائم .

والتبسيط هو تقليل حجم القضية التي يجري التحقيق حولها ، او تبسيط خطورتها على الامن او خطورة نتائج الاعتراف بها على المناضل ، او في حالات اخر تبسيط وتقليل حجم الاعتراف المقدم من قبل المعتقل بالقياس لما هو مطلوب منه .

وحتى ينجح هذا الاسلوب لابد من خداع المعتقل حيث يشرح المحقق ما معناه : قضيتك بسيطة ولا تستحق كل هذا التعذيب ، ولو كنت مكانك لما كنت عنيد مثلك ، كلها كلمتين (وخلصنا) ، واساسا حرام ان تكون انت في التحقيق لهذه المدة وتدخل السجن بقضية كهذه (والله انا عارف لماذا حبسوك بقضية من هذا النوع) احسن اعترف حتى نبحث لك عن حل ، لو انك اعترفت امس لكنت اليوم في البيت .. ونحن من جانبنا لا نستطيع تقديمك لمحاكمة ونحكمك على قضية بسيطة كهذه او ان قضيتك بسيطة وكلها ست شهور وتذهب للبيت وانا سأساعدك وهذا أفضل من ان تخسر يدا او رجلا طول حياتك ، او تنخلع عينك او تعجز جنسيا وتصبح مثل (المراة) . لم العناد .. نحن نعرف انك لم تفعل شيئا يمس بأمن الدولة . (وبفرض ان لدى المحقق بعض المعلومات) انت فعلت كذا وكذا وهذه بسيطة ، وفلان قال لك اعمل كذا وانت رفضت ليس في ذلك شيئا ... هذه مسألة بسيطة ولا اريد ان اقدم فيها تقرير للمسؤولين او هذه مسألة بسيطة وانا نفسي الذي سأقدم التقرير وساكتبه لصالحك واذا لم تتعبني ساساعدك ، ويقول ايضا ليس لدي وقت لقضية كهذه واريد ان اذهب الى البيت اذ تكلمت وساعدتني ولم تعطل ذهابي لبيتي واولادي فانني ساقف الى جانبك .. وايضا ... انت عامل نفسك صامد .. انت غلطان فلان مسؤول المجموعة اعترف ، وضع كل ما لديه على الطاولة ، وافرجنا عنه وماذا سنفعل بك انت او ان قضية فلان المسؤول لا تستحق اكثر من خمسة اشهر سجن ، فكم شهرا

ستقضي انت .. اننا سنبقيك خمسة اشهر في الزنزانة اما اذا اعترفت فاما أن تعيش مع المساجين ثلاثة اشهر او ربما نفرج عنك فورا .. ونريحك من العصا والتعذيب والسجن ... نحن نعرف عنك كل شيء ، والمعلومات وصلتنا من القيادة من الشام قبل ثلاثة شهور ، ولو لاحظنا خطورة لاعتقلناك من قبل لكن مسألتك بسيطة .. (واذا كان استخدام هذا الاسلوب بعد جولة قاسية من التعذيب والتهديد بتكرارها يلجأ المحقق الى تبسيط القضية الى ادنى حد ممكن ، وتهويل التعذيب الى اقصى حد ممكن بحيث ان قضية كهذه لا تستحق كل هذا التعذيب ، وان التعذيب القاسي ينتظر الجميع وحتى ولو كانت قضاياهم بسيطة الا اذا اعترفوا ... وحتى تبسط القضية في جو من التشكيك لدرجة انها لعبة مدبرة من السابق وليس فيها اي شيء امني وان مجرد الاعتراف وهو الحل الامثل يعني نهاية المعاناه والسجن !!

ان استمرار التركيز بهذه العبارات او بعضها او مثلها انما يهدف الى حشر المناضل في الزاوية ، زاوية مريحة له ظاهريا (فمسألته بسيطة !!) وحصر تفكيره وخياراته بين أن يقول شيئا (قليلا ولا اهمية له) وبين أن يظل في اقبية التعذيب أبد الدهر . بين أن يقول بعض مما عنده لهم ويرتاح ، وبين ان يقضي في التعذيب ، او يمضي مدة طويلة في الزنازين ومسؤولة في الخارج بعيد عن الخطر وبمعنى اخر يهدف التركيز بهذا الاسلوب لزعزعة تصميم المناضل وثباته ، ودفعه لربط نتائج جولات التحقيق كلها معا بحيث تبدو في نظرة مرعبة ومؤثرة يخشى استمرارها ويفضل الاعتراف (لهؤلاء الناس اللطفاء الحكماء الذين يحبون مصلحته ، ولولا انهم يحبون مصلحته لما نسفوا بيته واعتقلوه وعذبوه) .

وحتى يحققوا نتيجة خلق الترابط بين نتائج جولات التحقيق السابقة فقد يلجأ المحقق الى ضرب المعتقل ، وتشكيكه محاولا التأثير عليه نفسيا بهذين الاسلوبين

مثلا ، وحينما يعتقد المحقق أن المعتقل اصابه بعض التأثير ولكنه يخشى الاعتراف خشيته من التعذيب ، فانه من الممكن ان يلجأ للتأثير عليه وعلى نفسيته بطريقة اخرى تهدف الى تشجيع المعتقل على الادلاء باشياء بسيطة كي يستخدمها المحقق كنقطة انطلاق جديدة لجولات لاحقة .. بعد أن يزيل الخوف من القضية وحجمها وخطورتها عندما يعتقد أن المعتقل لا يريد الاعتراف خوفا من النتائج .

ان التبسيط على هذه الصورة وضمن هذه الاجواء يهدف الى دفع المعتقل للتفكير في ذاته والتفكير بعقلية تجارية على طريقة المكسب والخسارة والموازنة ما الافضل ابقي تحت اشكال التعذيب القاسية أم أقول شيئا بسيطا واستريح) ومجرد أن يلاحظ المحقق ان المعتقل يتفكر في الامر ينهال عليه بجملة التشكيك والتبسيط وحركات ارهابية وبهلوانية (بيع ، خلص ، انكشفت .. كلها بسيطة .. لماذا هذه التياسة .. بيع احسن لك .. حط على الطاولة والباقي على .. البوم هذا تروح لامك . . الليلة هذه تنام عند اولادك .. لماذا تظل في التعذيب .. بيع وارتاح .. كلها كلمتين وينتهي التحقيق .. كلها بسيطة ... ويستمر المحقق في ايهام المعتقل ويستخدم بعض الحركات فيجلس على الطاولة ، وينزل عنها بشكل مفاجيء ، ويقف وراء المعتقل ، ويصيح ، محقق اخر يمسك يده ويترجاه أن ينتظر ، (لماذا الضرب .. اتركه لي .. سيقول كل شيء) يذهب الاخر ويحمل عصا ويضرب بها الارض ، يزيح كرسي بعصبية ... يحضر سلاسل وقيود .. يطفيء النور ، واخر يشعله) . وعبر كل هذه الحركات يستمر التركيز وبشكل واضح على أن القضية بسيطة ، وان المعتقل بنفسه غير مهم وقضيته معروفة وحجمها معروف ولا تستحق كل هذه الغلبة .

وعبر حملة كهذه ، عبرة تمثيلية كهذه قد ينهار البعض ؟!! قد يقع واحد في الفخ ، أو تزل قدمه !

فالناس أجناس ! أو لان المحقق يقول بأنها بسيطة فلماذا الصمود اذن !؟!

قد يقول المحقق عن اي قضية بانها بسيطة ، قد يتهم المعتقل بأعمال مسلحة ، ثم يوجد لها تبرير من عنده ويطرحها على انها بسيطة ، قد يكون لدى المحقق اتهامات عديدة ، يغفلها كلها ويتناول واحدة منها ويستبر في الايحاء بانها بسيطة وليست مهمة ، قد يتناول حدثا واحدا كالاتصال بالمنظمات ويظهره على أنه أمر عادي وعابر وغير مهم ويطالب المعتقل باقراره لتكون البداية ـ متى اتصلت ، كيف ، من طلب منك الاتصال ، من اعطاك العنوان ، وماذا جرى في الاتصال ثم ماذا استتبع ذلك وهذه مقدمة ناجحة جدا وتكفي لاستمرار التحقيق مدة أطول ، وتكفي لتقوية اندفاع المحققين ورفع معنوياتهم .

قد يقول المحقق عن اية قضية بانها بسيطة ويتابع الفلم مضافا اليه ومطورا مع اية معتقل ، ولكن كيف يفهم المناضل العارف بالمحققين وأساليبهم هذه الجولة ؟ سوف لن يعير هذه الالاعيب اية اهتمام وحتى لن يتابع حركات المحققين ، وماذا يهمه أن يقول المحقق عن قضيته انها بسيطة ، وقليلة الحجم ، وانه هو بنفسه لا اهمية له ، وهل لهذا الطرح علاقة بصمود المعتقل الثوري المؤمن بعدالة قضيته ؟

ان المحقق يلجأ لهذا الاسلوب معتقدا بنجاعته ، ولا يهمه أن يستمر في استخدامه بضع ساعات وربما بضع أيام ، وربما يكرره مرة أو مرتين فهذا أحد اساليب التحقيق ، ويرتجي منه أن يكعطي نتيجة مباشرة أو غير مباشرة ، والمعتقل الذي يستطيع ببساطة المحافظة على هدوئه في الرد على هذا الاسلوب يكفي ان يظل ساكتا عن قصد ، حتى يتفرج على المحقق ، يلف ويدور ، يصعد علي الطاولة وينزل، ويمارس لعبته بنهم وحماس معتقدا أن بضع حركات

اخرى كافية لسحق صمود المناضل ، أو بضع كلمات اخرى كافية لخلق جو من التفاهم والانسجام حول الهدف أو على الاقل خلق البداية للتفاهم المشترك ، وبينه وبين نفسه يتفرج على الممثل المنهمك ساخرا منه ومن حركاته البهلوانية ساخرا منه بصموده العنيد حتى يعتقد المحقق في النهاية ان الامر مستحيل ، وان اللعبة انكشفت ، وربما اعتقد انه ليس لدى المعتقل شيئا يقوله ، وربما ومن خلال استمرار الصمود الهادىء يدفع المحقق للشك في نفسه وفي أساليبه ، أو التردد في الحكم على الواقعة وهل المعتقل يصمد ؟ ام ليس لديه شيء ؟. ومن ثم يسعى لامتحان نفسه ونتائجه بل لمعرفة اي الاحتمالين اصبح ومحاولة التأكد حتى يكتب تقريره بالنتيجة التي وصل اليها لرؤسائه .

ان هذا الاسلوب ليس سخيفا بمعنى الكلمة ، فهو لا يستخدم في الفراغ ، والتحقيق ليس مجرد تمثيليات من حول المعتقل . أن التحقيق ممارسات خدعا والاعيب يعول عليها المحقق علها تعطي نتيجة ، واذا كان من السهل افشال هذه الالعاب فانه يجب ايضا افشال أسلوب الارهاب وأن اختلفت الحالتين ، وطريقتي الافشال : فاذا كان افشال الارهاب يعتمد على تحمل الالم وتجاوز حاجز الخوف ، واذا كان المناضل يتعرض خلال نهج الارهاب الى كل صنوف الضرب والتبشيع ويصمد ، واذا كان كسر اليد وشج الراس لا يبرر الادلاء بأي معلومات ، فكيف تكون تمثيلية مدبرة ومعروفة سلفا قادرة على تشتيت تماسك افكار المناضل ونفسيته وسحق صموده ؟ ان المناضل يستطيع حتى منع المحقق من الاستمرار في هذا الاسلوب ببضع كلمات ، ويرد عليه وعلى افلامه (القضية بسيطة أو غير بسيطة، ليس عندي ما أقوله وافعل ما شئت) ، (ليس المهم ان القضية بسيطة او غير بسيطة المهم

انه لا توجد لي قضية) واية حركات وردود حتى يدرك المحقق فشل الاسلوب .

اما اذا وقع البعير فستنكسر ساقه .. اذا فكر باعطاء شيء بسيط يتناسب مع جو التبسيط المحيط فسينهال عليه المحقق من جديد — (قلنا لك من زمان نحن نعرف كل شيء ، وكنت تصر انك بريء .. ضع كل ما عندك على الطاولة والا الموت) .. حيث سيزداد الامر صعوبة ولا يتم الانسحاب من الموقف والعودة للانكار الا بعد ثمن اخر من التضحية ، ولكن اذا ثبت المعتقل العودة الى الانكار مرة اخرى فستكون صفقة قوية للمحقق واساليب التحقيق ومراحل التحقيق .

كغيره من الاساليب ومتوحدا معها يواجه المعتقلون المحترفون بصبرهم وصلابتهم وتماسكهم وينتهون من مرحلة اخرى في التحقيق على طريق الانتصار، فهم يدركون ان نعومة المحقق احيانا ما هي الا حيلة للحصول على الثمن ، عدد اخر من الرفاق ، وكمية من الاسرار ، أي ضربة قوية للحزب والثورة . فيستبدلون ذلك بتضحية من لحمهم ودمهم ليعززوا حزبهم وثورتهم .

٤ — اسلوب لتهويل والتضخيم

بخلاف اسلوب التبسيط الذي يهدف الى الايقاع بالمعتقل من خلال ايهامه ببساطة قضيته ، او بالحجم القليل لاعترافاته ، أو حتى بالاستخفاف بحجمه النضالي فان اسلوب تهويل قضية وتضخيمها ، وتهويل حجم المعلومات المعروفة عنه ، ودرجة خطورته الكبيرة انما يهدف الى محاصرة المعتقل ، وتصوير وضعه بأنه وقع في الفخ ولا خلاص منه .

أن أسلوب التهويل هو ممارسة تهدف الى المساس

بنفسية المعتقل وبلبلة وضعه في التحقيق كمقدمة للاجهاز عليه هذا الاسلوب الذي قد يبدأ به المحقق مع بعض النوعيات من المعتقلين ، ولكن في الغالب يأتي في سياق مراحل التحقيق وبعد درجة من التهيأة بحيث يعتقد المحقق انه وضع المناضل في المناخ المطلوب والذي يمكنه من خلاله مهاجمته ببعض الحيل والخدع والمظاهر ، وربما بعض الحقائق لاسقاطه وانتزاع الاعترافات منه .

ان المحقق يتعامل مع كيان محدد أمامه ومفهوم لدرجة معينة ، محددا ومفهوما وفقا لمعلومات وتقديرات وفرضيات يصوغها المحقق عن شخصيته ونوعية ودرجة صلابته ومعرفة ما يمكن ان تكون نقاط ضعفه ونقاط قوته ثم يبدأ تجاربه مع هذا الكيان المحدد افتراضيا ، وخلال هذه التجارب يحاول المحقق ان يتأكد من فرضياته وصياغة فرضيات جديدة أو تعديل فرضيات سابقة ، أي انه يحاول استجلاء الغموض الذي أمامه . أن الافتراضات التي يعتمد عليها في صياغة شخصية المعتقل وتحديدها لا تلغي بحال من الاحوال حالة الغموض العامة التي ينطلق منها المحقق في تكوين الصورة الافتراضية عن المعتقل . وهنا يمكننا القول أن المحقق يخوض مع نفسه معركة معرفة اهم شروطها المعرفة الاولية لخصمه ، ومعرفة صحة افتراضاته عنه وعن تكوينه الشخصي والنضالي ودرجة اعداده وفهمه وعقائديته وصلابته وصموده ، وقد لا ينجح المحقق مطلقا في استجلاء الصورة ومعرفة ما خلفها حتى ولو حصل على بعض الادانات أو بعض المعلومات . فيظل المعتقل سرا مغلقا في الحقيقة ، ومكشوف بصورة مغلوطة . وقد يظل المعتقل سرا مغلقا في الحقيقة ومكشوف خطأ بصورة افتراضية بحيث أن المحقق يتعامل مع الصورة الافتراضية التي لا تتطابق مع الصورة الواقعية . والمهم في الامر أن المحقق يستخدم اساليبه ، ويضع خططه بناء على الصورة الافتراضية التي تقترب قليلا او كثيرا ، او تبتعد كثيرا أو قليلا عن

صورة شخصية المعتقل الحقيقية ، علما بأن شخصية المعتقل في التحقيق وعبر مراحله المختلفة ، والاساليب المتبعة قد لا تظل ثابتة وذلك بسبب تغير العامل النفساني والصحي الجسدي . وهذه التغيرات قد تمس شخصية المعتقل وثباته كليا أو جزئيا ، بحجم مؤثر لصالح المعتقل أو قليل الاثر بقدر عزيمة واستعدادات المعتقل نفسه .

وفي مرحلة افتراضية معينة من أحوال شخصية المعتقل يلجأ المحقق لاستخدام هذا الاسلوب أو ذاك بقدر مطابقته للوضع النفسي والجسدي في هذه المرحلة وقد يكون المحقق مصيبا وقد يكون مخطئا ١٠٠ ٪ .

وما يتعلق باستخدام اسلوب التهويل : فان المحقق يستند غالبا الى نتائج وتوالي اتباع الاساليب الاخرى ، وما يفترض أن تكون قد سببته من أثر تجميعي على نفسية المناضل وصموده وتكوينه النفسي في ارتباطاته الاجتماعية والسياسية والايديولوجية وذلك حتى يكون لعبارات التضخيم والتهويل والارهاب مفعولا يعطي ثمارا .

فعندما يأخذ المحقق في تصوير القضية على أنها خطيرة جدا ، وأن المعتقل نفسه من أخطر الناس الذين تم اعتقالهم ، وأنه يواجه مصيرا شديد القساوة ، وان كل التعذيب الذي لاقاه ما هو الا نقطة من بحر ، وأن المحققون يعرفون عنه كل شيء واشياء كثيرة جدا جدا ، وأنهم كانوا بانتظاره مدة طويلة كان يخضع خلالها للمراقبة اليومية ، وأن مئات التقارير كتبت عنه ، وأن هذه الملفات الموضوعة على الطاولة كلها عنه وعن كل نشاطاته بل عن كل تصرف من تصرفاته في البيت والشارع ومع الاصدقاء والاصحاب والرفاق وحتى كل ما فكر به . وأن عملائهم راقبوا كل خطوة من خطواته ، وأن معتقلين عديدين سبقوه قد ادلوا عنه بكل ما عندهم من معلومات كلها رهيبة وكبيرة ، وحتى تقارير قيادته الكثيرة اشارت الى

درجة خطورته ، وبالتالي فان اشكال عديدة من التعذيب تنتظـــره .

بفرض أن المعتقل واثناء التحقيق معه قد أدلى ببعض المعلومات وكتب افادة ، والمحققون يريدون التأكد من الوضعيه التي يتعاملون معها ويريدون اللجوء الى أسلوب التضخيم هذا : فانهم سيهاجموه من نفس الزاوية بأن يهمشوا كل المعلومات التي قدمها ، وأنها لا تساوي ٥ ٪ من ما عنده ، وانهم فقط ارادوا تثبيت ادانته عندما رضوا بافادته الماضية ، (أما التحقيق الحقيقي فيبدا من هنا) وان (عليك ان تضع كل ما عندك) والا والا ، (وفقط ما حصل هو البدية !).

وقد يستفيد المحقق هذا الاسلوب بأن يضع المعتقل المعترف في موقف يسعى فيه للخلاص من التحقيق عن طريق الادلاء بمعلومات جديدة وزيادة خطورة الادانة وخطورة الاعتراف ويعتقد أيضا بانه مهما ادلى بمعلومات فلن تكفي نهم المحققين ويزداد وضعه سوءا وقد يختلق اشياء كثيرة او يتبرع باشياء لم يسألوه عنها فيزداد انهياره وتزداد شراهتهم وصلافتهم ووحشيتهم وعنفهم لابتزاز المزيد الى ان يبلغ المعتقل درجة لا يستطيع أن يقدم فيها شيئا ، وتتمزق شخصيته أمام جلاديه ويصبح شيئا فارغا لاقيمة له .

وفي الحالتين المذكورتين اعلاه : حالة اتباع اسلوب التضخيم قبل الادلاء باعترافات ، أو بعد الاعتراف سواء الجزئي أو الكلي فان استخدام هذا الاسلوب لن ينفع دون أن تكون نفسية المعتقل مهيأة لقبوله والانسجام معه، فكيف يصدق المعتقل أن قيادته قدمت عنه تقارير كثيرة ، قبل ان يخامره الشك في سلامة هذه القيادة ، وكيف يصدق أن الاضابير الضخمة الموضوعة على الطاولة هي تقارير ومعلومات عنه اذا لم يصدق بانه كان مراقبا ليلا ونهارا وأن المخابرات والمباحث كانت مشغولة به ليلا ونهارا وانه بالتالي خطير (ربما وهو لا يعلم !!) بمعنى

اخر فان اي خطوة للامام يحققها المحقق في صراعه مع المعتقل عبر هذا الاسلوب مرهونة بقدر الخطوات التي حققها عبر الاساليب الاخرى السابقة وفكرة المحقق عن حالة المعتقل قبل اللجوء لهذا الاسلوب .

واذا ما اخذنا بعين الاعتبار أن الموقف في التحقيق هو مسؤولية المناضل بالتحديد لحماية كل ما يمكن أن يتعرض للخطر والاضرار بسببه ، واذا ما افترضنا ان المناضل يدرك ذلك ، فان لجوء المحقق لاسلوب التضخيم لن يكون في صالحه ، لان المناضل ستتعمق لديه احساساته بالمسؤولية اكثر فاكثر ممايزيده صلابة وصمودا ، اي أن هذا الاسلوب او غيره من الاساليب يحوي في طياته ما يفشله ، ويعطي نتائج مناقضه لرغبة المحقق واهدافه .

ما الذي يمارسه المحقق لانجاح هذا الاسلوب ؟

جملة الالاعيب والحيل والخدع مقرونة بما يتطلبه الوضع من ارهاب ، او اقناع ، او نصائح ، فقد يلجأ المحقق وبعد حملة مقدمات للخروج من قبو التعذيب ليعود حاملا رزمة كبيرة من الاوراق ضخامتها واضحة ويضعها على الطاولة بشكل تمثيلي ويقول للمتهم (هنا في هذه التقارير القليل من المعلومات عنك) ... يفتحها ... ويأخذ في تقليب الصفحات متظاهرا بانه يدرسها ويتذكر ... وفجأة ... (أنت قبل اسبوع كنت في نابلس والتقيت مع ... !؟ لا اريد ان اقول لك الان . وانت وفلان اصدقاء جدا جدا جدا .. هل تتذكر يوم ذهبت رحلة الى الجولان ؟.. مع من تحدثت يا بطل ؟.. ثم يفتح اضبارة اخرى .. وبشكل جاد يسأل .. جلس معك شخص من هو ؟.. والشخص الذي عرض عليك التنظيم كنت معه في ... في اي مكان ؟! قل احسن لك ... ترددت في الاول ... ولكن ... لا . انت اكمل . وقد يعرض المحقق بعض الحقائق من الحياة اليومية ثم فجأة يطوي الاوراق ويسأل بعصبيه .. دعني من كل هذا الان ، احكي لي عن الاسلحة هذا ما يهمني الان . الجرافات جاهزة لنسف

البيت وليس لديك الا قليل من الوقت ،نصف ساعة اما ان تقول واما ان تبدا الجرائات .. الاسلحة ليست في البيت ولن ننسفه اذا سلمتها والحق عليك ... الكرة في ملعبك ... الامر مناط بك .. البيت ام الاسلحة .. لا تتردد ...).

وينساق الانسان الساذج وراء تتالي المعلومات ، ومفاجئات الاسئلة والروايات العادية ، ويتفاعل معها ، وقد يعتقد ان المحقق علام الغيوب ، وان كل الناس متآمرة عليه وانه في الدنيا وحيدا مقطوع الجذور وضعيفا امام كل هذا الجبروت ... (صحيح ، فلان جلس معي ... وترددت فعلا عندما عرض علي التنظيم .. (وربما لا يكون قد تردد ولكنه يفترض ذلك انسياقا ولكنه لسذاجته أعتبر أن كله واحد) صحيح ، نحن جلسنا في المطعم وشربنا شاي (انهم يعرفون كل شيء) ، كيف عرف ان فلان هو الذي دفع الحساب ولماذا لم يقل اسمه ؟ والمصيبة الكبيرة كيف عرف عن الاسلحة ولماذا سألني عنها اليوم ولم يسألني الامس لقد كان يخدعني واذا لم أعترف فسيحطمني من التعذيب .. والبيت ... لا ان الاسلحة ليس في البيت كما ذكر .. هل اتركه ينسف البيت .. الا يكفي انني في السجن وايضا يضيع البيت . هذه نماذج من التفاعلات النفسية التي يفسح لها المحقق المجال قليلا ، وقبل ان تتماسك الشخصية وعندما يفترض المحقق ان المناضل في اوج البلبلة ينهال عليه تعذيبا واسئلة والاعيب حتى يوقع به .

في البداية لابد من تسجيل الملاحظات التالية :ـ

١ ـ ان كل منظم لابد وان هناك شخصا ما عرض عليه التنظيم .

٢ ـ ليس غريبا ان يتردد المرء عند مفاتحته بمسالة الانتماء سيما عندما تكون المقدمات غير كافية .

٣ ـ كل معتقل يسأل عن التنظيم بدون استثناء ، وبالتالي يسأل عن الشخص الذي نظمه .

٤ ـ في كل مرحلة تحقيق يجري السؤال مشددا عن الاسلحة .

٥ ـ دائما يهدد المناضلون باستمرار التحقيق وقسوة التعذيب وغالبا يهددون بنسف البيوت .

٦ ـ ان البيوت تنسف اذا اعترف المتهم بأن له علاقة ما بالاسلحة والعمليات العسكرية من قريب او بعيد ولا يمكن غير ذلك اي ان الاعتراف بالعلاقة بالاسلحة والعمليات هو الذي يؤدي الى نسف البيت وليس عدم الاعتراف والبيوت تنسف مهما كان حجم الاعتراف ونوعيته ومهما اعطت المخابرات من وعود .

٧ ـ ان التحقيق يبدا وينتهي مع المناضل على اساس ما يمكن أن يقوله هو عن نفسه وليس ما تقوله التقارير او اعترافات الغير التي في النهاية لا تشكل سوى سببا للتحقيق معه ، او تساهم في توجيه التحقيق .

٨ ـ عندما تعتقل مجموعة في مناخ معين كان يكون اعتقالها بعد مظاهرات ، او بعد عمليات عسكرية فان المحققين سيسألون عن دور افراد هذه المجموعة في الاعمال المذكورة . سواء كانوا مشتركين فيها ام لا.

ووفقا لهذه الملاحظات فان المحقق الذي كما ذكرنا سابقا يكون صورة افتراضية عن كيان محدد امامه غامض في الحقيقة ، سيهاجمه بالتهم والاسئلة المباشرة في فترة من الفترات على السنارة تلتقط شيئا فهو سيسأل المعتقل عن الانتماء ويصر عليه بشدة ويراقب النتيجة . فلو فرضنا أن المعتقل غير منتمي ماذا سيقول للمحقق ؟ وعندما يسأل المحقق عن الشخص الذي نظمه ماذا يقول له (ليس غريبا ان نسجل هنا أن بعض المعتقلين اعترفوا بالتنظيم ، وان فلانا نظمه ، زورا ، وعندما يعتقل فلان ويصر على انه لم ينظمه يفرج عن فلان ويبقى المعتقل سجينا ويواجه حكما بالانتماء لمنظمة غير مشروعة ، وربما

تهمة الاتصال بمنظمة غير مشروعة) . وفي الحالة التي يصر فيها المحقق على المناضل لتسليمه اسلحة وعلى فرضية انه ليس لديه اسلحة ماذا يفعل لو اعترف ؟ لن يستطيع ان يسلم اسلحة ولكنه سيتهم بحيازة اسلحة حتى لو لم يسلمها فيما اذا قبل ضغوطات المحقق . والمقصود من هذه النماذج ان المعتقل سيواجه الضغط حول العديد من المسائل التي يعرفها والتي لا يعرفها وفقا لتصورات المحقق ، ومرحلة التحقيق . وان الاعتراف على واحده كذبا سيزيد الوضع سوءا فلو اعترف على اسلحة فسيحقق معه عن العمليات العسكرية .. والمحقق قد يعرف ١٠٠ ٪ ان المعتقل يكذب على نفسه ومع ذلك يتهمه بصورة ثانوية في المحكمة لانه في العادة يصعب التمييز بين الحقيقة والكذب ، وحتى لو كان احد زملاء المعتقل معترفا بحيازة زميله للاسلحة فان هذا سيشكل فقط دافعا للتحقيق حول الاسلحة ولا يشكل الدليل القطعي ، ان التحقيق سيكون اكثر قساوة ولكنه ينتهي دون الاعتراف على الاسلحة اذا اصر المعتقل وينتهي الامر . فالمحقق اساسا لا يكون متأكدا ١٠٠ ٪ من الاقوال . والذي يهم في هذه الحالة هو استعداد المناضل للاعتراف عن نفسه ام لا . قد يأتي المحقق ويقول للمناضل ان رفيقك اعترف بحيازة اسلحة وانك تحوز اسلحة (وقد يكون المناضل كذلك) ان المحقق كما ذكرنا سيسأل عن الاسلحة أو اي شيء اخر يحلو له بغض النظر عن نتيجة لاعتراف الزميل ام لا وهذا يجب ان لايضعف موقف المناضل بل يشعره بأهمية صموده مما يزيده عزما .

ليس غريبا ان نقول انه في تجربة الحركة الوطنية قد وقع العديدون في براثين الاعتراف والسقوط ، عبر استخدام هذا الاسلوب ، ولكن الكثيرين ايضا قد هزموه قد هزموه برغم حجم المعلومات المستوفيه عنهم ، وقد حصل في الواقع ايضا ان بعض المعتقلين اقروا بجزء من التهم الموجهة اليهم ، ونفوا قطعيا الجزء الاخر رغم أنه

محاط كغيره بالتعذيب والاذله ، ووضع هذا النوع من المعتقلين يثير التساؤل ليس في نفس الدارس فحسب بل وعندهم هم أنفسهم : فكما كان بمقدورهم انكار جزء من التهم كان بمقدورهم انكار الجزء الاخر هذا ما يؤكده مئات المعتقلين الذين عانوا من هذا الوضع وفي هذا تأكيد اخر على قدرة مناضلينا على الصمود تحت هراوات الجلاد الفاشي . وحتى الذين اعترفوا بكل شيء ، وظل المحقق يحاول معهم للحصول على المزيد ضمن سياسة تقليل ما طرحوه بالقياس للحجم المطلوب ، كيف انتهوا من هذا الوضع ؟ بالتأكيد ليس بالاقناع والمنطق لان المحقق يستمر في الضرب والتعذيب حتى يصل الى نهاية ويفترض بالتالي ان المعتقل : أما مصر على استمرار الانكار لدرجة لا يمكن دفعه لقول شيء ، أو انه قال كل شيء وتظل مسألة تقدير .

ان ما يزيد على ٩٠ بالمئة من المعتقلين الذين ادلوا باعترافاتهم في البداية ، قد اكملوها في جولات ثانية بدرجة من السهولة واليسر واضحة ، وادلوا باشياء لمجرد انهم سئلوا عنها ، واشياء اخرى تذكروها وادلوا بها للدلالة على (حسن النية) — (حقائق) بالغة الدلالة — وكلها تدل على سطحية وضحالة الفهم ، وضعف الموقف والانتماء ، وانعدام اي تفكير عقلاني بالمصير والمستقبل ، وكلها على الاطلاق كان بالامكان ان لا تحدث ، وفي حينها، لا ينفع الندم بعد فوات الاوان ، وبعد ان ينتهي التحقيق ويسترجع (المناضل) نفسه ويأخذ باللوم الذاتي والتباكي والتمني .

ان المحقق في جميع الاحوال على الاطلاق يهدف الى تحطيم شخصية المناضل ولا يمكن ان يكون صديقا له أو محابيا معه ، بل يمتصه ، ويقول هل من مزيد ، ليعزز بذلك شخصيته أمام مسؤوليه ومرؤوسيه بنجاحات لم يكن قد حلم بها (تصوروا مناضلا القي القبض عليه في مظاهرة ، أو اعتصام ، أو في لمه جماعية ، وعند

وضعه بين ايدي الجيش ينهالوا عليه ضربا واسئلة عن كيفية اعتقاله ، وفي وقت كهذا ومن خلال اسئلة عامة عن نشاطاته ، ينهار ، ويدلي باشياء ليس لها اي علاقة بمسألة القبض عليه . في معركة الكرامة اذار ٦٨ التي القبض على عدد من الفدائيين واحتجزتهم قوات الاحتلال كاسرى وبالطبع حققت معهم (وهذا يحصل دائما مع الاسرى في كل انحاء العالم) وفي التحقيق وجهت لهم اسئلة عن نشاطاتهم وما اذا كانوا قد قاموا بعمليات ضد اسرائيل ، وبالطبع عومل الجميع بوحشية وفاشية وهذه طبيعة الاحتلال ، ثلاثة منهم فقدوا شخصياتهم النضالية وتبرعوا بمعلومات عن انفسهم ونشاطهم السابق ومعلومات اخرى عن قواعد المنظمات ، وكانت النتيجة ان كافأهم الاحتلال بأن حاكمهم وابقاهم في السجن مدة محكوميتهم ، أما الباقون فقد اعادهم الاحتلال الى الاردن مرة اخرى ولعل في هذا عبرة لمن يريد ان يفهم .

وما دام هذا اسلوب الاحتلال ومحققيه ، فان تهوين قضية المعتقل أو تهويلها ، وتجاهل بعض جوانبها ، او اضفاءها له من التكبير والمبالغة عليها واضافة جوانب اخرى لها ، كل هذا يصب في نفس الطاحونة : محاولات مختلفة ومتباينة للاطاحة بصمود المناضل ودفعه لموقف خياني . وفي هذا الباب قد يطرح المحقق سيلا من التهم المضخمة والمبالغ فيها ليشعر المناضل بصعوبة الموقف : انه يطرح الكثير بغية الحصول على القليل ، لا بأس فهذا يساعده ، واذا ما واجه المناضل اطروحات المحقق بالانكار والصمود ، والاستخفاف فانه سيربك المحقق ويفشل اسلوبه دافعا اياه للبحث عن اسلوب اخر او اقفال ملف التحقيق وتبقى الفرصة متاحة للمناضل ليعيد نفسه ، ويعيد ترتيب افكاره ويزيد من تماسك ذاته وشخصه استعدادا لجولة اخرى او جولات بعد عقبة تجاوزها .

٥ — اسلوب الصديق ، والوحش

هذا الاسلوب من اكثر الاساليب شيوعا ، وفي معظم مراحل التحقيق ان لم يكن كلها وخاصة مع غير المجربين ، وتستعمله المخابرات الاسرائيلية منذ بداية الاحتلال حتى الان ، وهو منتشر في كل مكان ، وهو اكثر الاساليب توريه وتضليلا وخداعا . ومن خلاله او بمصاحبته يجري تنفيذ كل الاساليب الاخرى .

يشترك على الاقل اثنين من رجال المخابرات في كل جولة تحقيق يظهر واحدا منهم بمظهر المجرم السفاح ، قاسي القلب ، فاشي الالفاظ والسلوك ، لا وظيفة له سوى التعذيب ، ومزيدا من التعذيب ، بل ويظهر كمتعطش للقسوة والفاشية والتعذيب والمضايقات والرغبة في الاجرام ويمارس عمليا اقسى انواع التحقيق وابشعها ، محيطا سلوكه هذا بمظاهر الرعب الضرورية ، ومحاولا جهده ان يثبت شخصيته في ذهن المعتقل على هذا الاساس . والثاني : الانسان اللطيف المهذب ، الذي يقشعر بدنه من مرأى التعذيب ، والسلوك غير المتحضر لشريكه ، ويظهر استياءه من اي قسوة أو سلوك عنيف او تعذيب ضد المعتقل محاولا جهده انيدافع عن هذا المظلوم ، ويمنحه الحنان والطمأنينة ! انه الصديق الصدوق الذي لا يهمه شيء في الدنيا سوى التخفيف من الام الاسير ، وحمايته من التعذيب ، وطبعا هو لا يملك غير المحاولة ، والامساك بالمحقق الاخر واستنكار وحشيته ، وبالتالي ليس له من سلاح الا اسكات المحقق الاخر ودرء شره شريطة ان يفرغ الاسير ما بجعبته لقاء ذلك !

احدهما يهاجم المناضل والاخر يحمية ، احدهما يكشر ، ويقوم بحركات بهلوانية ، ويهدد ، ويحمل العصاه والاخر يبتسم ، ويطمئن . احدهما يحرم من الماء ، والسجائر ، والذهاب لدورة المياه ، والاخر يقدم الماء ،

وربما القهوة ، واحد ابن حرام والاخر ابن حلال وطيب ومحترم ، ومثقف ، وخريج جامعة (في عرفنا ان خريج الجامعة بصورة عامة لطيف ، ومهذب وانساني) . مع اي منهما يفضل المعتقل ان يتعامل : مع الذي يكيل له الصفعات ، وينهال عليه بالهراوي ويمارس معه العنف والقسوة قولا وعملا ، ام مع الذي يواجهه بالكلام المعسول والنصح الاخوي والشفقة وروح الصداقة والعطف ؟

هذا هو مدخل المسألة : جو نفسي معين يخلقه احد المحققين تحيط به الرهبة والرعب والقسوة ، ومناخ اخر يخلقه المحقق الاخر ، يسيرا نسبيا ومحتملا ، واذا ما انطلت الخدعة ، فان المعتقل سيتمنى ان يظل في كنف الصديق ، ويتمنى الموت للمحقق الاخر معتقدا انه هو الوحيد الذي يضرب ويعذب ويهدد ، واذا ما لاحظ عبر جولات التحقيق ان (صديقه) اللطيف هو وحش مفترس مع معتقل اخر ، بينما يلعب وحشه وعدوه دور الصديق فانه سيدرك اللعبة . هذا مع العلم انه سيدركها من أول مرة وبدون هذه الخبرة فيما لو فهم وضع المحققين واهدافهم معه .

ان التحقيق هو صراع سياسي يرتدي الاشكال المادية والنفسية ويظهر من خلالها ، ولانه صراع تناحري بين ايديولوجيتين ونقيضين فان المحقق سيستخدم اي اسلوب متاح بغية الحصول على المعلومات واسقاط المناضل ، ومن بين هذه الاساليب تتخرج الخدع والحيل ومظاهر السلوك المفتعل ، مع الضرب والتعذيب والقسوة ، مع اللطف واللين والاحترام ، مع الحرمان والاذلال والقهر ، مع الشفقة مع الارهاب مع المعلوم مع المجهول فتنتصب هذه المتناقضات امام المعتقل كقوى ، وعناصر قوى تهاجمه للاجهاز عليه ، وينتصب هو امامها بقدراته وصبره وحنكته وصلابته واستعداده للصمود : ايهما يقهر الاخر ؟.

ويتكثف الصراع احيانا في صراع بين شخصيتين

نفسيتين احداهما مسلحة بوسائل البطش والسلطة ، والامكانيات المادية والمعنوية وهي نفسية المحقق ، والاخرى مسلحة بسلاح ثوري ثقافي عقائدي يرتكز على عدالة القضية والاستعداد للدفاع عنها والموت من اجلها هذا الصراع يأخذ مداه في التحقيق من خلال مظاهر شخصيات اطرافه المحققين من جهة ، والمناضلين من جهة اخرى . فالنفسية التي ترتبك أو تعجز تسقط وتنهار أما على شكل انهاء التحقيق واغلاق الملف من وجهة نظر المحقق ، أو على شكل اعترافات وخيانات من جانب المعتقل .

وحتى يمارس هذا الصراع عمليا لابد من اساليب محددة وهادفة للمساس بالتكوين النفسي الفردي والاجتماعي للمعتقل ، والتعرف عليه ، وربما تكوينه من جديد أو تكوين بعض عناصره ، وهذا يتطلب خلق اجواء محددة وتأثيرات جسدية محددة ، ومظاهر سلوك من جانب المحققين ، ومحاصرة معنويات المعتقل للاجهاز عليها وتركيعه نفسيا ومعنويا ، وابراز هذه المؤثرات هي الحوارات ، والضرب والتعذيب ، وهذه كلها تستوجب أن يخلق مناخ او مناخات خاصة لممارستها ، واوسع اطار تمارس فيه هو اطار اللين والشدة بشكل متتالي أو متمازج يمارس من قبل نفس الشخص ، أو شخصين او اكثر في نفس الجولة أو جولات متعاقبة . وافضل تمثيلة لخلق هذا الوضع هو اسلوب الصديق الصدوق ، والعدو المتوحش .

فباللين يمكن خلق جو حواري ، يتم فيه الاخذ والعطاء ، وشرح الوقائع (مهما كانت بسيطة ، قريبة او بعيدة عن جوهر القضية) ومحاولة ايجاد للانسجام النفسي بين المحقق والمناضل . وفي اجواء اللين من السهل ابراز حجم القسوة ووحشيتها وخلق المقارنة بين وضعين وخيارين . في مناخ اللين وخاصة الذي يأتي بعد جولة ارهابية ، يمكن ممارسة النصح ، يمكن اجراء

صفقة (تعترف ، واحميك من الضرب بالمقابل — تجارة رابحة) وعندما تتوالى اجواء اللين والشدة ، فان الصديق يستطيع أن يمارس تأثيره بالاستناد ايضا الى تأثير مناخ الشدة ، مناخ المحقق الاخر ، وفي كل مرة يتعرض فيها المعتقل (الذي تنطلي عليه اللعبة) لاجواء الشدة والارهاب والتعسف ، يتذكر المحقق الاخر ونصائحه ومطالبه ، هكذا يوضع المعتقل بين حجري رحا احداهما مغطى بالحرير . وفي مناخ كهذا يمكن ممارسة بقية الاساليب .

ان اطار وحدة مناخ العنف ، واللطف ، بوصفه اطارا شاملا يستخدم في معظم مراحل التحقيق هو اطار عام ايضا للتأثيرات النفسية ، بحيث تعطي المؤثرات الجسدية نتائجها السيكولوجية لدرجة ما ملائمة لوضع المناضل في طريق الاعتراف حسب تقديرات المحققين .

وفي هذا الاطار يقوم المحقق الذي يكشف عن وجهه الفاشي بممارسة التهديد ، والضرب ، واللطم ، والقسوة ، وبعد تدخلات وافلام والاعيب ، مع صمود المعتقل ، يأخذ المحقق الذي وضع على يده قفازا حريريا يلوم المعتقل لانه لم يسمع نصيحته ، ومن ثم يهدد بالانسحاب وعدم التدخل ، وقد ينسحب فعلا بعد أن يقوم ما يعتقد انه اوهم المعتقل به من عبارات النصح والارشاد ، وعبارات التهديد بالتخلي وينصرف .. وهنا يستمر المحقق المتوحش في ممارسة هوايته الفاشية ، وفجأة يدخل المحقق الاخر ، ويبدى تعجبه من ما يجري ، ويأخذ بالصراخ والزعيق .. ماذا .. استغليت الفرصة واستمريت في ضربه ، بس .. توقف .. يا نازي .. يا مجرم .. هل هو حمار .. اليس لك اولاد .. اليس لك اولاد .. اليس لك ام .. الست انسان .. اخرج من هنا ، لا تعود ابدا .. ساحاكمك على وحشيتك .. ساقيلك من وظيفتك .. ويتوجه بعد ذلك للمعتقل : تعال يا بني .. اجلس خذ سيجارة .. هل تريد ماء .. ساجلب

لك ماء .. أشرب الماء جيد بعد الضرب ... والله انا اسف على ما جرى .. ليتك سمعت نصحي ..

ان المحقق هنا لايهدف الى الخداع فحسب ، بل والاهم من ذلك انه بهذا الاسلوب الخادع يسعى لخلق جو من الالفة في أتعبية التعذيب بينه وبين المعتقل ، انه يسعى لخلق جو من الراحة ، يستريح له المعتقل (المهدد ، والمروع) فهو لا يرى بشرا سوى المحققين وكلهم قساه ومتوحشين الا هذا على الاقل مهما كانت اهدافه فهو لا يضرب ، ولا يهدد بالضرب ، انه بهذا يسعى لخلق انسجام بينه وبين المعتقل (ياله من انسجام بين الفاشي والثوري) انه يتظاهر بانه مخلص من التعذيب ، وساعات التحقيق التي يمضيها المناضل معه مريحة نسبيا . فهل من الافضل للمعتقل استرضائه او مكافئته على انسانيته الزائدة هذه ؟!؟

أن المعتقل آذ ينساق في هذه الاجواء وراء الصور الظاهرية التي يشاهدها وتحيط به سيسهل لهذا المحقق مهمته (ليس المهم أن يعترف مباشرة أو يدلي بما لديه) أنه سيوفر له جو الحوار ، والحديث وربما يكون الحديث اجتماعيا فحسب ، ثم يتطور ما دام المعتقل يعطيه الفرصة وآذانا صاغية ، يتطور الى اشكال من الحديث يتمكن خلالها المحقق من ممارسة اسلوب التشكيك بالحزب والنضال ، والتركيز على المصير الشخصي ، ومن ثم تهويل أو تهوين القضية ، أو التهديد بالارهاب اللاحق حيث لا تظل فرصة لهذا المحقق ليتدخل ..

هكذا يخطط المحققون لتتم عملية الاجهاز على المعتقل وتطويقه باساليبهم واحاديثهم واسئلتهم واجوائهم التي يخلقوها حول المعتقل . فاذا ما اخذ المعتقل بالتفاعل مع المحقق الذي كشف عن وجهه الفاشي على انه عدو مجرم بينما الاخر لطيف وانساني ، لا يضرب ، خريج جامعة ، فانه بالتالي سيصاب بالرعب كلما هم المحقق الاول بحركة ، أو لفته ، وستكون لطمة واحدة على

الوجه مرعبة ، واذا ما هم المحقق الصديق بالخروج ، فان الخوف والرعب يتسلل الى نفسه ، اما اذا خرج المحقق العدو فان شعورا بالاطمئنان سيصيب المعتقل ، وهكذا تأخذ الحالة النفسية للمعتقل بالتبدل ، وهذا يدركه المحققون ببساطة وبالتالي يتعاملون مع حالة نفسية مدركة ومسطحة سيسعون بكل قواهم الى تحويلها الى حالة نفسية محطمة قابلة للانهيار ، او على الاقل استخدام الاساليب التي يعتقدون انها ملائمة لهذه الحالة .

واذا استمر التحقيق دون نتيجة فان تدخلات الصديق الصدوق ستخف وتظهر على فترات متباعدة ، وقد يأتي في وقت الشدة الحقيقية :ـ اي في جولة ارهابية قاسية ، وتعذيب شديد ، وتهديد متواصل باستمرار التعذيب الجسدي ، وحين تقترب جولة التعذيب من نهايتها ، يدخل المخلص ، (وينقذ) المعتقل ويوضح للمعتقل أسفه لما يجري ، وصعوبة مساعدته بعد كل الذي جرى ، ويعده ان لايعاد للتعذيب مطلقا ، وانه هو بنفسه سيستمر في التحقيق معه دون اي ضرب اذ ما ابدى تعاونا يستحق الذكر ، وفي هذه الحالة بامكانه ان يطعن بالمحقق الاخر لانه فاشي ، وفاشل .. وانه اذا تعاون معه سيساعده في المستقبل (فهو على كل شيء قدير) وسيخفف حكمه ، وبصفته هو المسؤول عن الافراجات فانه سيقبل استرحامه الذي يقدمه بعد الحكم ويخفض حكمه ويخلي سبيله ـ وهنا يشكك ويبلبل ، ويركز على المصير الذاتي للمعتقل انه يحاول ابتلاع شخصيته بالكامل وتوتيرها ودفعها للاعتراف ، انه يسعى لسحق شخصيته النضالية بايهامه أن لا فائدة من النضال ، وان قنبلة ، أو جرح طفل ، أو تحطيم عمود كهرباء لن يدمر اسرائيل القوية التي لم تستطع الدول العربية هزيمتها .. وهكذا .

وبالرغم من أن هذا الاسلوب هو أوسع الاساليب شيوعا واكثرها استعمالا .. الا انه أكثرها هشاشة ؛

وأكثرها قابلية للكسر ، فالصديق الصدوق المزيف يستمر في لعبته طالما ان اللعبه تنطلي على المناضل ولكن في حالة الفشل سرعان ما يكشف عن وجهة الفاشي الحقيقي ، ويضرب ، ويهدد كغيره وبالتالي يسقط الاطار العام الذي يخططوا لنسجه حول المعتقل وتنتهي اللعبة . أن المحقق هذا يلعب دوره عن قصد ، وليس بسبب سجاياه واخلاقه، وربما يلعب هذا الدور لان دوره الرئيسي مع معتقل اخر وهو يحضر جولات التحقيق هذه في فترات استراحته فقط او كعامل مساعد للاخر ، او لديه مهمات أخرى ، أو أن دوره مراقبة التحقيق ، وبالاجمال يمارس دوره الخداعي هذا عن سابق تخطيط، وهو نفسه كما ذكرنا سابقا يلعب دورا معاكسا مع معتقل اخر حيث يكون هو المجرم المتوحش والاخر انساني لطيف ، وهل يستوي الاحتلال الفاشي مع اللطف والانسانية .

أن فهم هذه اللعبة هو شرط من شروط افشالها ، بل هو سبب افشالها أصلا ، وترك المحققين يتصرفون بدون غطاء ، وافقادهم فرصة تشكيل اطار التحقيق السهل وبالتالي تفشيل المؤثرات النفسية التي يمارسونها مما يجعلهم يستطيعون التكهن بالحالة النفسية القائمة ويظلوا في حدود الفرضيات حيث يمكن تضليلهم . واذا ما فشلت اساليب المحقق المتظاهر بلباس الكاهن فسوف لن تجدى اساليب المحقق المتوحش ولو كانت مجدية فلماذا احاطتها بكل هذه الاقلام .

ومهما قدم المحققون من دلائل حقيقية أو تخمينية أو كاذبة فان استمرار التحكم في ردود الفعل ، وعدم الانسجام مع اساليب التحقيق والمحققين سوف يدفع بهم الى اليأس واستخدام التعذيب المكشوف دون اي غطاء ، وينتهي أسلوب وربما ينتهي معه التحقيق ويفتشون على اساليب أخرى لعلها تجدي .

ومرة اخرى فان الضرب بحد ذاته لا يمكن ان يكون سببا للاعتراف ، ولا حتى كسر اليد أو شج الرأس ،

فحالات كثيرة هي التي يتعرض فيها الانسان للضرب ، أو كسر اليد ، أو شج الراس بدون ان يكون في موقع تحقيق فهل بالتالي عليه ان يدلي بمعلومات سرية وحزبية عن نفسه ما دام تعرض لهذه الحوادث . وهل سائق السيارة الذي يتحطم جسمه في اصطدام ملزم بأن يدلي باعترافات سياسية لشرطة السير التي تحقق في الحادث ؟؟

ان الضرب كما ذكرنا يؤثر على الحالة النفسية ، وقطعا فان نفسية الانسان الذي يتعرض للضرب لا تشبه نفسية الجالس في المنتزه مع اصدقائه ، ولكن الجنود والمحققين ، وشرطة السجون يضربون ، ولا يلتزمون باخلاق وشرف انسانيين ، وقد يضربوا احيانا بمنتهى الوحشية دونما غاية التحقيق بل لمجرد التسلية او الارهاب أو الانتقام : بينما المناضل يعترف تحت وطأة الضرب لانه يخاف ، لان استعداده للصمود والدفاع عن النفس محدودين ، ولانه ينسى أو يتناسى تبعات الاعتراف على الذات والحزب والثورة ، أنه يجبن ويفقد شخصيته النضالية وقد يفقدها الى الابد . اي يعترف حالما يضعف نفسيا ويبدي استعدادا نفسيا لذلك وليس نتيجة الضرب الجسدي . وهنا يجدر ايراد مقارنة :ـ

المعتقلون المحكومون فوق ١٥ سنة ، كانوا ينقلون الى سجن عسقلان ، ومن بينهم جرحى ، ومرضى ، ومصابين ، ولدى دخولهم السجن كانوا يتناولون وجبات قاسية جدا من الضرب والتعذيب وبشكل متواصل ، من قبل حراس السجن ، ويخضعون الى شتى انواع الاذلال لمدة تتراوح بين اسبوع واكثر ، ويحرمون من الكثير من سبل الحياه الفيزيائية على الاقل ، ويقيدون بايديهم وارجلهم ، ويوضعون في زنازين انفرادية ، وطوال النهار وطوال الليل ، أما يتعرضون للضرب او التهديد بالضرب .

أن حجم الضرب والتعذيب الذي لاقوه في سجن عسقلان يفوق في قسوتة ما تعرضوا له اثناء التحقيق معهم بعد القبض عليهم .

نفس الافراد (شخص ما) ونفس الحالة (تعذيب وضرب قاس) في حالة التحقيق ، وفي جو الضرب ادلى باعترافات عن نفسه ومنظمته كانت كافية لايداعه السجن المؤبد ، أما في تعذيب السجن فلم يطلب منه الادلاء بمعلومات ولم يدل بشيء علما بأنه يعرف أنه في التحقيق سيواجه الضرب والتعذيب ، وأنه لدى انتقاله الى سجن عسقلان كذلك سيتناول وجبات الضرب والتعذيب والاذلال *. فلماذا ادلى في الحالة الاولى بمعلومات ، ولم يدلي في المرة الثانية ؟ أن الاجابة على هذا السؤال معطاة في مقدمة الكراسي ، ولكن الدلالة هنا ان الاعتراف لم ينتج عن الضرب مباشرة بل عن الاستعداد الذي تكون لدى المناضل اثناء التحقيق للاعتراف واذلال نفسه بنفسه . وليست قليلة الحالات التي استشعر فيها المناضلون بالفخر والعزة لدى تعرضهم للضرب بسبب تصورهم عن نفسهم . أنهم يخوضون موقفه بطولي في احدى مواقع الصدام مع العدو ، وانهم يصرون ويصمدون ويشكلون سدا منيعا يحمي الحزب والرفاق واسرار الثورة .

أن الساذج ضيق الافق المستعد فقط للدفاع عن نفسه بالمفهوم الفردي ، هو الذي يستجيب لمؤثرات الضرب والتعذيب ، أما المناضل الثوري الذي يحسب كل حركاته وسكناته من خلال ارتباطه الطبقي والحزبي ، وعلاقاته التنظيمية والفكرية والسياسية فانه يفهم الضرب على انه ممارسة عدائية يمارسها كلاب السلطة ، ضده

---

* يصادف أن يحصل تحقيق مع السجين اثناء وجوده في السجن على قضايا نظام السجن ، ويتلقى أقسى انواع الضرب والتعذيب ليعترف على (ورقة مكتوبة ، أو اداة حادة ، أو حتى لاجباره على فك اضراب ، وكل القسوه لم تعط اية نتيجة .

بوصفه في الصف الثوري ، وان على الثورة والثوريين أن يصمدوا حتى النهاية . وان الدفاع عن النفس يرتدي طابعا اكثر شمولا فهو في الحقيقة دفاعا عن الذات بوصفها جزء من الوضع الثوري النضالي ، وبالتالي لا يمكن ان يكون الدفاع عن النفس بحمايتها من الضرب بالاعتراف والتساقط بل بالصمود حتى النهاية ، أن الصمود البطولي في التحقيق هو الدفاع الحقيقي عن النفس وكل ارتباطاتها الوطنية والطبقية ، أن الدفاع عن النفس يكون بالصبر ، وعدم تعريض الحزب والثورة لاية مخاطر ، وصيانة الشخصية الوطنية للمعتقل من اي تدنيس يسببه الاعتراف ، ومن اي تبعات اخرى كالحكم بالسجن ونسف البيت .

ان المحقق السفاح ، الجلاد بوسائله المادية والمعنوية لا يمكن أن يكون صديقا للمعتقل او شفوقا عليه ، وهو لن يقدر ابدا على ممارسة هذا الدور بعد أن فقد انسانيته وانخرط كليا في الممارسات الفاشستية التي صبغت شخصيته تماما ، وهو لا يمكن أن يقدم اي مساعدة ما دام في الصف الوطني التقدمي فهما ضدان متصارعان ، وهو وان وعد بتخفيف التعذيب ، او وعد بتخفيف الحكم والافراج ، انما يقدم وعوده هذه كطعم اثناء اجواء ملائمة بغية الايقاع بالمناضل ليس انقاذه ، بغية ابتزاز الاعتراف لاستخدامه ضد المناضل وليس في صالحه . وهو لا يمكنه ان يفي بوعوده ، وان قدم بعض الاشياء اثناء التحقيق مثل سيجارة ، او كاس ماء كنوع من الوفاء بالوعد ، فهو لن يقدم الا مزيدا من التعذيب ، والضربات للشخص والحزب . ان رجال المخابرات لا يمكن ان يكونوا اصدقاء الثوار وبينهم بحر من الدماء والتعذيب والنوايا المتبادلة، واساسا لا يمكن ان يكون رجال المخابرات اصدقاء لاي شخص ، وان تظاهروا ، فانما يفعلون بقدر ما يساعدهم ذلك على تحقيق اهدافهم كخداع يمارسونه ضد الناس عموما والمناضلين في اقبية التحقيق خصوصا ، فهم وحوش

تدمرت انسانيتهم تدريجيا مع كل تعذيب يمارسوه لانهم محترفوا تعذيب فهم قد فقدوا الخيط الاخير من انسانيتهم.

٦ ــ اسلوب تعدد المحققين :

يتخصص عادة في عملية التحقيق مع المعتقل الواحد، محقق واحد او اثنين على الاكثر بصورة مباشرة، مرتبطين بمسؤوليهم الذين يشرفون بشكل غير مباشر على عملية التحقيق ويعود ذلك لعدم توفر طواقم اكبر حجما واكثر كلفة ، وايضا حتى يتمكن طاقم التحقيق من المتابعة المدققة ، عبر آلية العملية الجارية ، ولان عدد كبير من المحققين لا يلزم الا عندما يرتبط بمرحلة معينة من مراحل التحقيق بما يلي :

١ ــ للتأكد من النتائج التي توصلت لها خلية التحقيق المباشرة ودراستها وتقييمها ٢ ــ ممارسة نوع من التحقيق المكثف في ساعات قليلة من قبل عدد كبير نسبيا ٧ ، ٨ وربما عشر محققين يعملون في آن واحد وكلهم يسألون ويضربون ويمارسون كل اشكال واساليب التحقيق دفعة واحدة .

في مرحلة من مراحل التحقيق ويعبرون عن نفسهم في آن واحد باساليب ومظاهر مختلفة ، ويهاجمون المناضل من عدة جهات ويحاصروه بغية ارباكه وبلبلة وتشتيت افكاره والايقاع به ، احدهم يسأله عن اسمه ، واخر عن الاسلحة ، وثالث يضرب ، ورابع ينصح في آن معا ، والكل يحاول الوصول للمعتقل لاستجوابه في حالة من الفرضى ظاهرة ، هذا يهدد وهذا ينظر بصمت ، وآخر يحضر ادوات التعذيب ، وآخر يبتسم ويقدم سيجارة ، وحينما لايجدي ذلك يجلسون وكأنهم مجتمعون مع المناضل ويأخذون في استجوابه ومناقشته ، او يأخذ احدهم في استجوابه والاخرون يستمعون يتدخلون بين الفينة

الاخرى ، ويناقشون الوضع ويحللون الاجابات ، او يقوم كلهم مع بعضهم البعض ويأخذون في الضرب والاستجواب سوية .

هذا الوضع قد يستمر نصف ساعة او ساعة لتحقيق الاهداف التالية على الاغلب .

١ ــ وضع المناضل في حالة جديدة باظهار الاهتمام الزائد به وبقضيته مما استجوب حضور هذا العدد من المحققين كل واحد يدعي انه حضر من مكان بعيد .

٢ ــ دراسة التحقيق ومجرياته عن قرب ، وذلك لتقييم المراحل السابقة بشكل جماعي .

٣ ــ بلبلة وتشتيت المناضل فقد يقع في جو كهذا او يتخبط فيزل لسانه .

٤ ــ وفي نهاية عملهم يعطون تقييماتهم عن اساليب التحقيق السابقة ، وتقديراتهم لموقف المناضل بانه مثلا ليس لديه شيء يقوله ، او انه قال كل شيء ، او انه لن يقول شيئا جديدا ..

وحتى يحصلوا على موقف نهائي من اجتماعهم هذا يصادف أن ينبري احدهم للتحقيق العنيف مع المعتقل امام الجميع كجولة نهائية لهم . وذات مرة اجمع اربعة محققين لمدة ٦ر٥ يوم على مناضل في تحقيق متواصل بدون نوم او ماء وغذاء او راحه ...

ان جولة المحققين المتعددين هي في صالح المناضل غالبا بناء على الاهداف المذكورة اعلاه ، فهم لم يأتوا لمساعدة المحققين المسؤولين بل ليقولوا كلمتهم في ما يجري ، وهذه فرصة المناضل والمحقق معا : فالمحقق يريد ان تحظى تقييماته بتأييد المسؤولين والمحققين الاخرين ليشاركوه في تحمل المسؤولية والتقييم واذا ما اصر المناضل على الصمود فان موف المحقق سيتغير لصالحه دون نزوات تذكر وانما سيقوم بجولة او بضع جولات اخرى لتثبيت التقييم الجماعي وربما ينتهي التحقيق فورا .

ان المرحلة التي يتعدد فيها المحققون هي حاسمة في مسار التحقيق ليس بسبب الضغوطات والعنف الذي يمارس فيها فهو عادة قليل جدا ولفترة قصيرة جدا ، بل لان حالة الصراع تكون متوازنة تقريبا بين القطبين ، او اخذت تميل لصالح المناضل أن كان لايزال صامدا ، او قاربت على التوقف ان كان قد ادلى بشيء ، وهذه المرحلة تتطلب درجة من الدقة والصمود لتثبيت النتائج لصالح المناضل حيث يهزم المحقق ليس على مسؤوليته الشخصية فحسب بل ومعه طاقم مسؤول من المحققين .

أن اساليب التحقيق التي تتبع هي ممارسات هادفة تمارس وتكرس اثناء جولات التحقيق ومراحله المختلفة ، يجري التركيز على احداها بمصاحبة الاخريات ضمن ترتيب معين ، مصحوبة عادة بالشدة ، وربما باللين ، بهذا المظهر او ذاك من مظاهر السلوك . هذه الاساليب تمارس بواسطة المحققين اما اثنين دائمين ، او واحد ثابت يساعده في بعض الاحيان سفاح آخر ، او تقوم خلية تحقيق بالعمل مراحل معينة ، تليها خلية اخرى (أي تغيير المحققين) او تقوم مجموعة محققين بدراسة القضية في مرحلة من مراحل التحقيق .

أن تغيير المحققين لا يهدف فقط الى اجازتهم واراحتهم من العمل بل هو في الغالب ناشيء عن عدم ثقة بنجاعتهم فيما لو استمروا ، او عدم ثقة بتقاريرهم ، غير أن تغيير المحققين الذي يتم عادة نتيجة لصمود المناضل المعتقل ، هو علامة بارزة له ، بأنه على طريق تجاوز الخطر ، وانه قد يربح المعركة وهو سيربحها لا محالة .

فقد يلجأ طاقم التحقيق الى استخدام محققين آخرين ليقوموا بعمل محدد ، مثل استعمال الكهرباء ، او استعمال الكلاب التي يطلقونها على المعتقل استنادا الى خلفية الفزع من الكلاب ، والاستعانة بخبير فني لاستعمال ما يسمى جهاز كشف الكذب ، او متخصص في دراسات

نفسية معينة يستخدم ما يسمى توارد الافكار واسئلة معينة لكشف قرائن او دلالات على الفعل الذي يجري التحقيق من اجله .

وهكذا ، وكما هو واضح يحتاج طاقم التحقيق الى عدد آخر من المحققين المكملين ، او تدخل لجان تحقيق للدراسة ، او تدخل مسؤولين اعلى مباشرة في التحقيق بدلا من الاكتفاء بالمراقبة .

ان الحال واحد بالنسبة لمعتقل بعد ان تكون لديه فكرة ولو بسيطة عما يجري حوله ، وقد يجد في تعدد المحققين عزاء له ، فعندما يتغير الطاقم الاول ، فانه يتغير في الغالب لانه فشل ، وهزم في المعركة ، والطاقم الجديد يستند على تجربة سابقيه كما يستند المعتقل على تجربته الاولى : تجربة الطاقم الاول توجت بالفشل وهذه نقطة انطلاق الطاقم الجديد . وتجربة المناضل مع الطاقم الاول تكللت بالانتصار ، وهذه نقطة انطلاقة المناضل في الجولات الجديدة .

٧ ــ تشتيت الافكار

ما دامت كل الممارسات والاساليب التي يتبعها المحقق ، تهدف الى تحطيم شخصية المعتقل الوطنية ، ونفسيته ، وصموده ، فان تحطيم تماسكه ، واتساق تفكيره ، وتشتيته يشكل خطوة هامة لتحقيق هذا الهدف . فما دام المناضل ثابت البنان متماسك الشخصية ، مترابط الافكار ، فان ردود فعله تظل واعية ، ووحدة جوانبه الداخلية تظل سدا يحميه من هجمات المعتدين ، وهذه الحقيقة تدفع بالمحققين لزعزعة اركان المناضل وتشغيل افكاره في اكبر عدد ممكن من القضايا ، وجره للتفكير في اكبر عدد ممكن من الحلول والمخارج ، والعلاقات ، والصداقات ، والخيارات المطروحة عليه ، بل فان

المحققين حتى يبلغوا هذه الغاية يحاولوا ان يفرضوا عليه الاجابة على اسئلتهم في وقت واحد ، أو تقديم مؤشرات متعددة له دفعة واحدة كان يقولوا له بعض القرائن ضده، وفي نفس الوقت يتعمدوا ملاقاته مع احد زملائه المعتقلين، وفي لحظة قريبة جدا يجعلوه يشاهد احد اقربائه او قريباته ، ويحدثه احدهم عن ظلام السجن والقسوة التي سيلاقيها فيه ومدة حكمة التي قد تزيد عن كذا سنة ، وينصحه بأن يتعاون معهم حتى ينتهي من هذه الورطة ... وربما يوهمه احدهم بانه ادلى بالكثير مما لديه بينما كان نائما في الزنزانه وانهم سجلوا كل اقواله ، مع تذكيره بكل ما قيل له في عملية التشكيك التي يكونوا قد مارسوها من قبل .

والمعتقل يلاحق كل شيء بافكاره وتصوراته ، ثم يشك في وضعه ، ثم يشك في زملائه في الزنزانة او اي شيء من هذا القبيل اذا انساق ورائهم ، وهو سيتداعى في نفسه وتفكيره شريط ملاحق وربما متشابك ، عن حياته في السجن ، حالة اولاده وزوجته ، أو حالة امه ، امكانياته في الاستمرار بالصمود ، واستمرار فترة التحقيق التفكير برفاقه ، وهل احدهم عميل ... اي أن الاستجابة الميكانيكية لاسلوب التحقيق هذا تجعل المعتقل يفكر لحظيا وعلى وجه السرعة بعدة اشياء ليس بينها من ترابط ، والرابط الوحيد الذي يمكن ان يجمعها مع بعضها هو عملية التحقيق ، وطولها ، وشدتها وهل يعمل ما من شانه الخلاص منها بالادلاء بالاعترافات أم يصمد للتحقيق ويخلص من العار والسجن معا .

في حالة التشتت المقصودة هذه ، والتي يحاول المحقق استجلائها وافتراض وجودها بعد جملة من الممارسات (تعدد المحققين ، تعدد الاسئلة من نفس السياق ، تعدد سياقات الاسئلة ، طرح القرائن ، التشكيك بالرفاق والثورة ، الاغراء ، والترهيب واثارة

العواطف ..) ومن ثم يدخل في صميم الموضوع من خلال نقطة ضعف يلاحظها في حينه .

ان المحققين الصهاينة ، ورثة تراث التحقيق البريطاني في فلسطين ، وهاضمي دروس التحقيق النازي الذين يصوغون نظرياتهم في التحقيق بالاعتماد على هذه الخلفية ووفقا للعلم الامريكي وخبرات الفاشية في العالم لا يتورعوا عن فعل اي شيء من شأنه ايصالهم لاهدافهم. وهم لا يحتكمون الى نظم اخلاقية محترمة ، او يراعون مشاعر انسانية ، ان اخلاقهم هي الاخلاق الاستعمارية العنصرية ، وسلوكهم فاشي النزعة ، وغارقين في بحر من القذارة والعفونة بحيث ان دفاعهم عن استمرار اضطهادهم مقرون باستمرارهم في ممارسة ابشع انواع الاضطهاد ودفاعهم عن استغلاليتهم ايضا مقرونة باستمرارهم في ممارسة ابشع انواع الاستغلال مهما كان نوعه او مداه . ولا يهمهم في مجال التحقيق ان يستغلوا ويستثمروا كل شيء حتى العواطف الانسانية ، والابناء ، وسيتقدمون بنات المعتقل واهله ويرهبونهم ، واحيانا كثيرة يطلبون منهم ان يضغطوا على المعتقل بعد ان يقنعوهم بأن مجرد اعترافه يكفي للافراج عنه واراحتهم جميعا من المشكلة . انهم يلجأون الى المساس بالشرف الانساني ، وهتك الاعراض ، ويسببون العاهات الجسميه والعقلية ، وتشويه السمعة ، ويستثمرون نسائهم في ابتزاز المعلومات من المعتقلين ..

وضمن هذا الاطار الهجومي ، يتلقى المعتقل الضربات الجسدية ، والمعنوية ، والاحكام التعسفية ونسف البيوت وليس له من سلاح الا صموده وصلابته في عمليات التحقيق . ان المعتقل لايستطيع ان يستند الى عدالة القوانين ، ولا الى انسانية القضاة ونزاهتهم ، ولا يستطيع ان يستند الى كفاءة محامي الدفاع ، فكل هذه العناصر محسوب حسابها عبر عملية التحقيق وصياغة افادات الاعتراف التي غالبا ما يصوغها شرطي

لم يسبق له ان شارك في عمليات التعذيب والتحقيق وغالبا ما تختفي كل الوجوه التي اشتركت في التحقيق عدا هذا الشرطي الذي تقدم له اوراق جاهزة ينسخها على الاوراق الرسمية التي تقدم للمحكمة . ان هذا الشرطي هو الذي يقدم الافادة للمحكمة ، ويصبح شاهدا يدلي بانه وبكل بساطة جلس مع المناضل وقدم له سيجارة ومن اول سؤال ادلى المناضل بكل ما هو مكتوب في الافادة ، وان الشرطي هذا قد حذره من عواقب ما يقول الا ان المناضل اصر على الكلام وفضل ان يقدم كل ما لديه للسلطة . هكذا تسير العملية كذبا وخداعا ، ولا يستطيع المناضل ان يثبت في المحكمة انه تعرض لاي تعذيب حتى ولو كانت اثار التعذيب بادية للعيان . كل ما جرى في اقبية التعذيب يجري اخفاؤه ، وينبري المدعي العسكري لكيل التهم والقاضي للحكم رغم دفاع المحامي الذي ينظر له من قبل المحكمة والسلطة نظرة سلبية لانه يدافع عن الفدائيين ولا تحمل اقواله محمل الجد .

اذن بقي شيء شديد الاهمية وهو ان يمتنع المناضل عن تقديم اي افادة مهما كانت حتى يعجز طاقم المؤامرة عن تقديمه للمحاكمات الصورية هذا هو جوهر الامر .

هذا الامتناع يتطلب صلابة وصمودا في التحقيق ، تفشل كل الاساليب ، تصمد للضرب ، ولا تستجيب للمؤثرات النفسية الاخرى . وهذا يتطلب ايضا مزيدا من التماسك والفطنة ، وثبات الشخصية ، وانسجام في التفكير .

عندما يأخذ المحقق في طرح سمومه التشتيتية او التشكيكية ، فأن الاستعلاء من قبل المناضل على هذا الضابط الحقير والذي يدل على عدم التأثير والاستجابة يكفي لان يغلق ضابط التحقيق فمه ويتعرى من اسلحته الهجية واللا اخلاقية ويظل امام خيارات صعبة بالنسبة له وسهلة بالنسبة للمعتقل مكتفيا فقط بالاسئلة المباشرة والتحقيق المباشر المكشوف والصراع المكشوف من اي

غطاء فاما أن يجبر المعتقل على الاقرار والاعتراف وهذا صعب جدا او يسلم بعجزه عن ذلك .

٨ ــ الارتكاز على العواطف والقيم الاجتماعية

ان محاولات تشتيت افكار المناضل تأخذ عدة اشكال كلها تهدف الى زعزعة صموده ، ولكن عبر هذا التشتت الذهني ، يستفرد المحقق بالمعتقل مركزا على الجوانب العاطفية والانسانية والاخلاقية لديه ، كما ذكرنا سابقا فانه لا توجد اية معايير تمنع المحقق من اتباع الاساليب والوسائل التي يعتقد انها مفيدة له ومؤثرة في صمود المناضل قيد التحقيق . وقد حصلت عدة وقائع لاحصر لها في هذا الشأن منها قصة المعتقل (أ) وهو اب لثلاثة اولاد من بينهم فتاة جميلة في السابعة عشر من عمرها يبدو عليها تمام النضوج والتفتح للحياه ، شديدة التعلق بوالدها الذي يحبها (بكل الدنيا كما يقول ، ويغدق عليها من عطفه وحنانه ما لا يوصف من عطاء ابوي ، يعيش هذا الاب مع اولاده ، ومنذ أن توفيت زوجته التي كان يحبها ، يشعر أن هؤلاء هم كل عالمه ، هذا العالم المحاط من كل جانب بالالفة والمحبة والتفاهم . وفي يوم من ايام عمله في الحقول مر عليه ثلاثة رجال طلبوا منه طعاما وبعض المساعدة ، قدم لهم حاجتهم بعين الرضا ، وبعد أن لاحقه الواشون اعتقل وثبت في اقواله ثبات الفلسطيني على قضية ، وبعد اليوم السادس عشر وبينما هو في قبو التحقيق ، انفتح الباب عن ابنته عارية الصدر ، منفوشة الشعر باكية ، ولشدة ذهوله سقط على الارض ، وبعد أن رشوا عليه الماء اقعدوه ، واخذ واحدهم يغازل الفتاة ، ويعرض عليها نقودا اذا ما قبلت بمضاجعته ، ويمرر يديه على صدرها ، ويحتضن بكفه ثديها ، والاخر يساوم الاب الذي شعر بالعجز : فهو

لا يستطيع أن يمنع الوغد الذي يطعنه بعرضه ، بل بما هو اغلى من كل الوجود ، ابنته ، والاخر يعده بطرد زميله أن هو ذكر لهم اسم الرجال الثلاثة الذين مروا عليه واوصافهم ، وان لم يذكر فان اولاده الموجودين في الغرفة المجاورة سيتعرضون أمام عينيه لابشع مما تعرض له ابنته الغالية : هذه هي ابنتك ، هل تحبها ، هل تخشى العار ، هل هي غالية عليك ، وسمعتك هل هي غالية عليك ، ماذا سيكون موقف اولادك بين الناس حين يقال أن عرضهم مهتوك ، وان ابوهم باع ابنته للمخابرات كي تفرج عنه .. سأسمح لزميلي ان يضاجع ابنتك وبعد أن ينتهي تأخذها وتذهب للبيت انت واولادك بالسلامة ، لا من رأى ، ولا من درى .. خذها .. وهنا طار صواب الاب وبعد ان حاكم المسألة بانه اما أن يقول ويسلم عرضه ، او يظل صامتا ويطعن ، بعد ذلك انهار وقال كل شيء).

هو رجل في الخامسة والخمسين ، فلاح أمي شديد التمسك بالقيم ، وشديد العطف على شرف ابنته الذي تدنس بين يدي رجال التحقيق وسيكون مصيرها الموت بالطبع غسلا للعار ، فالاسهل من زاوية النظر هذه أن يشي بثلاث رجال ، ولانهم مسلحون ، يحكم هو بعشر سنوات ، وينسف بيته ــ واذا استمرينا في وضع المسألة بهذه الصورة فأن خياره كان شديد الصعوبة ، ولانه (شهم) فرط بنفسه وبالرجال الثلاث حماية لعرض ابنته ولحياتها التي تهددت منذ أن وضع الجندي يده على ثديها دون ارادتها ! .

ان المسألة امام هذا الرجل لم تكن مسألة انتماء وعقائدي ثورية ، بل انتماء عشائري وعقائدية عشائرية وضمن هذه القيم فان العرض اغلى من الارض ومن الروح فهو يوازن بين طرفين يعطيهما نفس القيمة ، وحتى يعطي ما يسمى شرفه العشائري قيمة اكبر من شرفه الوطني ويختار على هذا الاساس .

أن هذا النموذج من البشر موجود فعلا في بلادنا واذا حدث وان مر بتجربة التحقيق واستطاع المحقق كشف نقطة الضعف هذه فسيستعملها ضده ، ولكن المحقق قد لا يكتشفها ، وقد يحمل فكرة مخالفة بأن هذا الشخص لن يلوى عنقه في تجربة من هذا النوع ، عدا عن ذلك فان تجربة كهذه ليس بالضرورة ان تنجح .

أن رجل المخابرات لم يحضر الفتاه لاقبية التحقيق بهدف المتعة معها ، وهو أن مارس اي شيء انما يمارسه بغية الضغط والاذلال والترهيب من خلال اثارة العواطف استنادا الى فهمه للقيم الاجتماعية التي يتحلى بها المعتقل. وعليه ومع أن كل اب يثار لمصلحة ابنته ، فأن هذه الابنة لا يتعين بالضرورة أن تحجب المسألة الوطنية بل يمكن استعمالها فيما لو حصلت كنوع من بلبلة المحقق نفسه وافشال خططه . ان موقف المعتقل أمام هذا النوع من الضغط والاثارة بطريقة تعكس صموده وصبره سوف تعني فقط أن طاقم المحققين بذل جهدا واضاع وقتا دون جدوى . أن المحقق الذي يهدد بجلب الاولاد أو النساء وضربهم والاساءة اليهم انما يهدد صمود المعتقل وليس الاولاد مهما كانت ممارسته معهم ، وتجربة الاولاد ستكون فخرا لهم اذا ما توجت بصمود المعتقل وصلابته وعدم خضوعه للضغط ، فمن باب اولى أن يحرص المعتقل على نفسية وكرامة أولاده ، بأن يصمد ولا ينهار ليكون في نظرهم بطلا تعرض لكل هذه الاشكال من التعذيب والضغط .

لقد كثر استعمال هذا الاسلوب في الاونة الاخيرة دون جدوى تذكر فعلى ما يبدو أن انواع المعتقلين المختلفة قد ادركت اللعبة وافشلتها ، وليس قليلة الحالات التي يعرض فيها احد الابناء أو الاقرباء على المعتقل في التحقيق وينكر أية صلة شخصية به ، بل حتى ينكر انه يعرفه وهذا بالتأكيد يسقط في يد المحقق ويزعزع نهجه في التحقيق ويدفعه للنتيجة المرجوة (اعلان افلاسه) .

أن المحقق ، الذي لا يتقيد باية قيم انسانية شريفة، يفترض أن المعتقل وفي ظل ظروف التحقيق سوف يثار من أية شيء .. قيمه الاخلاقية على وجه الخصوص ، وضعه الجنسي ، سمعته الشخصية وربما الوطنية ، وليس غريبا أن يجري اعتقال مواطنون من قريته أو اقربائه أو من عشيرة أخرى ويوحي لهم بأن فلان هو الذي اعترف عليكم ، ثم يستغل هذه الوضعية المؤثرة ضد فلان هذا ويضغط عليه ليعترف بما لديه مقابل الافراج عن الاخرين وانقاذ سمعته في القرية ، أو انقاذ القرية من مذابح بين افرادها .

أن الحقيقة سوف تظهر في يوم ما . فاذا اعتقل عدد من الناس حقيقة ، أو أن المحقق اوهم المعتقل بذلك فان هذا لا يبرر الخضوع لرغبات المحقق والانسياق وراء الاعيبه ، والاخرين سيفرج عنهم حتما في اقرب فرصة وتنتهي المسألة .

وقد لاحظنا في كل مرة أن المحقق يتصرف هذا التصرف أو ذاك ويستمر عليه ويكرره بقدر ما يعتقد انه سيعطي نتائج مرجوة له ، أما اذا لاحظ أن تصرفه هذا سيثير مزيدا من الصمود والصلابة والحقد عند المعتقل فانه سيتجنبه أن المحقق الذي يمارس كل هذه القذارات من موقع السلطة لا يستحق أن يتعاون معه المعتقل ويعطيه ما لديه بل يستحق السخط والنقمة المتزايدة وان يستمر التحدي معه حتى النهاية لتحطيم نفسيته هو ، وتشكيكه بقدراته واساليبه هو حتى يرفع الراية معلنا الهزيمة .

ومن المناسب الاشارة هنا أن المحقق يتعلم كيف يعامل المعتقلين في التحقيق ، ويتعرف على ظروف حياة المجتمع وقيمه من خلال دروس مجردة يعتقد هو أن ما تعلمه ملائم لكل فرد ، وحتى بالرغم من تجربته فانه يظل يحمل في فهمه قوالب مفصلة سلفا يحال تطبيقها على هذا أو ذاك ، وحينما يجد أن هذا القالب غير ملائم فانه

يبحث غيره ، فالمحقق قد يستمر في الحديث عن البيت والاطفال والزوجة لكل أب يعتقل ، وهو لا يعرف بالضبط مدى جدوى حديث كهذا مع كل معتقل بل يحاول ان يتحسس بعض الاثار ، أن المحقق قد يستمر في الحديث عن شرف العشيرة وكرامتها مع شخص لا يتقيد بالقيم العشائرية ، وربما يستمر في الحديث عن حالة الام وبؤسها نتيجة اعتقال ابنها علما بأن الام متوفية او خارج البلاد ولا علم لها بالمسألة ، أو يستمر في تفصيل هذه الثياب امام معتقل ثوري ملتزم لاتهزه لا هذه الاساليب ولا غيرها معتقدا انه ما دام هذا المعتقل عربيا ومن الفرية الفلانية فسينال من صموده بهذا الاسلوب اذا اتبع التلقين الذي تلقاه اثناء دوراته ودروسه .

وعليه فان اساليب الاثارة التي يستخدمها المحقق قد تلقاها جاهزة من أسياده واساتذته ، على أنها مجربة من جهة ، وممكن أن تؤثر في صمود أي معتقل من جهة اخرى وسر نجاحها مع بعض المعتقلين نشأ اساسا من كونهم مستعدين للتعاون مع المحقق مهما كان حجم سقوطهم ، اما فشلها في الحالات الاخرى فهو الامر الطبيعي وليس الاستثناء .

٩ ـ المفاجآت والصدمة

من المعروف ان المفاجآت وخاصة عندما تكون غير متوقعة تؤدي الى انقطاع سياق التفكير القائم وربما احداث بلبلة أو تشوش في تركيب ذهنية الفرد لفترة قصيرة او طويلة ، وقدرات الافراد على تحمل الصدمات من هذا النوع متفاوتة . فالام التي تتصور ابنها بين أقرانه مرحا وسعيدا ، وبينما تكون هي منخرطة في حالة نفسيه معينة ايا كانت يأتيها الخبر المفجع بوفاة ولدها ، لاشك أن مفاجأتها بالخبر تحدث لها صدمة معينة ، وقد يشل

تفكيرها لفترة تطول أو تقصر ، والمعتقل في التحقيق الذي يظن أنه الوحيد المعتقل من بين افراد الخلية او المجموعة بينما الاخرين في مأمن ، وأن فلان بالذات لن تطوله ايدي المخابرات ، وفجأة ينفتح باب القبو ليراهم دفعة واحدة ، او يرى احدهم فانه سيتأثر الى هذه الدرجة أو تلك ، ويستعرض لصدمة معينة بقدر ما يكون المحقق قد اعده لذلك ، وبقدر ما يكون هو مستبعدا الامر . والمعتقل الذي يعتقد أن زميله في الزنزانة الاخرى لا يمكن أن يعترف بشيء وأنه مثاله في الصمود ، وهو بالتالي في مأمن من أية وشايات من طرفه ، أو أية سقوط يؤدي الى الحاق الفرد بصموده وانتمائه ، وفجأة يدخل المحقق حاملا المعلومات الاكيدة عن انهياره جزئيا أو كليا ، معلومات صادقة أو تخمينية ، هذا المعتقل قد يصعق للحظات . أو عندما يفاجأ احد المعتقلين برفيقه المسؤول الذي كان طوال الوقت يعلمه دروس الصمود والتضحية والبطولة يدخل عليه القبو بصحبة المحققين ليقول له (انتهى كل شيء وما عليك الا ان تعترف) أو كما حصل في احدى المرات حيث دخل مسؤول مجموعة على الاعضاء الذين كافحوا اثار التعذيب وصمدوا لمدة ستة عشر يوما متواصلة ، دخل المسؤول بشكل مفاجيء ليقول لهم (آمركم بأن تعترفوا فقد انتهى كل شيء ورتبت امر الافراج عنا مع الحاكم العسكري ...) سيتعرضوا بالفعل لمفاجأة قوية.

أن مفاجآت من هذا النوع مؤثرة بدون شك وهي وان لم تسبب صدمة قوية فانها على الاقل تثير التشوش الى هذا الحد أو ذاك للحظة أو لحظات وهذا ما يبغيه المحقق بالتحديد لينهال على المعتقل بضغوطات ومؤثرات مستغلا حالة البلبلة أو المفاجأة او الصدمة باغيا الاعترافات والتعاون .

ليس من شك أن للخبر المفاجيء ، أو للحدث الغير متوقع اثره على نفسية الانسان فالانسان يتأثر بالمفاجآت ويتأثر بالاحداث عموما ولكن لاي مدى ؟

لنتصور معا مناضلا عنيدا تحمل كل أثار التعذيب لمدة ستة عشر يوما (بعض المعتقلين تحمل اضعاف هذه المدة) ولم يدل بشيء اي أن التعذيب لم يفت في عضده وتجاوزه بنجاح ، وبعد يوم استراحة ، يطلبه المحقق ويقول امامه بضع كلمات ، فيتناول ورقة وقلما ويدلي بما لديه .

ان تحليل هذه الظاهرة (بالفعل تكررت مئات المرات) قد يساعد على الفهم : التعذيب والاساليب الاخرى تملك اثرا تراكميا على الانسان ولكنه لايشكل نسقا واحدا بل عدة انساق متناقضة وخاصة أن المعتقل تجاوز ستة عشر يوما من التحقيق فبقدر ما يسعى المحقق لاحداث الهزة ، فان المعتقل وعبر الجولات المتعددة كان لديه ما يفرز صموده اللاحق استنادا الى صموده السابق وهذا تناقض داخلي في مضمون مرحلة التحقيق ووضع قطبي التناقض متفاوت في عملية التأثير المتبادل ، بعد سياق كهذا يتعرض المعتقل لمفاجأة تملك أثرا ترابطيا على الاثار النفسية السلبية الناتجة عن عمليات التحقيق وهذا يفسر استجابته الفورية . لقد عززت المفاجأة استعدادا خفيا أو طفيفا لدى المعتقل بالاعتراف . هذه هي المسألة وكان من الممكن وبكل بساطة ان لا يحدث ذلك بل تفعل المفاجأة فعلها في تعزيز الصمود وخلق الارتباطات بين جوانب التأثير النفسي الايجابي الذي نشأ عبر مرات الصمود السابقة في الجولات السابقة .

وبالتالي نحن أمام حالتين في الواقع تؤديان الى نتيجتين مختلفتين : مفاجآت تؤدي الى الضعف ، واخريات يعززن الصمود ، واذا كانت هاتان الحالتين واقعيتين ، فان حالة الضعف غير مبررة . فالمعتقل المعد سياسيا للنضال ، ومعد لمجابهة التحقيق واساليبه لن تفوته فرصة ادراك غاية المحقق من طرح هذه المفاجأة واذا كان صمد للتحقيق ستة عشر يوما فهذا اكبر دليل مادي له على قدرته على الصمود حتى النهاية ولذا فان ادلائه بالمعلومات

هو سقوط مشين . أن مئات الحوافز الايجابية تفعل فعلها في لحظة كهذه الى جانب الحوافز السلبية ، ولكن التصرف الواعي هو الذي يحسم المسألة فلم يحصل أن انهار احدهم بفعل الغريزة او الدوافع الخفية . بل بعد حكم عقلاني هو خاطيء بالتأكيد .

(فلان اعترف علي ! انه اعترف فقط عن نفسه وعبر فقط عن شخصيته المهزوزة اذا كان هذا الكلام صحيحا أما أنا فلن تهتز لي قناه وسأحمل بنفسي عبء الصمود ليس بوصفه تضحية بل بوصفه واجبا مقدسا . هذا ما يمكن ان يعتمل في نفسية المناضل الثوري بعد امتحانه بالمفاجآت المنغصة في أقبية التحقيق .. وليستمر الصراع حتى يأخذ مداه فانا جزء من شرف الحزب وعلي يقع عبء صيانة هذا الشرف) .

هذا هو الاطار العام لاسلوب الصدمات النفسية والمفاجآت القاسية : مفاجآ عاطفية ، سياسية ، معلومات هامة يعبر المحقق عن معرفته بها ، أفراد زملاء يقبلون بمشاركة المحقق مهامه ضد المناضل بالقدوم الى قبو التحقيق ونصحه بالاعتراف ، أو الاعتراف أمامه ، زميل في الزنزانة مدسوسا يتفاعل مع المناضل ويحصل منه على معلومات يقدمها للمحققين فيواجهونه بها وغير ذلك ضمن نفس الاطار ونفس الهدف الذي يتحرك خلاله المحقق للحصول على المعلومات والادانات وتوجيه الضربات بالتالي للحزب والثورة .

والمحقق لا يتبرع بتقديم المفاجآت اعتباطا ، بل هو يتبع اساليب عديدة ، ارهابية وتشكيكية وخلق اجواء نفسية معينة ثم يقدم العوبته ، ومع ذلك فان هذا النهج قابل للفشل أيضا فالذي تجاوز الاساليب السابقة فانه سيتجاوز أثر بضع كلمات . المهم ان المحقق يعتقد ان المعتقل سينهار اذا ما فاجأه بعض الشيء فيستل سلاحه ويضرب ولكن هذا السيف قد يكون من ورق وعلى الاكثر من خشب ، يخدش ولا يقتل ، فينطوي المحقق على

نفسه مفكرا لا يلوي على شيء وليس امامه الا ان يستمر في الضغط محاولا الحصول على نسبة اقل فاقل الى ان يتحقق من ان المفاجأة قد فقدت اثرها ليكون احد الاساليب الخطيرة في نظره قد فشل وماذا بقي .

ان ما يمكن ان يسمى مفاجأة ليس صدمة او مفاجأة في نظر الجميع ، أن المحقق يفكر ان قول شيء ما سيكون مفاجأة لاحد المعتقلين من صنف معين فيقدم له شيئا ما على انه مفاجأة . هذا الصنف من المعتقلين وهم الاكثر بساطة هم الذين يتعرضون لاساليب كهذه . أما في حالة المعتقل المحسوم ثوريا ، والذي يحمل رجل التحقيق عنه فكرة اخرى على انه مجرب ، او شخصية شديدة التماسك فان المحقق سيقدم له كل المعلومات التي تعتبر مفاجأة ويمكن أن تحدث صدمة لغيره ، يقدمها له في سياق الحديث والمحاصرة ، وربما منذ الجولات الاولى ، فليس كل معتقل في نظر المحقق يمكن مفاجأته . وفي كلتا الحالتين فان تقديم المعلومات للمعتقل يمكن ان يفيده لا من باب المفاجأة بل من باب فهم وضعه في التحقيق مما يساعده على حسن التصرف واستمرار الثبات .

ومن المناسب أن نؤكد هنا أن مواجهة التحقيق لاتتم بشكل جماعي .. ان معركة التحقيق المدعومة بكل ما يمثله طرفي الصراع هي معركة فردية من حيث الواقع انها معركة المعتقل بلحمه ودمه ، بوقوفه في المقدمة وفي اصعب مراحل الصراع بصورة عامة . فكل اشكال الصراع الاخرى يخوضها المناضل محاطا ماديا ومعنويا بمنظمات وجماهير وتحليلات وقرارات واطر سياسية ، أما معركة التحقيق فيخوضها فرديا ممثلا عن كل هؤلاء ومعبرا عن تركيز وتكثيف شديد عن الطرف الثوري .. ان وقوفه كفرد (مع ان هذا لا يلغي ارتباطاته المتعددة) يعني انه هو لوحده الذي يتخذ قرارا بالصمود في لحظة من اللحظات دون الاهتمام بما يقره الغير من زملائه في التحقيق . انه هو ، وهو فقط صاحب القرار ، وصاحب

الموقف ، وليس لموقف وقرارات الاخرين بالاعتراف ، او بأي شيء اخر .

وعليه ، اذا اعترف فلان ، او اذا كان فلان عميلا، او اذا كانت المخابرات تعرف انه مناضلا فانه سيظل هو بلحمه ودمه واعصابه يتحمل مسؤولية المواجهة ما دامت قد وقعت . وعلى فرضية انه سيتعرض للمحاسبة بعد خروجه من السجن وهذا هو الامر الطبيعي ، فانه لا يستطيع ان يتذرع بأن فلان اعترف ، وان فلان آخر نصحه بالاعتراف ، او أن المحقق قال له بأنه يعرف كل شيء ، بل انه سيحاسب عن نفسه وعن سلوكه دون اية تبرير ، وهو فقط الذي يتحمل المسؤولية لان المسؤولية في التحقيق تظل في جميع الاحوال فردية ، وكل من يدلي بمعلومات تضر بأمن الحزب والثورة لايستحق شرف الانتماء النضالي من خلال الحزب أو المنظمات الثورية .

على المناضل أن يدافع بكل ما لديه من اسلحة بل يهاجم اذا قيض له ذلك ، فالمحقق امامه ما هو الا مأجور مرتزق يتقاضى راتبا قد يكون سخيا لقاء عمله وغالبا ما يكون المحققون من احقر الناس ، بل من السقط الاجتماعي وهم لا يستحقون الا التحقير والتجنيس على ادوارهم القذرة التي ارتشوا من اجل القيام بها ، علاوة على ان فوقيتهم في التحقيق وتعاملهم الحقير مع المناضل تتطلب الرد الفوري باحتقارهم وعدم الاذعان لهم .

ان اسلوب الصدمات الناشئة عن المفاجآت ، واساليب التشكيك والتهويل وغيرها ، مصحوبة بالضرب والتعذيب ما هي الا مناورات محبوكة يستشف المحقق فرص استعمالها بناء على حالة المعتقل المفترضة كما يفهمها المحقق . أنها مناورات وتاكتيكات عبر عملية الصراع تهدف الى خلق حالة نفسية ضعيفة ، ومن ثم الاجهاز على المناضل . هذه الاساليب التي اذا استوعبها المناضل تفاعل معها بصبره أو بمناورات مضادة اهمها

التبيان بين كل مناسبة واخرى ما يفيد ان المناضل ليس لديه ما يقوله وانه لا يعرف شيئا ولا ينتمي لاية جهة .

١٠ ــ اسلوب الشراء وعقد الصفقات

بعد ان تفرض اجواء التحقيق وتمارس عدة تصرفات واساليب ، وبعد ان يظهر المحقق نفسه منتصرا وعارفا وقادرا ... ، وبعد عدة محاصرات ، وبعد ان يكون المناضل قد جابه كافة الاساليب بصبره وصموده وافشل المحقق في الواقع ، يظل أمام المحقق بابا يطرقه اذا اتيحت الفرصة وهو باب الصفقات والشراء . فالمحقق لم يستطع الحصول على شيء ، ويفتش عن حلقة يعتبرها هامة ويريد كسرها فيصور للمعتقل بأن وضعه السيء في التحقيق باق الى مالا نهاية ، وان اعتقاله سيكون طويلا ، ولا حل امامه الا بالتعاون مع المحقق وخدمة المخابرات في التحقيق مقابل الافراج عنه شريطة ان يدلي بكل ما لديه ويشي بجميع الرفاق ... يبيع ويقبض الثمن وبالتالي يتحول من مناضل جريء الى عميل وضيع وخسيس .

ان عرض المحقق بهذه الصورة له عدة مغازي :

١ ــ المحقق بهذا الاسلوب يهاجم وطنيته وثوريته وانتماء المعتقل سواء نجح أم فشل .

٢ ــ المحقق في الحقيقة يعبر عن فشله في الحصول على المعلومات والاعترافات بالطرق الاخرى وهذا نوع من الشهادة .. شهادة العدو يقدمها طائعا مختارا على صلابة وصمود المعتقل .

٣ ــ المحقق يهدف الى اسقاط حلقة ثورية مرة والى الابد اذا حقق هذه الصفقة فهو لن يضمن الحصول على المعلومات فحسب ، بل ضمن سقوط مناضل ثوري من

ساحة النضال وقد يستمر السقوط والتعاون بعد التحقيق .

٤ ــ المحقق يريد شراء احد المناضلين ليكون اداة بيده لارغام المناضلين الاخرين على الاعتراف والمساس بصمودهم وعلى الاقل اظهاره امام زملائه كنموذج متساقط.

٥ ــ المحقق يهدف الى غاية عامة مفادها التشكيك، تشكيك المعتقلين خاصة والمناضلين عامة ببعضهم البعض واحداث تفسخات فيما بينهم اثناء وجودهم في المعتقل وبعد الاعتقال .

٦ ــ في غالب الاحيان تكون هذه الصفقة صورية من جانب المحقق الذي يريد الحصول على المعلومات عن طريق الخداع الى ان يضمن الحصول عليها وكتابتها والتوقيع عليها .

وهكذا فان هذا الاسلوب من وجهة نظر المحقق يمكن أن يحقق غايات فيما لو تمكن من الذهاب ، بعيدا وسواء أوفى بوعوده او لم يوف كما يحصل عادة فان المعتقل يكون قد وضع في حالة من الصراع والتفسخ ليست قليلة اذا ما دغدغت عروض المحقق عواطفه الفردية وذاتيته الراغبة في الخلاص بأي ثمن .

ان احداث الاثار النفسية الناشئة عن العرض هو غاية بحد ذاتها فان امكن ذهب المحقق خطوات اخرى ، والا فانه سيستمر في المؤثرات النفسية والجسدية بهذا الاسلوب أو غيره او عدة اساليب معا .

المحقق يصور المسألة بشكلها المتكامل امام المناضل: (تعاون معي .. ساكتم كل شيء ... لن اعتقل أحدا .. ولن اخبرا احدا بشيء .. ستخرج .. نعطيك فلوس وكل اساليب الراحة وتصبح صديقا لدولتنا .. ونعطيك مسدس اذا اردت .. تعاون معي .. وسنكتم كل شيء وبالتاليمكنك انتخرج من السجن بطلا ، وتقول لاصدقائك ومسؤوليك انك صمدت في التعذيب ، وتلقيت ضربا وارهابا فظيعا ولكنك تحملته ولم تقل للمخابرات شيئا ..

ونحن لن نعتقل احدا .. فسيصدقوك وتصبح مسؤولا كبيرا معهم ومعنا ونحن ندبر امر اعتقال او مراقبة الاخرين ومن اجل خاطرك لن نعتقل احدا الا اذا طلبت منا ذلك ...) وبهذه الاطروحات وغيرها يهدف المحقق الى تركيز ذهنية المعتقل في مسألة محددة ومشينة بغية التفكير في قبول العرض او رفضه وهنا تنصب ضغوطات ومغريات المحقق الى ابعد الحدود .

لقد سقط بعض من كانوا نسورا في مناخ كهذا وابتذلوا انفسهم غاية الابتذال ، وبعد الاعتراف ينصحه المحقق بالبقاء في السجن قليلا لحين المحكمة والافراج عنه بطريقة شرعية بدلا من طرق تثير الشبهة ، او قد لايحتاج المحقق لمزيد من الخدع ، بل يصفع المعتقل على قفاه ويتركه في الاغلال الى ما شاء الله .

صحيح ان موقف المحقق يختلف ازاء المعتقلين المخلفين فقد تستمر اللعبة بعد انزال المعتقل الى السجن حيث تقيم اجهزة الامن معه اتصالات وتستمر في امتصاصه وتطالبه بالوشايه على زملائه في السجن ، واعطاء تقارير عن نشاطاتهم وطرق تفكيرهم ، وأي معلومات عن انتمائاتهم ونشاطاتهم السابقة او الحالية ، وتتذرع اجهزة الامن بانها بهذا انما تمتحن صدق واخلاص المنكود . وليس مستبعدا أن تقوم اجهزة الامن بحرقه على انه هو الذي وشى بالجميع متبرعا .. ان كل شيء محتمل عدا الافراج عن تلك الحالة التي لم تتكرر الا نادرا جدا وبشكل مذل للغاية حينما تكون التهمة بسيطة وعيارها غير ثقيل.

أما الحالات الغالبة التي تتم فيها صفقات من هذا النوع فهي في العادة تكون ذات اهداف جزئية واسعار محددة سلفا وغير قابلة للوفاء (اعترف بما عندك ... نتفق سوية على مقدار الاعتقال وليكن سنة واحدة او ستة أشهر ومهما حكمتك المحكمة سنفرج عنك بعد قضاء المدة .. ونحن على استعداد لكتابة اتفاقية خطية بيننا وبينك ويوقع عليها الضابط المسؤول ..) بفرض أن احد

الاغرار وقع في الشرك ، فانه يتقيأ بما لديه ثم يلقى به في السجن (كالليمونة المعصورة) . كما يقولون .

أن الجهل وحده ، والجبن والتخاذل هو الذي يمكن ضابط التحقيق من جني شيء من هذا الاسلوب . ان غالبية المعتقلين لا يعطون المحقق فرصة اتباع هذا الاسلوب ويظهرون مقتهم وغضبهم على المحقق الذي تسول له نفسه مساومتهم موجهين له بذلك صفعة اخرى في سياق الصراع بينهم وبينه ، ان هذا الاسلوب في نظر المناضل الثوري هو مس مباشر بالكرامة الوطنية والانتماء الوطني حيث يرد عليه المناضلون غالبا بتوجيه اهانات مماثلة للمحقق ولجمه عن الاستمرار في قيئه القذر ، وبهذا يسقط اسلوب المحقق ويعان افلاسه بطريقة من الطرق .

اما اذا فكر المعتقل بخداع المحقق والتظاهر بانه قبل الصفقة ، ويعطي شيئا ما فان هذا المعتقل انما يعطي المحقق آمالا كبرى بالنجاح والاستمرار في التحقيق حتى يمتص ما يستطيع امتصاصه فتصرف المحقق بالاساس هو خدعة فيجب تفويتها وليس التساوق معها وصفع المحقق بمزيد من مواقف الصمود والصلابة . فخداع المخابرات غير مجدي هنا بل ان نتائجه القاسية محتومة ، لان المخابرات لديها وسائلها الكثيرة للابتزاز كما ان الدخول في لعبة من هذا النوع في غاية الخطورة وتثير الشكوك من رفاق النضال . فهي ورطة كبيرة تبدا ولا تنتهي كما انها استخذاء للعدو اعتراف بقوته والخضوع لها .

ان دخول المحقق في نفسية المعتقل عن طريق الصفقات التجارية ومحاولة شرائه انما هو تعبير عن درجة التفاعل القائمة بين الطرفين في مرحلة من المراحل الذي يعكس في كل لحظة وزن كل طرف ازاء الاخر وتقييمه لدوره ولتفاعلاته ، ولشخصيته اي يعكس صورة الواحد منهم في نظر الاخر ومجموع جوانب الوحدة الجدلية لكل منهم في مواجهة الاخر . هذا الفهم هو الذي شكل نقطة انطلاق المحقق في طرح ما يجول بخاطره وكما قلنا في

البداية فان المحقق يرمي بهذا الحجر بهدف الاصطياد وهذا هدفه عندما يمارس اية اسلوب من الاساليب الاخرى مع فارق أنه يريد ان يمزق هذه المرة ليس من داخل المجموعة المعتقلة او المجموعة المناضلة فحسب وانما من داخل المناضل نفسه ليكون هو بنفسه المخروق والخارق لغيره في نفس الوقت أي ليكون عميلا في صف العدو يستند على وضعه النضالي السابق وهذا اخطر ما في الامر . ان المحقق يريد أن يخرقه ليحوله الى ملاءه قذرة يلقي بنفسه وقذاراته على رفاقه ، يشي بهم ، ويشهد عليهم ، ويساعد المحقق بصورة مباشرة في مهامه ازائهم وبعد ان يقوم بمهمته يلقي به المحقق في كيس النفاية كاي خرقة انتهى من استعمالها ولم تعد تصلح .

وحينما ينزل الى السجن يتذرع بانه لم يستطع الصمود وانه ليس عميلا بل (فقط) منهار .. (مسكين) وما الفرق بين عميل جندته السلطات خارج السجن وآخر جندته اثناء التحقيق ؟ الفرق هنا في الخطورة فالمناضل الذي تجنده السلطات تحت هذا الاسم او ذاك في اقبية التحقيق هو اشد خطرا وخسة ونذالة من الاخر لانه (ينبش من داخل القعة) ولا يمكن ان يريح ضميره المنحط بكلمات المسكنة ولا بد أن ينكشف أمره أن وزن المنهار بهذه الصورة هو وزن العميل تماما ولا يستحق ان يعامل الا هذه المعاملة .

ان اسلوب الشراء لا يقتصر على اجبار المعتقل على اعطاء المعلومات في التحقيق ، بل قد يستدعي المحقق المعتقل ويبلغه أن لدى المخابرات كافة المعلومات التي تدفعها للتحقيق معه وايداعه السجن وهي كذا وكذا وكذا .. على شكل مفاجأة ثم يطرح عليه الصفقة على أن يوافق ويذهب الى البيت ليصبح اداة ثابتة في ايديهم وطبعا خلال ذلك يدلي بكل المعلومات وما هو أفظع وبعدها يطلب الى التحقيق وبكل بساطة يوقع الافادة وما يستتبعها .

قد يفكر البعض ان بامكانه خداع رجال التحقيق ، فما ان يطرحوا بضاعتهم حتى يوافق عليها ، ولكن المحققين لا يلعبون وهم سيستكملوا التحقيق بكل السبل وصولا الى تركيع كامل ، بما يتبعه من عماله داخل المعتقل أو خارج المعتقل ولقاءات وتبادل اسرار ومواعيد وشبارة (×) بجوار البيت تأكيدا على موعد مع المخابرات في اوكارها ومكاتبها ...

ان الثورة ، واي حزب ثوري يرفض ان يدخل احد أعضائه في اي صفقة من هذا النوع مهما كانت الاهداف والنوايا في البداية وان الموقف الثوري الصحيح هو مجابهة اشكال التعذيب والتحقيق وليس تحويل المناضل الى جبان وخرقة قذرة يتعاطى مع العدو كما لو كان صديق ويفشي له اسرار الثورة ويجالسه ويتشاور معه في ترتيبات الايقاع بزملاء النضال !

١١ ـ الحرق السياسي والتشهير

يعتز المناضل بانتمائه وشرفه الوطني بين رفاقه وابناء شعبه ووطنه ، وهو من خلال انتمائه الوطني هذا يجسد نضاله ويدفع التضحية تلو الاخرى تلبية للواجب ، وقد يسلخ المناضل سنوات وسنوات من عمره في معمعان النضال ، وليس اعز على نفسه في نفسه من أن يعترف به رفاقه الذي يناضل معهم ، وابناء شعبه المكافح على أنه في الخط الوطني ، ومناضل من اجل الحرية ... هذا الاعتراف الذي يمكنه من التفاعل في الوسط الجماهيري وممارسة التأثير والتحريض ومستعد لتحمل كل اشكال التعذيب وكل عسف التحقيق بصلابة وشرف . ان المناضلين من هذا النوع يسجلون في اقبية التحقيق اسمى آيات البطولة والصمود ، ويفقئون عيون محققيهم .

غير ان المحقق الجلاد الذي يشتعل قلبه غيظا امام هذا الطود الشامخ والذي لم يستطع النيل منه لا يرمي سلاحه ببساطة ، فقد يكون المعتقل هذا في نظر المحقق ورجال الامن على جانب كبير من الاهمية ، او قد تكون لديهم خطة تخريب معينة يصلح هو ليكون بطلها معتقدين ان الاعيبهم يمكن ان تمر مع اي مناضل .

ورجال المخابرات الفاشيين يستعملون اسلوب الحرق والتشهير بسمعة المناضل الوطني او الافراد مختارين من بين ثلاثة انواع :

١ ــ شخصيات ذوي سمعة وطنية ونضالية عالية: حيث يقوم رجال الامن ببث الاشاعات عنهم بانهم اجتمعوا معهم وتداولوا معهم في امور سياسية واجتماعية وغير ذلك مما يوحي بأنهم متفاهمين مع السلطة ويتظاهرون بعدائها امام الناس فقط .

٢ ــ معتقلين وطنيين لم يدلوا بمعلومات اثناء التحقيق معهم : والامر هنا اكثر اهمية لان الوضع الاعتقالي المنغلق اثناء التحقيق والذي لا يمكن المعتقلين من التفاهم فيما بينهم وتبادل المعلومات او نقلها للخارج ، ولان المعتقل في هذه الحالة يصوغ احكامه من خلال مشاهداته ومسامعه واستنادا لملاحظات بسيطة يبني عليها مايشاء وفقا لقدراته الذهنية . فاذا ما كان بعض هذه الملاحظات او المظاهر التي يشاهدها مدسوسة ومتعمدة فقد يبني عليها تصورات خاطئة تسيء لصموده ولصورة رفاقه المناضلين المعتقلين معه . وكما ذكرنا في مكان سابق فان عملية الحرق والتشويه ممكنة من خلال القليل من المظاهر كأن يوضع المناضل المراد حرقه في موضع يثير الشبهة لبضع مرات دون ان تبدو عليه ملامح المعاناة ، ومثال على ذلك يمكن ان تجلس مجموعة من الضباط العسكريين الذين ليس لهم صلة مباشرة بالتحقيق على طاولة مريحة ومعهم احد المعتقلين الذي يتم استدعائه لاي سبب فيراه

هؤلاء الضباط العسكريين ويتكلمون معه بهدوء في مسائل تهمهم ثم يفسح المجال لزملاء آخرين من المناضلين بصورة متعمدة لمشاهدته في هذا الوضع مع الايحاء لهم بانه يتعاون مع السلطات وانه في جلسته هذه وجلسات أخرى يعبر عن هذا التعاون وها هو يدخن السجائر ويشرب القهوة ويجلس مع عد من الضباط ذوي الرتب العالية بهذا الصدد . . .

أن النماذج من هذا النوع تظل بسيطة ويمكن أن يفسرها المعتقلون لبعضهم البعض مع الايام ، وحتى يمكن ان يكون لديهم فكرة مسبقة عن سلوك السلطة هذا . . فوقوف مجندة الى جانب المناضل اثناء التحقيق ، أو اخفاء اسمه تماما اثناء استجواب الاخرين ، أو الايحاء لهم بانه هو الذي وشى بهم قبل الاعتقال ، أو حتى الايحاء بأن احدهم (دون ذكر الاسم) متعاون ويقدم كل المعلومات اللازمة . . كل هذه النماذج ممكن تجنب آثارها مع انها في بعض الاحيان يمكن أن تحدث الخلل المطلوب .

غير أن هناك نماذج اكثر خبثا يعبر عنها رجال التحقيق من خلال فرص افضل تعطى لاحد المعتقلين في التحقيق في المعاملة ، واسقاط بعض التهم التي يكون هو قد اعترف بها وعدم ادراجها في لوائح الاتهام . أن هذا السلوك المقصود يثير التساؤلات حقا ، وحول مسألة التهم الموجهة نفسها من الممكن أن لا يكون المناضل قد اعترف ببعض التهم وبالتالي لا توجه له في لائحه الاتهام ولكن السلطات تلجأ الى الايحاء بانه قد اعفي منها عمدا من قبل المخابرات لاسباب معينة مما يوحي بوجود تعاون متبادل بين الطرفين .

لكن الاكثر خطورة في عمليات الحرق ، ان تعتقل مجموعة مناضلين ويجري بعد فترة قصيرة الافراج عن احدهم رغم وجود شواهد ضده دون الافراج عن الاخرين . . ومهما يكن هدف المخابرات من هذه العملية التي قد تكون طعما او استكمالا لخطط تتعلق بعمل الحزب

ومناضلين فان المحققين والمخابرات لن يتورعوا عن الايحاء بانه تم الافراج عنه لاسباب غامضة توحي بتعاونه مع رجال التحقيق والامن مستكملين عملية التشويه هذه في قريته او مدينته عن طريق الاشاعات التي يطلقها عملاؤهم

وليس غريبا أيضا أن يجري التحقيق مع جميع افراد الخلية او المجموعة باستثناء واحدا يبقى في الزنزانة لفترة ثم ينقل للمعتقل دون اية تحقيق بينما الباقين يتعرضون لكل اصناف التعذيب .. أن هذا الوضع سيثير ليس شبهة زملائه فحسب بل وشبهة كل المعتقلين الاخرين مما يجعله في وضع لا يحسد عليه من الصراعات النفسية، والنبذ والهمس والتشهير ويبقى في هذا الوضع الى أن يصبح ضعيفا وهشا حسب تقدير المخابرات ثم بعدها يجري استدعاؤه للتحقيق معه . وليس من المستبعد أن تطلق المخابرات ومن خلال عملائها سيلا من الاشاعات حوله واعمال المضايقة له ايضا .

أن عملية التشهير والتشويه هذه شديدة التأثير وقد تعرض لها العديد من المناضلين الصامدين الذين اودعوا السجن الاداري والذين سلطت عليهم جهود العملاء بالاضافة الى قيم متخلفة في السجون وخاصة سجون التوقيف مثل سجن غزة والخليل ورام الله وجنين ونابلس وطولكرم . تلك السجون التي حصل وان تعرض فيها معتقلون أداريون لاضطهاد قاس وتشهيرات وتشويهات أمنية واخلاقية فبرزت ثلاث حالات جديرة بالذكر حيث قام أحدهم ونتيجة للمعاناة والضغط القاسي ، قام بطلب مقابلة المخابرات وعاد من عندهم يحمل على كتفة العديد من التهم الثقيلة التي اوصلته للسجن المؤبد ، وبالرغم من أن هذا السلوك غير مبرر الا أن الهدف من طرحه تبيان سلوك المخابرات وعملائهم ازاء المناضلين الذين يرغبون في تشويههم .. يوجد حالتين اخريين احدهم وقف وسط الغرفة مدافعا عن نفسه ليؤكد بانه مناضل عريق ونشيط وفعل ما لم يفعله غيره وان خليته تعرف ذلك ولكنه أثبت

صلابته في التحقيق بالقياس لمعظم المعتقلين الموجودين في السجن الذين لم يمسكوا السنتهم .. وعلى الاثر استدعي للتحقيق لمدة ثلاثين يوما اخرى سجل فيها صفحات اخرى من البطولة والصمود والتحدي للمخابرات والمشوشين معنا .

أما الحالة الثالثة الجديرة بالذكر فان احد المناضلين وبعد حملة من التشهير والتشويه والتساؤل والهمس والمضايقة المستندة على خطة المخابرات وعملائهم من جهة والتقاليد المرعية في السجن من جهة اخرى والتي يصوغها ويوجهها جماعات متخلفة سياسيا وحضاريا ، بعد حملة كهذه اضطر لمقابلة احد المناضلين المسؤولين في السجن .. وشرح له معظم نشاطاته النضالية مع الادلة والبراهين كاشفا بذلك اسراره على الاخرين وطلب أن يعيش في كنف هذا الفصيل مصمما على الاستمرار في التحمل مهما كانت النتيجة . وبالفعل كان عند قوله ومضربا للمثل

في التحقيق تحصل مفارقات كثيرة .. فقد يصادف أن تقع بين ايدي المحققين بعض الوثائق او الرسائل ، أو يتمكنوا من الحصول على خاتم رسمي لاحد التنظيمات ، أو يكونوا بصدد التفتيش في مكان ما لغاية معينة فيجدوا شيئا اخر على صلة بالمجموعة قيد التحقيق ، أو يقوم احد المعتقلين بالوشاية عن مخبأ خاص بالحزب أو يقدم احدهم بالادلاء بمعلومات يعرفها وليس لها اي صلة بمجرى التحقيق نفيد المخابرات في اعتقالات أو مداهمات أو التعرف على مخابيء تدخل الى جانبها عمليات الصدف .

هذه المفارقات تشكل مناخا جيدا وفرصة ذهبية للتشهير باحد المناضلين وحرقه على انه هو الذي قدم لهم هذه الاشياء أو قدم لهم المعلومات المطلوبة ، ويقوموا بكل ما يلزم من ايماءات واشاعات حوله هنا يكون الدليل المادي موجود ، والمخابرات تصرح أو تلمح حول فلان مما يجعله محطا للهمس أو التريح أو الاتهام والمحاسبة اي

بعبارة اخري قتله من داخله وداخل تنظيمه نفسه نيابة عنهم بعد أن عجزوا في تركيعه ودفعه للاعتراف .

يمكننا ان نتصور مناضلا صلبا وعنيدا قدم نفسه وجهده واعصابه على مذبح الثورة ، ونجح في اهم امتحان مواجهة في أقبية التحقيق ، وخرج معتزا بنضاله وصموده وبطولته ، ثم يلاحظ من حوله الهمس والتشكيك ومضغ الكلام من زملائه الذين انهار بعضهم جزئيا او كليا أو حتى لو كانوا أشد صمودا منه .. ماذا عليه ان يفعل ؟ كيف يستطيع الاثبات لهم بانه لازال في طليعة الصف الوطني وهذا مهم جدا له ، لنفسيته ، لاستمرار صموده ، لاستمرار ثباته وقناعاته ، بل لاستمرار سعادته النضالية .. ناضل قبل الاعتقال ، ولم يختم مرحلة من مراحل نضاله بالسوء بل بالبطولة والتحدي .. ان كثيرا من العوامل ستتفاعل بداخله وكثيرا من اشد واقسى أنواع التناقضات ستعمل على تمزيقه وهذا هو هدف السلطة. اضعافه من داخله بطريقة مجرمة . ان عليه ان يواجه امتحانا آخر .. الصمود .. لكن هذه المرة ليس أمام المحققين بل بين زملائه ، بين رفاق دربه وامامهم .

ليس هذه الحالات مجرد تصور ، بل في تجربة الاعتقال الفسطيني الكثير من المناضلين العتاه الذين قادهم رفاقهم الى (الدورة) وحققوا معهم حول فرضية عمالتهم مع السلطات ، بل حققوا معهم بمنتهى القسوة ولما يكن تحقيق المخابرات قد تبددت اثاره عن جلودهم . ويزداد الامر سوءا حينما لا تكون عملية التحقيق هذه منضبطة ، وما يدور فيها مكتوم ، او حينما يتبرع احدهم للمشاركة في التحقيق ولا يكون هو بنفسه نظيفا كما حصل مرات عديدة في سجن الخليل ورام‌الله وطولكرم وجنين ونابلس وبئر السبع ، وكفار يونا ، يمكننا أن نتصور معا ما يجول في خاطر هذا المناضل وهو يعاني من هذه القسوة .. ماذا يقول لهم .. ايبوح لهم بمكنونات نفسه ليكون سره الذي يدفنه فقط في اعماقه مباحا لعدد آخر

غير مضمون الصلابة ؟ أم يستمر في الكبت والغور الى الداخل حتى خطر الانفجار والتحطيم .. أم يطلب العون من شرطة السجن ضد زملائه وليكن ما يكون ، حيث يجابه هناك تحقيق السلطة الذي هو في نفسه افضل الف مرة من أن يسأله زملائه مجرد سؤال ؟

هو صمد في تحقيق المخابرات ، وما عليه الا ان يتحمل هذه المعاناة القاتلة بصبر وشجاعة فالبطل الثوري يمكنه ان يجسد بطولاته تحت كل الظروف وخاصة انه يدرك ان اساس هذه اللعبة هم المخابرات الذين هزمهم شر هزيمة في معاقلهم .

ولدى المخابرات في هذا الصدد اسلوب جديد ظهر بعد عام ٧٨ مع ظهور اقسام العار في السجون ، تلك الاقسام التي تضم لفيفا من العملاء والمتعاونين والمشاقطين الذين نبذتهم السجون وجمعتهم سلطات الاحتلال في اقسام خاصة يطلق عليها المناضلون اسم (أقسام العار) أو (قسم العصافير) في هذه الاقسام تجري في احيان كثيرة عمليات تحقيق مساعدة للمحققين عندما يفشلون في انتزاع الاعترافات من المناضلين .. حيث يدفع المحققين بالمناضل الصامد الى اقسام العار . فيستقبله (الثوار) على انهم هم قادة السجون ويدعون باسماء ابرز المعتقلين القياديين في السجون ، وبعد أن يتداولوا معه الحديث، ويطمئنوا انه بلع الخازوق وصدقهم يقوم احدهم بالمناداة على الشاويش مثلا طالبا اخراجه من بينهم لانه (عميل) ولا يستطيعوا تحمله ، وبالمناداة على الشاويش او بدونها، يبدأون بضربه بقسوة متهمينه بالعمالة .. بفرض ان هذا المناضل لا يعرف شيئا وليس لديه فكرة مسبقة عن اقسام العار هذه .. ويضعونه في الزاوية او في الدورة ويبدأون بالتحقيق معه .. ما هي العوامل والمؤثرات الداخلية والخارجية التي تتفاعل في نفسه ؟.. قد يلجأ الى الدفاع عن نفسه مثبتا انه مناضل ، ليس هكذا فحسب بل مناضل صلب وشجاع ، وكان نشيطا جدا قبل اعتقاله .. هنا

تؤخذ اقواله وترسل جاهزة للمخابرات حيث يواجه بهـا ويخضع لامتحان جديد فاما الانهيار واما الصمود. وخاصة انه يتعرض للصدمة وراء الصدمة ، ويصيبه التشويش باقواله ولعدم معرفته بطبيعة اقسام العار ، سوف لن يجد تفسيرا لما حدث ، فالفكرة السابقة لديه أن المعتقلين الفلسطينيون في السجون هم ابطال ومثال للتضحية والوطنية والوفاء ، ويجابهون كل يوم وضعهم الاعتقالي وسلطات القمع ببسالة شرف ليس لها مثيل .. هـؤلاء كيف غرروا به ؟؟؟!! .

أن اقسام العار هي مستنقعات للدنس تمثل امتدادا للاضطهاد الصهيوني بأيدي فلسطينية المولد ، تكمل كلما استطاعت ما عجز الاحتلال عن استكماله .. انها اقسام العار والقذارة ، ترتدي أمام المناضلين ممسوح الثورة ، ليساعدها ذلك على ارتكاب قذاراتها . ان قذاراتها هذه ما هي الا صورة من صور قذارة ودنائة الاحتلال الهمجي العنصري .. هذه الاقسام التي بدأت تنكشف حقيقتها بشكل متزايد اخذت تواجه هي ايضا صمود وبسالة المناضلين الذين يتعرضون اثناء وجودهم فيها لابشع انواع العنف الجسدي والنفسي والخلقي ، والمحاصرة والمضايقة ، وليس لهم من سلاح الا الارادة والصبر . أن اقسام العار هذه بوصفها امتداد لاجهزة السلطة القمعية وافراز متعفن لها ، تنوب عن أجهزة القمع الرسمية وتمارس الاعمال القاشية باسمها ، مخفية ورائها عنف السلطة ذاته تلك السلطة التي يمكنها احيانا ان تتظاهر بالبراءة . فهي (السلطة) ترسل المناضلين الصامدين لهذه الاقسام كي يواجهوا مصيرهم حيث يتظاهر الدنس المتساقط هناك بانه وجه الثورة ويطالبون الموفدين الصامدين بالتقارير والمعلومات مرة بعد اتهامهم بالعمالة ، ومرة بحجة أن هذه التقارير مطلوبة رسميا ، ومرة بحجة انهم يريدون على الفور ارسال

الاخبار والمعلومات والمطلوبات للقيادة المحلية حتى تأخذ حذرها من كذا وكذا .. وهي تحيط سلوكها هذا بكل انواع الارهاب والقسوة والحيلة . أما اذا انكشف أمرهم بسبب معرفة المناضل بهذه الاقسام فانهم يمارسون التحقيق لفترة كما يمارسه رجال السلطة أو قد لايمارسوا شيئا مغطيين خزيهم وعارهم باتهامات للثورة .

لقد تعلم المناضلون كيف يواجهون أوباش أسطبلات العار هذه كما تعلموا مواجهة سلطات التحقيق ، وفي ميدان عمليات التشهير والحرق يحمل المناضلون سلاحهم ايضا ويواجهون .

٣ — اما النوع الثالث الذي تستخدم ضده عمليات الحرق والتشهير فهم اشخاص او مناضلين تنتقيهم السلطة ليكونوا كبش فداء تغطي بهم على عملاء حقيقيين .

ويجري انتقاء هؤلاء الضحايا أما من بين المناضلين الصامدين في التحقيق أو اشخاص على الهامش تحملهم سلطات التحقيق حمل الاخرين وبنفس السبل والوسائل المذكورة أعلاه وتشير لهم بالبنان على انهم متعاونون معها، وانهم متساقطون بالخفية ، وهم الذين وشوا ، أو تساقطوا وقدموا كل المعلومات التي حصلت عليها اجهزة الامن مخفية بذلك الوشاة الحقيقيين والمتساقطين الحقيقيين وهذا قد يكون اثناء التحقيق أو في المحكمة وعلى مسمع من ذوي المعتقلين .

وقد تستمر عمليات الحرق كما ذكرنا في السابق الى خارج السجن حيث تكرر سلطات الامن إستدعاء الشخص المعني الى مكاتبها بصورة فوق عادية ، أو يقوموا بزيارته في البيت مستغلين عادة الكرم العربية لدى البعض او الجهل والخوف لدى البعض الاخر فينشأ عن زيارات كهذه القيل والقال وان فلان يستقبل المخابرات في بيته وكل ما تحويه عبارات كهذه من ايحاءات وتلميحات بعلاقته الودية معهم وارتباطه بهم كأي عميل . ولو قامت السلطات بعد فترة بالقاء القبض على احد السكان أو

كشف سر من الاسرار الوطنية فان اصابع الاتهام في الغالب ستوجه للبيوت التي استقبلت المخابرات .

ان هذا البعض من الناس لا يدرك ان بامكانه طرد رجال المخابرات وعدم استقبالهم ، انه يعتقد ان هؤلاء مادامو سلطة رسمية فلهم الحق في استدعاء المواطن في اي وقت يشاؤوا وان لهم الحق زيارة بيته كلما رغبوا ، وبسبب قانوني وبدون سبب . وبالطبع فان هذا اعتقاد خاطيء وان كل من لدية احساس وطني فلديه ايضا شعور عدائي ضد هؤلاء الاوباش وليس اسهل من طردهم وفضحهم حينما يحاولوا الاقتراب من البيت الا لسبب قانوني كأن يكونوا قادمين لاعتقاله ويمتلكون أذنا بذلك .

انه لا يحق لرجل المخابرات زيارة المواطنين في بيوتهم رغما عنهم ، كما انهم لا يستطيعون فرض انفسهم على احد دون ان يتجاوب معهم . ولا يجوز ان تثور الشهامة التقليدية لدى رؤيتهم أمام البيت ودعوتهم لشرب القهوة كأي ضيوف .

ان اساليب الحرق هذه هي دلالة على فاشية ولا اخلاقية الاحتلال الذي لا يستطيع تعزيز استمراره واحتلاله واضطهاده الا بمزيد من الاضطهاد والظلم والعنصرية والفاشية .

لقد ادت اساليب الحرق والتشهير بالفعل الى عدد من الازمات في السجون ليس فقط في حدود الافراد الذين توجه لهم الشائعات والهمس المقصود وغير المقصود ، بل ايضا شملت العلاقات بين المنظمات السياسية في السجن : فان عملاء مدسوسين يتسترون بانتماء للمنظمة (أ) مثلا يوجهون دسائسهم ضد مناضل ينتمي الى المنظمة (ب) ويفتعلون ما يستطيعوا من الاشاعات والمشاكل التي من شأنها أن تؤزم العلاقة بين المنظمتين وتخلق بينهما جوا من التوتر والعلاقات السلبية ، وقد ثبت بالتجارب الملموسة أن معظم المشاكل التي حدثت بين المعتقلين كان

ورائها عملاء يظهرون حماسهم الشديد للمنظمة (أ) التي يطاهرون بالانتماء لها . وفي معتقل بئر السبع كان خليل بوعريش الملقب «مظلوم» بطلا للعديد من المشاكل ، حيث ثبتت التحقيقات فيما بعد انغماسه في وحل العمالة ، اما في سجن الخليل فقد ظهر «سبع الكتلة» كبطل لهذا النوع من المشاكل لفترة طويلة الى ان تم كشفه واعترافه بنذالته وعمالته بعد أن كان يظهر الكثير من الحماس لاحدى المنظمات الوطنية ولايهاب الاشتراك في عمليات التحقيق مع العملاء . وفي الارشيف عشرات من الامثلة الملموسة

ان عمليات التشويه والحرق لا تطول اناس معينين فحسب ، بل كل من يمكن ان يشكل هدفا لذلك وتتوفر اي درجة من الامكانيات لتوجيه هذه الاساليب ضده ، ويشكل المتعاونون مع الاحتلال والمندسون في صفوف المنظمات عنصرا هاما في اثارة الشكوك والنزاعات والمشاكل . ولم يتورع زبانية هذا الاسلوب في بث الشكوك والتشهيرات ضد معتقلي احدى المنظمات الحزبية الفلسطينية جماعة وافرادا ، فهذا متعاون مع سلطات الادارة ، وهذا متعاون مع سلطات المخابرات ، وكلهم في خدمة (اسرائيل) .. هكذا كانت تدور الاشاعات والاقاويل المدعومه بالتهديد والارهاب .. يا للخساسة . فان مناضلين قضى الواحد منهم من عمره في النضال بمقدار سني حياه هؤلاء الاوغاد باكملها ويزيد ، ولكنهم وبخطة مدروسة على ما يبدو مارسوا ضدهم كل انواع المضايقات والاشاعات والمقاطعات ونجحوا لمدة طويلة الى ان ادرك مسؤولي منظمات السجن عقم ، ولا وطنية هذه الاساليب ووضعوا لها حدا . حصل ذلك في سجن الخليل وطولكرم وجنين . وحصل شيء شبيه في سجن بئر السبع...هكذا تستمر ملاحقة العدو للمناضلين في سجونهم وخارج السجن بغية توتير نفسياتهم واعصابهم دون جدوى .

لقد شكلت تجارب عديدة ماضية ، وعيا كافيا في

خلفيه المناضلين في السجون وخارجها واصبح مثيروا هذه الشكوك هم المستهدفين .

وعلى العموم فان لدى المخابرات اسلحتها لاثارة البلبله في نفوس المعتقلين وتشويش حياتهم ونفسياتهم غير أن هذه الاسلحة ليست فعالة دائما الا في حالات الجهل وعدم الروية . ان ادراك المناضل وحتى المواطن العادي لهذه الاساليب سوف يقلها منذ البداية .. فان عرض صورة لمناضل يقف الى جواره ضابط مخابرات امام مقهى او مطعم او حانوت او في الشارع لا يعني بانهم اصدقاء ؛ لان بامكان ضابط المخابرات أن يقف الى جانب احد المناضلين او (المشبوهين) لدى السلطات في اي مكان يصادفه فيه ويتبادل معه بعض الاحاديث كان يسأله عن اسمه وعمله مع ابتسامة ، مع وجود مصور يلتقط مجموعة من الصور لاستخدامها في التشكيك والحرق في الوقت المناسب ، وحتى هذا ممكن في السجن كان يتوده رجل المخابرات الى جانب شجرة او حديقه ورد وهم فتاه ويتبادلون بعض الحديث ، والابتسامات تعلو الوجوه ، ومن مكان خفي يقوم المصور بالتقاط الصور ومن ثم عرضها على معتقلين اخرين بطريقة من الطرق ؛ بالصدفة المتعمدة مثلا .. واذا كنا نعرف امكانية هذه الاحتمالات فانها لن تثير الوهم في نفوسنا .

ومن المهم الى ابعد الحدود ان لا يتداول المعتقل الاحاديث عن مدى اعترافاته ومدى ما أخفى من معلومات مع زملائه في السجن لان هذه الاسرار تخصه وحده ولا يجوز بحال من الاحوال البوح بها لاحد لا في الزنزانة ولا في السجن . بالضبط كما انه لا يجوز تداولها مع احد قبل وبعد الاعتقال فالسرية المطلقة هي عماد العمل النضالي السري وبسبب هذه الحقيقة بالذات تقوم سلطات الاحتلال بالتركيز الشديد على مطاردة العمل السري عن طريق اجهزة المخابرات وعدد هائل من المجندين باي درجة كانت .

(ليس المهم ان اثبت انني من خيرة المناضلين اذا ما تعرضت لحملة تشوية وتشهير وحرق بل المهم ان يستمر صمودي وحفظي لكنوزي الثمينة في صدري المغلق) هذا هو الرد الرئيسي على حملات التشهير وسوف تثبت الايام سلامة وصحة موقفي دون شك . وما دام للحزب أو المنظمة قيادة قادرةعلى فرز الغث من السمين فسيأتي اليوم الذي يعاد فيه الاعتبار وسيفهم الرفاق كيف كنت صلبا . وبالامكان من خلال الصبر ، والفهم العميق للمسألة ، شرحها للمعنيين بطريقة تحفظ الكرامة بعيدا عن تعكير المزاج .

أن جميع من هم قيد التحقيق مطالبون بامثال هذا الاسلوب عندما يأتي دورهم لاستخدام نتائجه عليهم ، مجموعة من خمسة مناضلين مثلا اوحت لهم اجهزة التحقيق بأن احدهم متعاون ، لماذا ؟ بقصد التأثير على صمودهم هم ، على صمود كل واحد منهم ، وبالتالي وبعد أن انكشفت اللعبة لم يبق سوى اسقاطها وفعلا اسقطت.

١٢ -- جهاز كشف الكذب

مع ان هذا الاسلوب يمكن ان يندرج تحت الاساليب العصبية الا انه ايضا وبسبب كونه نوعا من اللعبة ذو آثار نفسيه يهدف الى الخداع الذي يسبب الزعزعة والمحاصرة وكأن الامر أنتهى ولم يبق سوى الاعتراف ..

ما هو جهاز كشف الكذب : ليس المقصود هنا وصف تركيبه الميكانيكي بل دوره في التحقيق . فبالرغم من ندرة استعماله الا انه موجود ومن ضمن امكانيات اجهزة التحقيق .. وهو عبارة عن آلة مركبة وظيفتها

قياس خصائص ونشاطات فيزيائية في الجسم مثل درجة الحرارة ، الضغط ، دقات القلب .. انه كاي جهاز طبي ولكنه يستعمل بناء على تقديرات تفيد بأن المقاسات المذكورة ستتغير اذا تعرض الانسان للاحراج او الارباك او حصلت عنده اثارة داخلية معينة .

مثلا الخائف تزداد دقات قلبه ، ربما ترتفع درجة حرارته ويتصبب عرقه ويزداد ضغطه .. هذه الصفات الانسانية الطبيعة تستغل عند الاسير بعد الايحاء له بانه سيوضع على جهاز كشف الكذب الذي سيبين ما اذا كانت اقواله صحيحة أم كاذبة فيقاد المعتقل الى المكان الذي يوجد به هذا الجهاز وهو عادة موجود في مراكز رئيسية أو عيادات ومستشفيات . ويهيأ قبل واثناء الرحلة بما يلزم ثم يوضع على الجهاز ويتم وصل اطرافه بالاجهزة المتعددة وهي ١ — جهاز قياس ضغط الدم ٢— جهاز قياس دقات القلب ٣ — جهاز قياس الومضات العصبية والعضلية في الاصابع ٤ — جهاز قياس الافرازات العرقية ٥ — جهاز قياس الحرارة واختلافات الحرارة ٦ — جهاز قياس التنفس .

وعلى فرض أن المعتقل لا يعرف خصائص هذا الجهاز ، فانه سيتعامل معه على انه جهاز سحري يكشف من خلال الحديث الدائر ما هو صدق وما هو كذب . ان المعتقل بسبب جهله بهذا الجهاز سيعتقد انه يكشف الافكار وخفايا النفس وهكذا يوحي له رجال التحقيق ، والفني المتخصص على الجهاز بعد ان يكون تلقى العديد من التهديدات بوضعه على جهاز فحص الكذب عندما كان ولا يزال في اقبية التحقيق الاول . انه مهيأ نفسيا لملاقاة شيء غامض ، سحري وخطير في نفس الوقت هذا ما يجول بخاطره دون ان يدري أن في معظم بيوت الناس اليوم موازين حرارة لقياس حرارة اطفالهم ، وان في كل عيادة طبية جهاز لقياس الضغط ، ومع كل طبيب سماعة لفحص نبضات القلب وكل مستشفى به اجهزة من هذا

النوع ، انه يعتقد ان هذا الجهاز خاص فقط بالتحقيق وهو عبارة عن حفارة تنقب عن ما في باطن النفس وعلى ذلك فليس مستغربا ان يبادر احد الاغبياء لتفضيل الاعتراف دون الذهاب لهذه الالة الكاشفة السحرية . وهذا هو هدف المحقق بالاساس من تهديداته .

ماذا سيفعل الجهاز ؟ انه سيقيس هذه الظاهرات الفيزيائية في الجسم كما ذكرنا وليس اكثر بحال من الاحوال ، ان الجوهر في كل هذه اللعبة ، الخدعة ، يكمن في ان المعتقل بعد وصول جسمه بالاجهزة ، وغالبا ما يتم ذلك وهو ملقى على ظهره أو واقفا وتتشابك امامه الاسلاك ومن حوله ، بعد وصله بالاجهزة تتم القياسات المذكورة سالفا ، ثم توجه بعض الاسئلة منها اسئلة عادية جدا عن اسمه ، عمله تعليمه ، ثم يسأل اسئلة اخرى عن انشطته ، وعن مسائل اخرى تتعلق بنضاله وانتمائه ونشاطه وخلال هذه الاسئلة تقوم الاجهزة باستمرار بتسجيل القياسات التي يجري فيما بعد دراستها ولو بصورة شكلية على الاقل مع الافتراض ان بعض الاسئلة ستثير المناضل او تثير اعصابه او تسبب له الحرج والضيق وغير ذلك من المؤثرات المفترضة مما يؤدي الى درجة من الاختلاف في عمل اجهزة الجسم وهرموناته وبالتالي تظهر قياسات النشاط الفيزيائي بصورة متذبذبة .

من المفترض ان بعض الاسئلة لا تحدث اثارات وانفعالات داخلية في الجسم ، وان بعضها ستحدث درجة من التغير في عمل الاجهزة ، من المفترض ان الاسئلة ذات المساس بالقضية قيد التحقيق ستؤثر في درجة ثبات واعصاب المناضل اذا فوجيء بها وان بعضها الاخر لا يؤثر فيه .

من المفترض أن الاسئلة ذات المساس بالقضية ستؤثر وبالتالي تتغير القياسات، وهذا ما يمكن ان يستعمله المحقق كذريعة يجابه بها المعتقل . غير انه في غالب الاحيان ستتأثر القياسات حتى لو كانت الاسئلة عن

الحب والطعام والعمل مما يجعل ثقة المحقق بالنتائج واهية جدا . لكن من المعقول ايضا ان يجيب المعتقل على جميع الاسئلة بكل انواعها دون ان تهتز له قناه ودون ان يشعر بأي خوف خاصة بعد ان يعرف سر هذا الجهاز (السحرى) ، ولكن المحقق سيصر على ان الجهاز كشف عن انه كاذب ولكن هذه المرة بشكل خجول (لان الجهاز اكتفى بالاشارة الى كذب الحديث ولم يقل ما هو الصدق) ! .

ان المحقق سيصر دائما على القول بأن الجهاز كشف بأن المعتقل كاذبا والمعتقل يقول بينه وبين نفسه على الاقل .. ليكن .. ولكن هل يعرف الصحيح .

كيف نفشل عمل الجهاز عن قصد : —

من معرفتنا لشروط عمله يمكننا الاخلال بها رغم انف خبير الجهاز والمحقق .. فالجهاز يعمل ويقيس وحتى تكون قياساته دقيقة جدا يتوجب ان يقف ، او يستوي المعتقل ساكنا تماما وينظر في اتجاه واحد فقط ولا يحرك اي جزء من اجزاء جسمه ، وتطرح عليه الاسئلة ويجيب عليها في الغالب بكلمة .. الجهاز يعمل باستمرار ويقيس ما انيط به بمنتهى الدقه ويسجل اي تغير مهما كان طفيفا حتى درجة الافرازات العرقية مهما كانت غير ملحوظة . ويرسم خطوطا معبرة عن القياسات على شريط من الورق ، وعندما يتلفظ المعتقل بكلمة (لا) كاجابة على اية سؤال فان الجهاز يسجل وتظهر التغيرات . فاذا التزم المعتقل بالهدوء والسكينة تكون تسجيلات الجهاز دقيقة الى حد معقول وبالتالي تظهر التغيرات التي تشير الى التوترات وبسبب اي سؤال كانت حسب التريب المعد سلفا .. اما اذا قام المعتقل بتحريك جسمه او اجزاء منه او افتعال اية حالة نفسية داخلية فان التسجيل الذي

ينشأ سيظهر في اعين الخبير مشوشا فقد يظهر اختلاف في الضغط لدى سؤاله عن عمل عادي قام به كان يكون تناول وجبة طعام في وقت من الاوقات . وبمعنى آخر ولو نظرنا من زاوية الاعتقاد بصحة تقديرات الخبير والمحقق لنتائج القياس فانه يمكننا ان نجعل الجهاز يسجل ما يخالف رغبات الخبير بان نبذل جهدا ما بدلا من السكوت ، او نتذكر اشياء تجلب الراحة او تثير الاعصاب على هوانا وهذا بالتالي يؤثر على عمل الاجهزة الجسمية فتكون الاجهزه الجسميه قد تلقت اكثر من مؤثر واحد مما يجعل فحص القياسات ودراستها مشوشا ولا يعطي النتيجة المطلوبة .

علما بانه مهما قلنا فان المحقق سيواجهنا بنتائج الفحص وكأنها دليل مادي جديد ... فهذه الاعيب قد تجدي مع البعض اذا كانوا جهلة فقط .

افترضنا في السابق ان المعتقل الذي اقتيد لجهاز كشف الكذب كان جاهلا بهذا السر ، اما اذا كان عارفا وادرك المحقق ذلك فانه لن يقوده اليه ، اما اذا اعتقد المحقق انه من الممكن ان تنطلي الحيلة على المعتقل فسيقوده اليه اي انه سيقوده الى حيث يمكن للمناضل ان يسجل تفوقا جديدا وموقفا تيئيسيا آخر عند المحقق. اي ان هذه الاضحوكه لا تستخدم الا مع البعض فقط.

ان افشال هذا الاسلوب ممكن بكلمتين ومنذ البدا ، فحينما يعد المحقق العدة للذهاب لمكان الجهاز ويأخذ في تهيأة المعتقل لذلك ، بامكان المعتقل ان يسخر من المحقق ويشعره بانه يعرف هذا الجهاز ولا يهتم له فهو ليس اكثر من جهاز طبي ، اما ان قاده اليه فان كل انسان بامكانه ان يزيد سرعة تنفسه كيفما يشاء مما يربك مخطط المحقق مثلا : شخص (س) من الخليل يوضع على الجهاز يسأله المحقق هل انت من القدس ؟ الجواب لا (في جميع الاحوال الجواب لا) هذا السؤال والاجابة عليه لا تثير اية توترات غير عادية . ولكن بامكان المعتقل اثناء الاجابة

تحريك قدمه ، وزيادة سرعة تنفسه واحداث اي شيء يسبب التوتر فتكون نتيجه القياس نفس درجه قياس ناتجة بعد سؤال آخر مثير .

قلنا أن جهاز كشف الكذب قليل الاستعمال ، بل هو غير منتشر وذلك لان كل استخدامه يعتمد بالدرجة الاولى على الخداع والتضليل المبني على جهل المعتقل بطبيعة هذا الجهاز والية عمله ، ومع ذلك يكثر التلويح باستخدامه ، ولكن متى ؟ ١ ــ في الحالة التي يعتقد فيها المحقق ان لدى المعتقل فكرة مسبقة او شكلها له هو تفيد بأن استخدام هذا الجهاز سيكشف الاسرار المغلقة .

٢ ــ في حالة ان المحقق يسعى لمحاصرة المعتقل ويؤكد له بأن اقواله غير صحيحة ، ومنافية للحقيقة وانه مستعد لفحصها بجهاز كشف الكذب ، ثم التهديد بانه اذا ما كشف الجهاز كذب المعتقل فان عليه ان يدلي بالحقيقة او يستمر التعذيب مما يفترض انه ايحاء للمعتقل بأن التحقيق لن ينتهي دون الاعترافات ، ما دام المحقق لا يثق باقوال المعتقل .

الحالة الاولى لا تزيد عن كونها تهديد فارغ فكما ذكرنا فان الجهاز ليس آلة سحرية قادرة على كل شيء وحتى لو استخدمت فلن تجدي نفعا . اما الحالة الثانية فاساسها افتراض لدى المحقق بأن المعتقل يريد اقناعه بصحة ما يقول وان المعتقل مهتم جدا باقناع المحقق وكان المسالة كلها معتمدة على صحة المنطق . في هذه الحالة يقوم المحقق بتعميق توجهات المعتقل احيانا ويهدده باللجوء الى جهاز كشف الكذب وقد يقوده اليه فعلا .

ان كل عمل المحقق يقوم على اساس صياغة فرضيات عن وضعيته وحالة المعتقل ، ومن المناسب اذا قدنا المحقق لتكوين فرضيات معينة عن حالتنا ، ان نقوده بعد وقت الى تكوين فرضية اخرى يفضل ان تكون معاكسة او تحافظ على الصورة الافتراضية التي لديه على اساسها يفكر باختيار هذا الاسلوب او ذاك مما يجعله يختار

الاسلوب غير المناسب وهذا ينطبق على سلوك المحقق عندما يفكر باللجوء الى جهاز فحص الكذب .

ان أفشال هذا الاسلوب المحاط عادة بهالة مضخمة في متناول يد كل معتقل مهما كانت درجة وعيه ، ومهما كانت صلابة انتمائه ومن اي نوع من المعتقلين ومهما كانت درجة التهيأة التي وصل اليها التحقيق ، ومهما كانت الاساليب المتبعة قبله .

١٣ ــ التنويم المغناطيسي

لم يحدث من قبل أن اتبع هذا الاسلوب ، بل انه نادر الاستعمال في جميع بلدان العالم وذلك لان المنوم مغناطيسيا يتصرف لا وفق ارادته ووعيه ، بل وفق ارادة المنوم هذا أولا . وثانيا أن التنويم المغناطيسي ليس مطلقا في ارتباطه بالمنوم ، بل يمكن أن يزول خلال التنويم لاي سبب كان وخاصة اذا ما اثار المنوم مسائل حساسة بالنسبة للمنوم . ثالثا اذا ابدى المنوم استعداده لفعل شيء أو قول شيء كاستجابة اثناء التنويم فان الامر يختلف بعد التنويم . رابعا لا بد ان تكون لدى المنوم معرفة دقيقة جدا وسلفا بكل ما لدى المنوم والاماكن التي يرغب في البحث فيها عن اشياء وممتلكات . واذا كانت لديه هذه المعرفة فليس من داع لاي تنويم في هذه الحالة . خامسا . أن التعبئة التي يمارسها المنوم على المنوم والتي تهدف الى اقناعه او ارغامه على الكلام وقول ما عنده سوف تفقد اثرها بعد زوال التنويم بسبب تعرض المنوم للدهشة والمفاجأة بعد زوال التنويم مباشرة بسبب انقطاعه عن ذاته لفترة مما يجعله يصحو ليس من التنويم فحسب بل من الاثار التي تركها . سادسا . الامر الرئيسي في التنويم يعتمد على مرحله ما بعد التنويم مباشره وكيف يجيد المحقق استغلالها من خلال التأكد للمنوم بأنه قال

شيء ، والاستمرار باحداث تأثيرات باقوال واساليب متعددة ، غير ان حالة الدهشة والعودة للوعي ؛ والحديث الحماسي الذي يدلي به المحقق تخلق حالة رد فعل معاكسة تضع التحقيق كله في حالة ما قبل التنويم لتكون آثار التنويم قليلة الفاعلية وربما ذات اثر ايجابي لصالح المعتقل الذي تم تنويمه .. سيابعا . وهذا مهم جدا ان نجاح عملية التنويم ذاتها منذ البداية لثر مشكوك فيه لان التنويم يحتاج الى تفاعل تام وانسجام بدرجة كبيرة بين المنوم والمنوم ، بل نوع من الرضا والموافقة التامة على التنويم، واستعداد داخلي للعملية ، أو على الاقل خضوع تام للمنوم والا فان التنويم لن يحدث . وحتى مهما كانت درجة الاجبار فان الاستعداد الداخلي لدى المناضل لعدم قبول التنويم سوف يفشل العملية ذاتها من اساسها . كل هذه عقبات في طريق استخدام التنويم المغناطيسي ..

بماذا يتميز اسلوب التنويم عن غيره ؟

قلنا أن السقوط والاعتراف يحدث نتيجة لتوفر استعداد داخلي عند المعتقل ، واعي ومدرك ، مهما كانت الحالة النفسية التي يعيشها ، ومهما كانت انواع واساليب التحقيق ، ومهما كانت شدة التعذيب الجسدي .. لن الضرب على القدمين لا يمكن ان يحرك اللسان تلقائيا الا اذا رغب الانسان في ذلك ، والضرب على اللسان يخرسه اكثر فاكثر عن الكلام ، والضرب يمكن أن يحدث الما ، والتهديد يمكن ان يسبب الخوف ، واثارة فكرة معينة يمكن ان تثير فكرة اخرى لكن كل ذلك لايمكن ان يدفع بشكل اتوماتيكي الى الكلام .

والاساليب المتبعة قلما تؤثر تأثيرات جدية على الحالة النفسية للمعتقل ، وهي لا يمكن ان تؤثر بشكل ميكانيكي على حالة الثبات والاصرار والتحدي ما لم

يتجاوب المعتقل ويتفاعل مع المحقق بدرجة ما من التعاون الارادي الذي يساعد المحقق على احداث المزيد من التأثيرات السلبية وهلمجرا .

أي ان المسألة في كل اساليب التحقيق تكمن في درجة معينة من درجات التعاون الواعي الى هذه الدرجة أو تلك ، والاستجابة الارادية للتحقيق سلبا أو ايجابا والاستعداد للاعتراف اولا واخيرا .

أما التنويم المغناطيسي فهو بالاضافة الى انه يشبه غيره في الحاجة للتعاون الا أنه يحتاج الى درجة كبرى من التعاون الراضي ، أو الى درجة كبرى من الخضوع ، خضوع المنوم للمنوم ، واثناء التنويم تختلف الاستجابة من استجابة واعيه في الاساليب الاخرى الى استجابة غير ارادية .

كيف يحدث التنويم ؟

تطلعا لسنا هنا بصدد شرح المسألة من زاوية علمية بحتة ، بل فقط بالقدر الذي يمكن ان يعني اي انسان فيما لو تعرض لعملية التنويم المغناطيسي .

من الممكن أن يلاحظ المرء في حياته بعض السلوكيات المثيرة ، فاذا ما جلس واحد في قبالة سعدان ولفت انتباهه بصورة جيدة ثم اخذ في التثاؤب مرات متلاحقة ، فان السعدان ايضا يأخذ في التثاؤب وقد ينام اذا استمرت الحالة . واذا ما جلس فرد في مجموعة وتحدث بشكل مثير يدفع الاخرين لتركيز كل انتباههم له ثم اخذ في التثاؤب ، والتصرف كما لو انه اخذ ينعس شيئا فشيئا .. فان الجميع يحذون حذوه بينما الشخص الذي كان يجلس مع نفس المجموعة مشغولا عنها فانه سيلتفت بعد قليل ليجد الجميع ينام دون أن يدري ما السبب فهو

لم ينخرط في الجو الخاص الذي نشأ وبالتالي لم يتأثر به .

في التنويم المغناطيسي يحتاج الامر الى خبره عاليه وتدريب على التنويم والمدرب أو الخبير ذو صلة مباشرة بالتحقيق وفي الاحوال العادية التي يرغب فيها شخص بأن ينوم يطلب منه المنوم ان يجلس بطريقه ملائمة ، وان يجلس في حالة استرخاء تام ، وان يحصر تفكيره بشكل جيد في حالة مطلوبة ، ثم يبدأ الخبير عمله بل يركز بصر الشخص في اتجاه معين ويحرك يده او اصبعه امام عينيه مع التلفظ بعبارات معينة وتسليط النظر في عيني الشخص .. وهكذا . وقد يحتاج الامر الى احتوائه بطريقة معينة حتى يحصل على التركيز والتهيأة اللازمة . وخلال العملية تجري السيطرة شيئا فشيا على القسم الواعي من نشاط الدماغ واضعاف فعاليته الى الحد الذي يمكن الخبير من السيطرة على الشخص المنوم . وفي حالة وجود مقاومة يلجأ الخبير الى استعمال كلمات مؤثرة في الشخص ليركز تفكيره في مسألة محددة يرغب بها الخبير ومن ثم يمارس عمله .

على أية حال فان الحالات التي يتم فيها التنويم فعلا اقل بكثير من الحالات التي تفشل . واذا ما مارس الخبير نشاطه دون ان يشعر الشخص المرغوب تنويمه بهدفه من هذا النشاط اذا كان لا يثق بتعاونه فأن الامر سيكون اصعب وليست قليله الحالات التي يعتقد فيها الخبير بانه نجح في التنويم ويتصرف على هذا الاساس بينما الشخص المقابل يكون بكامل وعيه ، وليس في المسألة اية سحر وانما اهميتها تكمن في المناخ العام الذي يخلق حول الشخص او المعتقل قيد التحقيق لخلق حالة من التوتر والخوف عن اشياء يفترض أن يراها هائلة وجبروتية مما يجعله اكثر استعدادا للادلاء بالاعترافات .

ان هذا الاسلوب يتناول التأثير في الجانب العصبي من الانسان وهو بالتالي من الاساليب العصبية لكن الغاية

النهائية من التأثيرات العصبية المرجوة هي التأثير على الحالة النفسية للمعتقل لخلق ما يفترض انه استعدادات للتعاون مع المحقق . وهو بالتالي يتطلب اضعاف النشاط العصبي للنهايات العصبية في القشرة الدماغية والابقاء بشكل مركز على النشاط البصري مما يمكن الخبير من السيطرة على الشخص المرغوب تنويمه واخضاعه للعملية .

قلنا أن عملية التنويم تتطلب استجابة تامة أو خضوع تام لرغبات خبير التنويم ، فاذا طلب ان يركز البصر على جهة ، فعل ، وان طلب ان لايفكر بشيء فعل ، وان يتحرك بهذه الصورة او يردد عبارة معينة فعل ، ولكن اذا رفض ، واذا تحرك بصورة اخرى ، وصرف تفكيره عن ما يطلبه المحقق ، واذا طلب منه أن يفكر في شيء وفكر في شيء آخر ، واذا كرر على سمعه عبارات معينة تجاهلها .. وغير ذلك من ردود الفعل المقصودة التي تجعل التنويم غير قادر على العمل .

اذا ما صادف ونجحت عملية التنويم فهي لن تعطي شيئا ، أن اكثر ما يمكن عمله كما ذكرنا هو نوع من التعبئة للمنوم ليدلي بالاعترافات بعد الصحو لانه اثناء التنويم لا يملك اية ارادة لفعل شيء او قول شيء سوى بطلب مباشر من الخبير فهو مثلا لا يستطيع الذهاب الى بيته الا وفقا لارشادات تفصيلية من الخبير الذي يتوجب ان يكون عارفا بكل التفاصيل سلفا ، ولا يستطيع انيقول بشيئا سوي ترديدا .

وهكذا لو كانت عملية التنويم مجدية لاستعملت وعلى نطاق واسع لكنها غير مجدية اساسا ومن المناسب ان يعرف المرأ دواخلها مع ذلك .

كغيره من الاساليب من السهل افشاله والمحافظة بالتالي على اكبر قدر من التماسك والصلابة والصمود .

لم يكن القصد من هذا العرض الاحاطه الكليه بكل اساليب التحقيق النفسي ، واشكال التعذيب ، وانما

تقديم اعمق صورة ممكنة من التجربة الفلسطينية الحية ، فكل الاساليب المذكورة جرى استخدامها باستثناء التنويم المغناطيسي ، ووقف المعتقلون امام هذه الاساليب كل المواقف الممكنة التي يطرحها الواقع فبعضهم اكتفى بالاعتراف بانتمائه ولكن بصورة غير صحيحة ولا تشير الى ما جرى فعلا بل ربط نفسه بشخص خارج البلاد أو بشخص لا يستطيع التعرف عليه ، وبعضهم اكتفى بانه شاهد شيئا ما بمحض الصدفة ، واخرون اكتفوا فقط بالاعتراف بأنهم كانوا موجودين في المكان المعين واخفوا بقية الحقائق ، ولم يقدموا اي تفاصيل تفيد العدو ، وبعضهم اعترف بانتمائه كما حصل واخفى كل الانشطة ، وبعضهم ظن أن من المناسب له الاعتراف بما يعرفه المحقق ، والادلاء بمعلومات عنه بطريقة من الطرق صيانة لما هو مخفي ، وبعضهم فضل ان يقدم للعدو ادانة عن نفسه تكفي لمحاكمته والحكم عليه بمدة معقولة ظنا أن هذا افضل من الاعتقال الاداري الغير محدود المدة ، وبعضهم اعترف بكل ما سئل عنه واخفى الاشياء الاخرى، وبعضهم اعترف بما سئل عنه وتبرع بنفسه بكل ما يعرف دون ان يسأله احد (اثباتا لحسن النيه الرخيصة) . اما البعض الاخر فقد اطبق فمه عن كل ما يتعلق بالقضية وصمد حتى النهاية .

بعض المعتقلين ادلى بكل ما لديه من أول جولة وبعضهم بعد عدة جولات تحقيق ، والبعض الاخر ظل صامدا حتى النهاية .

بعض المعتقلين استرد نفسه بعد التحقيق وظل على تصميمه الوطني وهم الغالبية الساحقة من المعتقلين، وبعضهم الاخر تسلل اليأس والخذلان والندم الى نفسه جزئيا او كليا .

الا انه وفي جميع الاحوال يلاحظ تصاعدا ملموسا في خط الصمود ، فبقدر ما اكتسبت اجهزة التحقيق خبرة ودراية وازدادت شراسة وهمجية ، في المقابل اكتسب

مناضلوا الحركة الوطنية خبرة ودراية ووعيا وتصميما على الاستمرار في الكفاح وبصلابة لدرجة ان مجموعات بكاملها تعتقل تحت ظروف معينة ، وينتهي التحقيق معهم دون أن تفشي اسرار المنظمات والاحزاب التي تنتمي اليها وتواجه وضعها في التحقيق بصبر وصلابة .

لقد ارتبطت مسيرة الصمود والصلابة في التحقيق بمسيرة الحركة الوطنية ذاتها ، ففي غياب التوعية الجماهيرية السياسية وغير السياسية كان المعتقلون يواجهون التحقيق كمفاجأة لهم ، غير أن المسألة اختلفت عندما اخذ دور الحركة الوطنية يبرز اكثر فاكثر في مجال التوعية والتثقيف ، مع النهوض الوطني الواسع الذي اخذت تترسخ جذوره منذ عام ٧٦ .

ما دام العدو عنصري فاشي فانه يعتبر كل نشاط سياسي تقوم به الجماهير الفلسطينية خطرا ومحرما مهما كانت أوجه الرد التي يستعملها ضد هذا النشاط والتي تتوج على المستوى الجماعي بالقمع باشكاله المختلفة وعلى المستوى الفردى بالاعتقال والتنكيل . وما دام العدو فاشيا فانه لا يعدم الاساليب المتزايدة قذارة ، في اقبية التحقيق تلك الاساليب المصحوبة دوما بالتعذيب النفسي والجسدي المتمثل بالضرب المبرح . والتجويع ، والشبح والتعليق ، والصدمات الكهربائية ، والوضع في الزنازين الضيقة المظلمة ، وتعصيب العينين لمدة طويلة ، واحكام القيود في الايدي والارجل ، واستعمال الكلاب الشرسة ، وتحطيم الاسنان والاظافر ، وكسر الايدي والارجل وشج الرأس .. الخ .

والى جانب التعذيب النفسي هناك الاساليب العصبية التي تستخدم بالمرافقة مع الاساليب النفسية وقد أشرنا فيما سبق الى الاساليب النفسية ، والان سنتعرض الى الاساليب العصبية

ب ــ الاساليب العصبية :

شأن الاساليب النفسية ، فان الاساليب العصبية التي تؤدي الى التأثير على الحالة العصبية للانسان ، تؤثر بالتالي على حالته النفسية ، ومجمل انفعالاته الداخلية والخارجية . فكما تتأثر الحالة النفسية بالمناخ العام والاقوال المؤثرة والضرب والتعذيب فان الحالة العصبية تتأثر بالجو العام الذي يوضع فيه المعتقل ، والممارسات التي يشهدها او يمارسها ، والاقوال والافعال والضرب واية مؤثرات اخرى ذات صلة .

في الجسم ، يرتبط الدماغ بالاعصاب المتفرعة الى بقية الاجزاء ، حيث توجد العصبونات المتصلة مع بعضها البعض كوحدة للجهاز العصبي الذي توجد نهاياته ومركزه في الدماغ . فالعصب البصري مثلا يربط بين العين والدماغ وكذلك اعصاب الحس التي تربط بين الجلد والدماغ وكذلك اعصاب السمع في الجهاز السمعي . وهذه اهم الاعصاب التي تتعرض للتأثير اثناء التعذيب العصبي .

وتعمل اعصاب الجسم بانتظام ، وهي تتعرض للتعب وتحتاج للراحة والاسترخاء وفقا للقوانين التي تحكم فسيولوجيا الجسم واهم قانون يحكم عمل الدماغ هو قانون الاثارة والتثبيط وهو ايضا القانون العام لعمل الدماغ سواء كانت مصادر الاثارة داخلية ام خارجية ، اجتماعية ، أم فيزيائية فالدماغ يمثل الجهاز المركزي الذي يوحد عمل بقية الاجزاء ويمثل مركز لها .

والدماغ يمكن التأثير عليه من الخارج مباشرة ، كأن يتعرض الرأس الى صدمات عنيفة ، أو بواسطة الاجهزة العصبية كأن تتعرض الاعصاب للتعب الشديد وبالتالي يتعرض الدماغ للتعب .

وعندما يتعرض الدماغ للتعب والارهاق فانه يتوقف عن العمل جزئيا للاستراحة لفترة ثوان ، أو يتضائل نشاطه لفترة حتى يستعيد حالته الطبيعية ، هذه الفترة

قد تطول او تقصر حسب الحالة ، واذا كانت الحالة شديدة فان الانسان يحتاج الى النوم بشكل ضروري ، او يحتاج الى السوائل اذا ما تم استنزاف معين للجسم ، او يحتاج للدفء او التبريد . وهذه الحالات التي يحاول المحقق ان يخلقها حتى يضع المعتقل في حالة ملائمة له بهدف ابتزاز المعلومات منه .

وحتى يصل الى هذه الحالة هناك عدة طرق :

١ ــ استخدام الضرب الشديد والترتيب على اطراف الاعصاب مثل اصابع اليد ، والقدم ، والاذن ، والعين والشفاه والاعضاء الجنسية . والمناطق التي فيها غدد حساسة ، وهذه ظاهرة عامة ومستعملة باستمرار في التحقيق . حيث يقف المحقق خلف المعتقل ويأخذ في ضربه بكلتا يديه على اذنيه ولمدة طويلة وبشكل متواصل ، ثم ينتقل في الضرب على الشفاه كذلك ، وباستخدام العصا يأخذ في الضرب على اصابع اليدين ، ومن ثم القدمين ، وباستخدام عصا غليظة يأخذ في الضرب على الاعضاء الجنسية وبشكل متواصل ورتيب لمدة طويلة ، ويستعمل ايضا شد الشعر بقسوه ويضع رجله على كتف المعتقل ويأخذ بشد الشعر ويظل المحقق يتنقل بنظام معين في الضرب هنا وهناك طوال جولة التحقيق مثيرا جوا من الارهاب والتشكيك والتضليل ومختلف المؤثرات النفسية الاخرى .

في اجزاء الجسم المذكورة توجد اعصاب اشد حساسية من اعصاب الاجزاء الخارجية الاخرى في الجسم ، وبالطبع كلما تلقت ضربة ، تقوم الاعصاب بارسال اشارة الى الدماغ فيظل الدماغ متيقظا ونشيطا، ومع الاستمرار يأخذ في الارهاق ، ونشاطه في الخفوت وهذا بالطبع ينعكس على الحالة النفسية .

٢ ــ التأثير المزعج على حاستي السمع والبصر .

١ ــ استخدام الاصوات حيث يتعرض المعتقل رغما عنه لسماع اصوات رتيبة ومتكررة مما يثير الاعصاب ويهيجها وبالتالي يظل الدماغ في حالة اثارة ويتعرض للتعب ، ويتعرض المعتقل للانزعاج الشديد .

ب ــ استخدام الاضواء لتهيج الاعصاب البصرية باستمرار ولنفس الغاية .

ج ــ مشاهدة مظاهر مزعجة مثل تعذيب آخرين امامه او تعذيبهم على مسمعه وبالاخص تعذيب الرفاق او الاهل .

٣ ــ ايقاف المعتقل مربوطا الى الخلف بالحائط او بمربط خاص لساعات طويلة ست ساعات ، او عدة ايام مثلا وتوقيفه على رجل واحدة ، او قلبه على راسه وربطه موقوفا لمدة طويلة ، ايام مثلا او ساعات .

٤ ــ خلق جو متوتر ومتواصل حول المعتقل يتضمن التجويع ، ومنع الشرب والراحة ، والتوتير والازعاج وحالة من الاضطراب تتداخل فيها العوامل الفزيولوجية والنفسية ولمدة طويلة .

٥ ــ ارغام المعتقل على ممارسات منافية لانسجامه الذاتي كان يفرض عليه انيقفز على رجل واحدة مدة طويلة واثنائها يردد عبارات يطلبها المحقق كأن يستمر في شتم نفسه او اصدقائه او اقربائه .

٦ ــ استخدام العقاقير الطبية مثل حقن الجسم بالانسولين الذي يؤدي الى احتراق السكر في الدم مما يولد طاقة زائدة عن حاجة الجسم وهي طريقة شديدة الخطورة حيث من الممكن ان تؤدي الى الوفاة او الى تمزق جسمي او شلل . وهي تعتمد على اثارة طاقة زائدة في الجسم عن حد التوازن العادي مما يؤدي الى الارهاق الشديد .

٧ ــ الحقن بالمواد المخدرة بدرجة اقل من ممنا يكفي للتخدير الشامل حيث يصبح الجسم في حالة اقرب الى النوم شريطة ان لايصل حد السبات لانه في هذه

الحالة لايستجيب لاية مؤثرات ، اما اذا كانت اقل بحد معين فان الانسان يتكلم بشكل متقطع وغالبا غير مفهوم. ومهما استغل المحقق هذه الحالة بعد الصحو فانها لن تحصل على شيء ما دامت ارادة المعتقل صلبة وقوية ، وينطبق على هذه الحالة ما ينطبق على حالة الاغماء واستغلالها ، فالمحقق يعمد الى ايهام المعتقل بانه قال كل شيء وان المخابرات كشفت كل الاسرار وغير ذلك مما يخلق البلبلة والزعزعة في نفسيه الانسان وتركه نهبا للظنون ، واستغلال هذه الحالة الى اقصى درجة ممكنة علها تعطي للمحقق اية ثمار . وفي الواقع فان المخدر الذي يستعيد وعيه بالتدريج لا يكون مؤهلا لاعطاء المعلومات ولا الاجابة على الاسئلة وحتى عندما توجه له اسئلة فانه لا يدركها جيدا . وكمن هو في حلم تتداخل افكاره وتشوش الى ان يستعيد وعيه تماما حيث يعود الموقف كما كان قبل التخدير .

ويمكن القول ان مجمل الطرق العصبية هي نوع من غسيل الدماغ ، ووسائل لهذه الغاية . فهي تهدف الى اضعاف النشاط المخي الواعي ، واضعاف تماسكه بحيث يسهل على المؤثر ان يمارس تأثيره في وضع يكون فيه التأثر اكثر قابلية للتلقي . وقد تستمر عملية غسل الدماغ ما بعد مرحلة التحقيق بهدف ازاحة المواقف السابقة للمناضل وتعبئته بمواقف جديدة مغايرة لها ، وذلك بالقاء المواعظ والتشكيك بالثورة واحيانا باعتماد الشواهد والادلة السياسية ...

قلنا ان اساليب التعذيب والتحقيق المتعددة ، في المراحل المتعددة تمتلك آثارا تجميعية تراكمية على المناضل بغية دفعه درجة تلو الدرجة ، او دفعة واحدة الى الانهيار والتساقط ، والادلاء بما لديه وافشاء الاسرار وتعريض امن الحزب والمنظمات ، والحركة الجماهيرية للاضرار والاخطاء ، والاساليب العصبية والنفسية ما هي الا اشكال لممارسات المحقق« في اقبية التعذيب تمارس

وفقا لخطط مدروسة ، أو تجارب وفقا لافتراضات يصوغها رجال التحقيق عن شخصية ونفسية المعتقل بعد دراسة حالته منذ البداية او في كل مرحلة من مراحل التحقيق كلها صيغ للتعذيب الجسدي والنفسي والعصبي وهي تعبير عن معركة المحققين مع المعتقل ابتداء من غاية الحصول على الاعترافات كمعلومات عن الحركة الثورية والمعتقل نفسه ، كمادة للادانة وتوجيه الضربات المادية ، وانتهاء بالمساس بشخصية المناضل بوصفه مناضلا وتعريضه للهزات والهزائم المعنوية ، وتعريض الحركة الثورية لهذه النتائج . في هذه المعركة يهاجم رجال التحقيق الجلادين بمالديهم من اساليب واشكال تعذيب ، ويرد ويهاجم المعتقل بصموده وصلابته ، وايمانه العميق بثوريته وعقائديته مدافعا ليس فقط عن ذاتيته بل عن كل ما يمثله وجوده الاعزل ظاهريا في اقبية التحقيق من مشاعر الاخلاص والثورة ، ومن ارتباطات حزبيه وفكرية في الواقع . وعبر هذه المعركة تتركز معظم جهود المحققين لعزل المناضل عن هذه الارتباطات ، واضعافها ، او تحويلها الى ارتباطات ضارة في نظر المعتقل على ان هذه الارتباطات هي التي سببت له الوجود في هذا الموقف ليتحول بالتالي ضدها وينهار ، أو على الاقل تفكيك هذه الارتباطات والاجهاز على آثارها التعبوية وما تخلقه من صبر واصرار وصمود وتحدي .

وعبر هذه المعركة يتوجه المحقق بأساليبه المختلفة للاخلال بالتوازن الجسمي في الغالب نتيجة للتعذيب الجسدي ، والاختلال بالتوازن الجسمي يهدف الى الاخلال بالتماسك العصبي والنفسي وتشويش تفكير ، وسلامة تفكير المناضل واضعاف تكوينه الشخصي العام حتى يكون سهل المنال بيد المحققين .

فالضرب المتواصل على تجمعات الخلايا العصبية الحساسية من شأن تهيجها باستمرار لايصالها لحالة التعب ، فمن المعروف أن درجة حساسية الجسم تتأثر

بكون الجسم في حالة عادية ، أو في حالة تعب شديد ، ومن المعروف ان نشاط الخلايا العصبية لا يسير على وتيره واحدة بل انه يضعف او يزداد رهافة ، والخلايا العصبية مرتبطة بالدماغ ، والدماغ ايضا لاينشط بخط مستقيم بل ان نشاطه يعلو ويهبط ويتأثر بالحالة الجسمية بشكل واضح ، وعندما يتعرض للتعب الشديد نتيجة لتهيج الاعصاب فأن نشاطه يخفت كما تخفت سيطرته على بقية الاجزاء وخاصة الخارجية منها . وقد تتوقف لبضع لحظات في اوج التعب والارهاق . ولان خلايا الدماغ لا تتعرض للتلف نتيجة لدرجة النشاط وبخلاف خلايا الجسم فأن الدماغ الشديد الارهاق يقف جزئيا او كليا عن العمل حتى يستعيد قواه ، واذا ما استمرت مؤثرات التعب والارهاق فان الدماغ يحتاج لاعادة توازنه لفترة اطول للراحة تستدعي النوم العميق ليصار الى استعادة خلايا الاعصاب والدماغ نشاطها المعتاد ، وخلال مرحلة التعب والارهاق هذه يفقد الشخص قدرته على التركيز ويفقد قدرته ايضا على الفهم السليم لما يسمع ويرى . وعندما يصبح في حالة شديدة للنوم يبدا الابتزاز من وجهة نظر المحقق« الذين يعمدون لايصال المعتقل لهذه الحالة عبر مرحلة التحقيق بفعل تعويضه للارهاق الجسمي والعصبي لفترة متواصلة وطويلة (عن طريق الوقوف والمناضل مربوط لمدة طويلة ، أو الضرب المتواصل على كل اجزاء الجسم بما فيها الاذنين والشفتين والاعضاء الجنسية والاطراف واستمرار التهيج) حينها يصبح الجسم بمسيس الحاجة للنوم موضوعيا وكلما وصل الى حالة الاغفاء عاد المحققون للاثارة من جديد ومن ثم المساومة لعدة ايام متواصلة .

انهم يضعون المعتقل في حالة كما يلي : النوم يساوي الافشاء بالاسرار ، فان اردت النوم فما عليك الا ان تفشي بالاسرار او بعضها او حتى تعد بذلك وكفى ومن ثم ترسل للنوم لفترة من الزمن . قد يكتفي المحقق

بالحصول على وعد بالكلام ليعتبر هذا نصرا مؤزرا ، وبداية جيدة لكسب المعركة ، وهو لا يهمه ان كان هذا الوعد صادقا ام كاذبا ، ان ما يهمه ان نهجه في التعذيب والتحقيق هو الذي مكنه من الحصول على وعد كهذا والسبب ان المعتقل بالاساس لم يأت متبرعا الى اقبية التحقيق لغايات داخلية للادلاء بالمعلومات ، بل ان المحقق يهدف الى ارغامه على البوح بما لديه ، وكانت البداية ان ارغمه على الوعد بالبوح بالاسرار معتقدا ان بامكانه فيما بعد ارغامه على البوح بها نفسها ولا يهم ان يكون هذا البوح تنفيذا للوعد أم لا ، فبعد الوعد قد يرسل المعتقل ببساطة قسطا من الراحة الضرورية ، والتي يعتقد المحقق بنفسه انها ضرورية جدا وبعدها يجلب للقبو في مرحلة جديدة تبدا بالتذكير بالوعد ومن ثم تستأنف بما يلائمها من الاشكال والاساليب الفاشيستيه .

ان مجرد اعطاء الوعد بالاعتراف لمحقق خلال مرحلة التعذيب هو نوع من الخضوع ، فهذا الوعد اخذ بالقوة ، فالمحقق اثناء ممارساته القذرة وفي مرحلة معينة من الانهاك الجسمي يطلب من المعتقل أن يعد بالكلام ، وقد يطلب منه ان يكتب وعده خطيا ويصر على طلبه مع استمرار التعذيب والارهاق العصبي والجسدي بصورة عامة اي ان المحقق يقاتل بشدة من اجل الحصول على هذا الوعد ، انه ليس مجرد تبريرا يتطلبه التحقيق للسماح للمعتقل بنيل قسط من الراحة الضرورية لبقائه على قيد الحياة ، فالمعتقل لن يموت فيما لو استمر الارهاق ، وكل ما في الامر انه سينام رغم انفه وانف المحقق في حالة من الغيبوبة ، وحتى لا يصل المعتقل الى هذه الحالة التي سوف تجبر المحقق بنفسه على انهاء جولة التعذيب فأن المحقق يسعى لتبسيط الامر بطرح طلب الوعد او التعهد بالاعتراف وليس الاعتراف ونتيجة هذا التعهد الكلامي او الكتابي (الراحة والنوم) .

ان فالمحقق يسابق الزمن ، يريد قبل اغماء المعتقل ان يبتز منه موقفا ولو على الاقل ما يشير الى استعداده اللاحق للانهيار ، ليعتبر نفسه قد انجز شيئا ما هو في الحقيقة الاالوصول بالتحقيق مرحلة جديدة محتواها الرئيسي تنازلا من جانب المعتقل للمحقق ، وشكلها نقاش وممارسات حول الوفاء بالوعد او النكث به مما يجعل المسألة تبدو ظاهريا وكأنها بسيطة (يحلها حلال) بعد الاستراحة والنوم ؟! .

لكن المحقق يستأنف نشاطه بنفس الاسلوب السابق مرفدا اياه . بممارسات اخرى لايصال المعتقل الى نفس الموقف على الاقل او خطوة متقدمة عليه ، فعندما يصل المعتقل لحالة الارهاق الشديد مرة ثانية يركز المحقق على خطورة وقسوة التحقيق ، وعدم قدرة المعتقل على الصمود للنهاية وتحفيزه على الاعتراف برا بوعده الذي لا يكفي تكراره مرة اخرى بل لابد من قول شيء حتى يقتنع المحقق باعطاء المعتقل قسطا من الراحة . وقد لايقف المحقق عن استمرار التعذيب والاثارة العصبية بمختلف اشكالها حتى لو وصل المعتقل الى حالة الاغماء أو النوم الدماغي نتيجة للتعب والارهاق المتواصل خاصة ان جسم الانسان يحتمل هذه النتائج دون خطورة على الحياة ، وقد حصل ان ابقي رفاق في حالة اليقظة لمدة تجاوزت ثلاثة ايام ، وبعضهم سبعة ايام لم يرسلوا خلالها الى زنازينهم .

أن التعذيب الجسدي والارهاق النفسي والعصبي لا يقتصر على اقبية التعذيب نفسها فحسب ، بل ان التعذيب يلحق بالمعتقل في الزنازين التي هي مقر تجمع المعتقلين الجدد حيث يوضع واحد او اثنين في كل زنزانة في الاوقات العادية . ولكن سلطات التحقيق لا تتورع عن وضع خمسة او ستة في نفس الزنزانة اشد ضيقا ، حيث تغلق الزنزانة باحكام وحتى تغلق الفتحة الصغيرة التي في الباب والتي تستخدم للمراقبة من الخارج والباب مغلقا،

وتبقى فتحة واحدة في السقف لايزيد قطرها عن ٣٠ سم فلنتصور ان الطقس شديد الحرارة كما هو الحال في الصيف في بلادنا حيث يتواجد ستة اشخاص قد لايجدوا متسعا للجلوس ، انفاسهم تملأ الزنزانة بعد وقت قصير ، والحر يطبق عليهم ، وعرقهم ينذ من اجسادهم دون انقطاع ، والضيق الشديد والضجر ، وسوء التهوية يحيط بهم من كل جانب ، والحال يستمر على هذا المنوال اياما لتكون الزنزانة اشد من الجحيم عليهم جميعا بحيث ان استدعاء احدهم للتحقيق معه في الاقبية ، ورغم اصناف التعذيب والتحطيم التي يتعرض لها ، يعتبر نقاهة بالقياس للوجود في الزنزانة القبر . واحيانا غرف التحقيق اكثر دفئا بما لا يقاس من الزنازين والمرحاض حيثما يحتجز المناضل في فصل الشتاء .. وبعد ذلك تجري المساومات . فالمعتقلون في الزنزانة لا يكفون عن دق الباب وطرقه طلبا للهواء ، والسجان يعطيهم بدلا من الهواء اللكمات والشتائم/ وربما يرشهم بالادوية المضادة للحشرات ذات الرائحة الكريهة النفاذة التي تزيد الامر سوءا عقابا لهم لمطالبتهم بفتح الباب او حتى (كوة) الباب التي قد يساعد فتحها على نشوء تيار من الهواء مهما كان بسيطا . ان الواحد من هؤلاء المعتقلين يفضل ان يخرج كل ساعة للضرب والجلد على يد السجان افضل مئة مرة من البقاء داخل الزنزانة الضيقة التي (لا ينفذ من جدرانها القاتمة ولا قطرة هواء واحدة) فكيف اذا احيط هذا المناخ بسيل من اصوات النشاز الرتيبة ؟!.

في هذا المناخ المحاط برائحة العرق المتزايدة نتانة ، والحاجة الماسة للهواء والحاجة الماسة جدا لقطرة ماء ، والماسة ايضا لمكان للجلوس او الوقوف او الاستلقاء على الظهر حيث يكون الاستلقاء والجلوس دوريا وفي نفس الوقت لا يرغب المرأ بالجلوس ولا بالوقوف ولا بالاستلقاء فهو مضغوط من كل جانب يحاصره الضيق وتعب الاعصاب والظلام الدامس والاوساخ المتراكمة هذا الوضع هو في

القساوة بحيث ان الخلاص منه الى اية وضع اخر كالانتقال من الجحيم الى جبال الانشراح .

خلال فترة كهذه ، والضيق الشديد يطبق على المناضلين في قبرهم الذي يقفل عليهم احياء ، ماذا يعتمل في نفوسهم ؟ وكيف يسعى الجلادون لابتزازهم او ابتزاز احدهم اذا كان واحدا منهم فقط هو المقصود والاخرين يعذبون معه ليخلقوا معه جو العذاب ؟

ان المحقق يحاول تكوين صورة واقعية بمجموعة من الافتراضات التي يعتقد انها تكون في نفسية ووضع المعتقل ، ويسعى للتعامل مع هذه الصورة تارة بالتشكيك وتارة بالارهاب او بأي وسائل اخرى محيطا سلوكه هذا بدرجة كبيرة من الغموض والضرب والتعذيب بعد ان سعى لجعل الزنزانة جحيم ، والجلوس معه في قبو التعذيب جنة بالمقارنة .

وليس مستبعدا ان يضعوا في الزنزانة واحد او اثنين مدسوسين مع اربعة آخرين ليعيشوا حالة الضغط معا ، حيث يبدأ العملاء باظهار الضجر والملل كل لحظة والتفكير العلني بالخلاص من الزنزانة بالاعتراف مظهرين ذلك افضل من هذا الجحيم ويأخذون في نفث سمومهم متعاونين على خلق جو من التساقط ليسقط الاخرين . وقد لايكتفوا بالاقوال بل يثيرون المشاكل ويخلقوا بانفسهم جوا من التوتر والعصبية داخل الزنزانة وحينما يبلغ الجو ذروته ، يعلن احدهم مثلا عن استعداده للاعتراف بما لديه بغية الخلاص ويستدعي الشاويش بحركة تظاهرية ويطلب مقابلة المخابرات استعدادا للاعتراف لهم .. ويلين الاخر .

ومهما كانت الصورة التي تجري فيها اللعبة فانها لاشك تخلق مناخا صعبا وقاسيا وخاصة اذا لم يدرك المناضلون بالاساس احتمال كهذا ، حيث بدلا من شد أزر بعضهم البعض يثار جو من التفسخ والبلبلة الداخلية اضافة الى ما يخلقه وضع الزنزانة المخنوق من صعوبات

وتوترات عصبية ونفسية في ظل حالة الاختناق هذه . فالمدسوسين الذين يعيشون سوية في جو الاختناق يرغبون هم انفسهم في الخلاص منه ، هذا الخلاص الذي يأتي بانتهاء مهمتهم اما بالفشل واما بالنجاح ولذلك سيعملون مخلصين ويبتكرون كل ما يمكن ان يخلق البلبلة والتفسخ في نفوس الاخرين... (الى متى نظل في هذه الحالة) يتسائل الواحد منهم .. (سنة سجن افضل من يوم واحد في هذا الجحيم) يرد الاخر .. ما أحلى الجلوس على قمة جبل كذا واستنشاق الهواء الطيب .. كنت يوم في رحلة كذا وكذا واليوم في هذا القبر .. الاخرون ينعمون ونحن لا نجد حتى الهواء الذي نستنشقه .. اني اختنق فما العمل .. ابتعد يا فلان من مكانك فانت تحجب الهواء .. قم من جانبي يا فلان فانا متضايق والا صفعتك .. وهكذا يستمرون في خلق البلبلة والتفسخ ليعلن احدهم انه يفضل ان يذهبوا جميعا ويعترفوا بما لديهم ويستريحوا ...

أما المناضل الصلب فهو لا يتوتر كل هذه التوترات لمجرد ان مدسوسين او ضعفاء يخلقونها ، بل انه يزجر الجميع مهما كان الثمن ويفسد على الضعفاء والمدسوسين مخططهم ... من لديه شيء فليذهب ويعترف أما انا فليس لدي ما اقوله ، ولن استدعي رجال المخابرات وحتى لن اشكو لهم عن هذا الوضع فليحدث ما يحدث .

أن موقفا كهذا سوف يفشل مخطط المخابرات وعملائهم الذين يتحملون وضع الزنزانة دون نتيجة حيث ستلجأ المخابرات لاساليب اخرى بل أن المناضل الذي يتجاوز وضع كهذا بصبر وصلابة سوف يثير البلبلة في نفسية رجال التحقيق انفسهم حول جدوى استمرار التحقيق .

أن كل موقف صمود هو في نفس الوقت مسمار في نعش مخططات المحققين ، ومثار للتثبيط في نفوسهم ، فهم مهما كانت ابداعاتهم والاعيبهم ، يعملون ضمن حدود ،

وسقف معين ، وساعة فشلهم في تناقص مستمر يقبلونها من اليوم الاول لبدء معركة التحقيق ، وهي تستنفذ يوميا ، بل ساعة بعد ساعة ، وهم كلما زادوا من وحشيتهم انما يقتربون من فشلهم وفراغ ما في جعبتهم ، فتفقدانهم لاعصابهم وارتباك اساليبهم في التحقيق انما هو مظهر من مظاهر الفشل والخسران ، فيأخذون في السباق مع الزمن ، ومع الحالات التي يخلقها جو التحقيق ، وانما تدل عصبيتهم وفقدانهم لتوازنهم على احساسهم بصعوبة موقفهم ، وصلابة خصمهم ، وكما قال المجربون (بين النصر والهزيمة صبر ساعة) فمزيدا من النصر ، يعني مسامير اضافية في نعش مخطط التحقيق الى ان يجهز عليه نهائيا فيرفع رجال التحقيق ايديهم ملطخة بالعار والخيبة .

وكلما زادت وحشية رجال التحقيق انما تنمو في حقول المناضل زهرات اخرى من البطولة والفرح وذكريات الرفاق ، وربوع القرية او المدينة او المخيم تشكل كلها مساند داخلية تشد ازر المناضل وتعطيه قوة جديدة .

وهكذا يسير المحققون في مسار تنازلي ، بينما يسير المناضل الثوري تصاعديا نحو القمة والبطولة والفخر ، لا عجب فهو وبعد ان انزرعت في نفسه علائم الانتصار ، انما يزرع في نفوس رفاقه ومعارفه الثقة به وبنضاله ، والثقة بالثورة والنصر .

أن ثوران الاعصاب لاينشأ عن العوامل الخارجية فحسب بل بتفاعل هذه العوامل الخارجية مع التركيبة النفسية والعصبية للانسان ، مع حالته النفسية في وقت من الاوقات وموقفه العام مما يحيط به ، ونظرته لما يجري وخلفيته عن المؤثرات وموقفه منها ومن هم ورائها. قد يحصل ان يشتمك شخص فتثور وتغضب وتشتم وربما اكثر ولكن هذا لا ينفي ان يقف شخص اخر موقف اخر فلا تهتز له قناة لا من الشتيمة ولا من تصرف اكثر استفزازا. أما اذا اثارت هذه الشتيمة نوازع داخلية ، واستعدادات

كامنة لرد ، واستغلالها لتثبيت مواقف ضد الشخص الاخر فان حجم تأثير الشتيمة سيثير استفزازا كبيرا لانه تضخم في نفسية الانسان باضعاف حجمه .

وحتى نحلل الموقف بشكل افضل : تتداخل عمليات الاثارة ، والاستجابة التي يتعرض لها الكائن البشري تداخلا جدليا مع جهازه العصبي ، وحالته النفسية ، ومواقفه ونظراته العامة ، ومواقفه ونظراته للمؤثرات ، وما يثير هذه المؤثرات . والاثارة بدرجات متفاوته ، كلما اشتدت تزيد من فعاليتها على التكوين الجسمي والنفسي والعصبي ، وبالتالي كلما تنوعت الاستجابة .والاستجابة قد تكون ارادية ، وقد تكون لا ارادية كرد فعل عضلات العين لمؤثر مباشر عليها حيث تغلق الجفون لا اراديا ، أو أن يجفل المرء نتيجة صرخه مفاجئة ..

والاثارة تصوغها الاعصاب في رسالة/ عاجلة تنقلها للدماغ الذي يقوم بدوره بدراستها والرد عليها مرسلا الموقف من خلال الاعصاب ايضا .

اذن حالة الدماغ كمركز وموجه للجهاز العصبي ، تلعب دورا في طبيعة الاستجابة ، ونشاط الدماغ عموما يتأثر بالخبرة والتجربة والثقافة ، والحالة الجسمية ايضا (تعب ، راحة ، صحة ، مرض ..) والحالة النفسية السابقة على حصول المؤثر والحالة المعنوية ايضا ، ودرجة التوقع لنوعية الاثارة وحجمها ، والاستعداد القبلي لكيفية الاستجابة في الحالات الارادية والمدة الزمنية التي تستغرقها عملية الاثارة ، والموقف من المثير والعوامل المثيرة (عندما يتعرض المعتقل للضرب او الشتم من السجان أو المحقق فانه لا يشعر بأي خزي أمام زملائه لان الخزي من السجان والمحقق ليس من الشتائم والضرب وانما من الضعف والانهيار والسقوط .. هذه الخلفية التي تساعد على التحكم في ردود فعل المعتقلين،بينما عندما يتعرض معتقل لميزات كهذه من قبل زملائه فانه يثار ويشعر بالمهانة) والموقف من المثير ، العوامل المثيرة تحدد

طبيعة الرد فمثلا واستنادا الى الخلفية الاجتماعية القائمة في بلادنا فان الشخص أ سيثور وينفعل ويسخط ويحاول فعل اي شيء ضد شخص يتعرض (لعرضه) او زوجته بالكلام أو العمل ، ومن الطبيعي ان يكون الرد قاسيا وموجها ضد الشخص ب . لنفترض ان الشخص أ تعرض للاعتقال السياسي كمناضل وطني واثناء التحقيق احضروا اخته وعروها من ملابسها رغما عنها وتعرضوا لها قولا وعملا بما يمس (الشرف) والشخص أ هذا مقيدا او مربوطا ، انه على اية حال لا يستطيع ان يفعل ما من شأنه ان يردع رجل المخابرات ولا اخافته ولا يستطيع الانتقام منه ، واساسا ان التفكير برد فعل كهذا كاستجابة للمؤثر القائم ، في ظل الخلفية الاجتماعية المعاشية ، والوضع القائم لايمكن ان تكون مجدية ولا يمكن ان تكون هي الرد الصحيح . ان الرد الصحيح والحاسم والشديد الفاعلية والتاثير على سلوك المخابرات هو فقط الصمود وعدم الرضوخ للابتزاز، والانسياق وراء حجم الاستفزاز الذي يمس (الشرف) ان الصمود فقط هو الذي سيردع ضابط التحقيق عندما يدرك عدم جدوى استفزازه السافل هذا . فهو أن ادرك ان استفزازه غير مجدي فانه سيكف عنه ، وان شعر بالجدوى فسيستمر . فالشخص أ وبناء على معرفته واستعداداته وفهمه ونظرته وخلفيته عن ما يجري سيتأثر ويثار ويستفز بحجم اقل بكثير مما اثير نتيجة فعله ضابط التحقيق مع قريبته مما اثير عندما مسها الشخص ب المذكور سابقا ولن يشعر بالخزي امام رفاقه وزملائه بل بالفخر والعزة لانه لم يسقط رغم حجم الاستفزاز وصعوبة التضحية .

وبالتالي فان حجم اثارة جهازه العصبي لم يكن بالحجم الذي اراده رجل التحقيق بل ان العوامل الداخلية في نفس المناضل بحجم وتقلل من اثار الاستفزاز بدلا من أن تضخمه .

أن الضرب المتواصل بالعصى على الاعضاء الجنسية ، يثير الالم موضوعيا ، ويؤثر على نشاط الاعصاب والجهاز العصبي ، ولكن خشبه المعذب على اعضائه الجنسية وحساسية المسألة بالنسبة له هي التي تدفعه للتجاوب مع المحقق ، بينما استعداده المسبق للصمود سيقلل حتى من حجم الالم نفسه .

والرفيق الذي يزج به في زنزانة ضيقة مع اربعة او خمسة متساقطين لمدة يومين أو اسبوع ، يتعرض خلالها لقسوة الطبيعة والانسان والارهاق الجسماني والعصبي ، والذي يتصور نفسه يخوض معركة بطولية مع كل هذه الظروف ويتسلح بالصبر والسلوان ، لن يكون معرضا لاثار الاستفزاز والتثبيط القائم موضوعيا بنفس حجم الاثار الناشئة لدى رفيق اخر انصرف للتفكير في الخلاص الذاتي ، بل سيحيط نفسه بالرضى والفخر لانه امتحن في مجابهة ظروف شديدة القسوة كهذه بينما رفاقه كلهم ينتظرون منه الصمود والحماية التي يقدمها من اعصابه .

ليست المسألة مجرد تصور ذاتي ، فلا يمكن أن يجدي المرء تصوره للزنزانه على انها جنة عدن ، بل الامر يختلف كليا ، أن المناضل يدرك تماما أنه في جحيم التحقيق ، وان الزنزانة هذه ما هي الا قبر للاحياء ، كيس حجري صلد قاتم أسود ، ويتحسس بجسمه ومشاعره وافكاره قسوة ما يحيط به ، ان الاختلاف في الامر هو الاستعداد التام للصبر على هذه الظروف وما هو اقسى منها ، وهو يجتاز هذه المحنة دقيقة بدقيقة وكلما مر الزمن يشعر بقرب نهاية التجربة بنجاح وفي هذا تعزيز لصموده ، وكلما مر الزمن دون ضعف يتذكر رفاقه وحزبه الذي ساهم في بنائه ونضالاته هو وغير بكده وعرقه وجهده ، ويتذكر انه لا يجوز هدم وضع نضالي لمجرد انه يقاسي وضا صعبا لان هدم البنى النضالية هو من اختصاص الاعداء ان استطاعوا الى ذلك سبيلا ، والرفيق

الثوري لا يمكن ان يكون في صف الاعداء ، انه يتميز عنهم ، ليس فقط لانه في الصف المقابل بل لانه ثوري يسعى ويكافح للقضاء على كل ظلم وقسوة ووحشية ، انه ثوري يؤمن بحتمية النصر وان كل تجربة معاناة ما هي الا مسمار فينفس الاعداء اعداء الوطن والحرية فلتدق كل المسامير ليلقى بالفاشية الى مزبلة التاريخ .

دور العملاء والمدسوسين في اقبية التعذيب

ان سقوط شخص ما وطنيا ، وارتباطه بالمخابرات لايقتصر فقط على العلاقة التجارية (خذ وهات) بل يتعداه الى ابعد من ذلك ، حيث يصبح المتساقط بطيئة حقيرة بيد رجال المخابرات واداة ذات قائمتين لا اكثر ، انه بالاساس من صف اعدائهم وهم يستثمرونه بكل ما لديهم من وسائل ويعتصرونه ، ويلقون به كل مرة في اكياس الزبالة ، انه يتحول الى خرقة بالية تتمزق كلما شدت من احد اطرافها . انه يفقد كل القيم الانسانية والاخلاقية مع فقدانه لانتمائه الوطني والشعبي ويصبح عنوان حياته الاستجابة المتنوعة لكل ما يطلبه رجال المخابرات الذين يحيطونه دائما بجو من الارهاب والشك فيه ، والتهديد بكشفه او حتى بقتله ليظل هو من جانبه يسعى للابقاء على شعرة معاوية . ان شهر العسل بينه وبين المخابرات والذي يبدأ في مرحلة تجنيده ينتهي سريعا بعد ان يثقوا انه تورط وانتهي الامر بغير رجعة . فهم بعد ان يحسموه لصالحهم عمليا ، يستمرون في اسقاطه خلقيا واجتماعيا . فلا بأس ان يتعود السكر ، والمخدرات ولا بأس ان يذهب باستمرار للعاهرات ومستنقعات الحياة فهذا هو النمط الذي يرتاح رجال المخابرات للتعامل معه واثقين من استمرار انشداده العبودي لهم .

في البداية قد تقتصر العلاقة على مبدأ (خذ ، وهات) خذ معلومات واعطني فلوس ، لكن هذا النمط يظل في

حدود العلاقة التجارية والتي يتمثل فيها طرفان يعترف كل منهما بحق الاخر ، ان هذا الوضع لا يريح اجهزة المخابرات ، فلا بد من تحويله الى مطيه ، الى لاشيء سوى اداة بشرية ذات قائمتين ، لاقيم ، ولا اخلاق الاقيم العمالة واخلاق السقوط. وتبدأ المسألة عادة بدفع العميل للانحلال الخلقي والتخلص عمليا من كل القيم الاجتماعية السائدة مما يعمق اغتراب العميل وبعده عن المجتمع بل واحتقاره له ولكل قيمه واخلاقه الاجتماعية والسياسية والوطنية . تجريده من كل ارتباطاته السابقة حتى ارتباطاته العائلية-مع كل ما يتولد عن ذلك من تهور وانهيار من جهة ، وامحاء الشخصية وذوبانها في عالم الدناءه من جهة اخرى .

أن سلطات المخابرات لا تدخل الى نفسية العميل اي ايمان بايه قيمة ، بل ابعاده عن الالتزام بأية قيمة انسانية مهما كانت وتهميشها امامه باستثناء قيمتين اثنتين : قليلا من المال ، ورضا المخابرات الذي لا يدرك تحاط هاتين القيمتين بحب الظهور ولو تصورا وخيالا ، فهو شخص يستطيع الدخول الى مبنى الحاكم العسكري متى شاء وليس كالاخرين الذين ينتظرون الدور ، ويكفيه خيلاء ان يرى كتلة من البشر تقف امام مبنى الحكومة لقضاء مصالحها منذ الصباح ، أما هو فيدخل فور وصوله رافعا رأسه راضيا عن هذه النعمة ، والمصيبة ان يدخل في وقت مناوبته جندي لا يعرفه حينها تقع الطامة الكبرى، حيث يعترضه هذا الجندي بخشونة ، ويدفعه الى الوراء دون رحمة مع ما يلزم من الشتائم والتوبيخ والصراخ حسب العادة ، حيث لا ينفعه الاستجداء ، ولا الادعاء بانه يريد مقابلة الضابط فلان ، ويشعر أن (كبريائه) قد اهينت فكيف له أن يقف وينظر كالناس الاخرين فهو ليس منهم !

واذا صادف ان طوقت المنطقة التي يسكن فيها وفرض نظام حظر التجول فان ما يسعده أن يخرج من

الطوق بخلاف الاخرين بفعل تسهيل السلطات له والطامه الكبرى ان يجتاز دورية لا تعرفه فتعتبره مخالفا وتنهال عليه ضربا قاسيا واهانات ... لا بأس .. انه يعزي نفسه بانهم لا يعرفونه ، اللهم الاذا شاهده الناس يتعرض لنفس ما يتعرضوا له فسيسخط عليهم ويتمنى ابادتهم جميعا .

وحتى يعلموه السقوط الاخلاقي والانحلال من القيم فلا بأس ان يصطحب احد رجال المخابرات عاهرتين تمثل زوجته والاخرى اخته ، ويذهبوا معا الى اماكن التسلية حيث لا يمانع رجل المخابرات ان تقوم العاهرة التي تمثل دور اخته بمطارحة (صاحبنا) الغرام وامام عينيه (فهي حرة ، وهو صديقه الحميم الذي لا يعز عليه شيء حتى اخته) ولا مانع ان تتم مبادلة الادوار بينهم في مرات لاحقة (لسداد الدين) ، وهنا يفرط بأخته وتذهب ضحيته له .

وعبر السقوط المتواصل للعميل يجري تدريبه على الاعمال التجسسية واعمال الملاحقة والاختراق الامني للتجمعات والمنظمات الوطنية ، ويجري اعداده لتقبل اية اوامر وايه مهمات حتى ولو كانت متابعة اصدقائه واخوته واهله كما حصل مئات المرات .. انه ينشد الى اوامر رجال المخابرات اكثر من انشداده لاية جهة اخرى او اية مصلحة ، مقابل ان يكون في جيبه مسدسا وبضع دريهمات وسهرة في احدى الحانات الرخيصة ... لا بأس فالحياة قاسية وهو يحب النقود .

بعد ان يمضي شهر العسل تنحجب المنح والعطايا ويبقى مضطرا لمواجهة مصيره منقادا اليه بفعل سقوطه. هكذا هم العملاء مع الاعتذار لاغماطهم حقهم في مزيد من الدنس والخور والجبن والخساسة .

وفي غمرة التحقيق لهؤلاء الزرايا دور هام يحتاجه المحققون . واذا كانت الزنازين قد فتحت للاصرار ، فان سلطات المخابرات تدنسها في كثير من الاحيان بوضع

السياسيين وطنيا فيها خدمة لاغراض محددة ، وهم بالطبع يعانون من حياة الزنزانة وعسف السجانين كغيرهم من المعتقلين وخاصة اذا شاء المحققون لاسباب تهمهم ان لا يوصوا بهم ، أو اذا تغيرت دورية الحراسة بدورية ليس لديها علم بمهمتهم . وهم يظلوا في الزنازين الى ان تنتهي مهماتهم ، وبسبب الحاجة الى تغطيتهم فلا بأس ان يتعرضوا للضرب الذي يترك آثاره على الوجه ولا بأس من بعض الخدوش والجروح وذلك حتى يضمن المحققون ان يكون المعتقلون الاخرون عنهم صورة طيبة تمكنهم من ممارسة ادوارهم .. انهم يعيشون ذلهم بتعمد ويستمرؤونه ما دام يلبي حاجة المخابرات ، وما دام الواحد منهم سيتقاضى اتعابه في النهاية .

واذا ما كشفهم المعتقلون وعرفوا حقيقتهم واذا اوقعوا عليهم ما يستحقونه من العقاب فأن هذالايردعهم والا يتحولوا في نظر اسيادهم الى (جبناء) هذا غير معقول ، لانهم احقر من الجبناء .

أن دور العملاء في عمليات التحقيق يرتكز بالاساس على امكانية دسهم في صفوف الثورة ، أو اظهارهم بمظهر المناضلين وفي هذا تكمن قدرتهم احيانا على الايقاع بالمناضلين، أما عملهم من خارج صفوف الوطنيين والمناضلين فيتمثل في المراقبة والتتبع وتقديم الوشايات وجمع المعلومات التي يدرسها رجال المخابرات ويحللونها .

ودورهم في التحقيق ، والايقاع بالمناضلين له شقين :

١ ــ أ ــ الانخراط في التجمعات الوطنية والتعرف عليها من الداخل وعلى نشطائها ونشاطاتها ومخططاتها بوصفهم من هذه التجمعات . فالعميل ووفقا لوضعه ووجوده الاجتماعي يكلف بالالتحاق بالمؤسسات الوطنية والتجمعات النقابية والانخراط في اعمالها ونشاطاتها مستغلا المظاهر شبه العلنية للعمل المؤسساتي . وحيث ان المؤسسات الوطنية هي في التحليل النهائي تجمعات وطنية ينشط فيها الوطنيون فان بامكان العملاء احيانا

ان يتعرفوا على بعض الاسرار ويسعون دائما لمعرفة من هم وراء النشاطات ، وما خلفيتهم السياسية وما اذا كانوا متعاطفين مع هذا الحزب او ذاك ، ودرجة صلتهم بالمنظمات السياسية وتقديم ما لديهم من معلومات تستغل في التحقيق .

ب ــ الانخراط في صفوف المقاومة المنظمة . واذا كان هذا الدور صعب المنال في غالب الاحيان فان تمكن احدهم من دخول مجال كهذا سيوفر له المعلومات الاكيدة عن الاشخاص الذين يتعامل معهم ، وانتمائهم وجزء من نشاطهم وتتوقف درجة خطورة هذا النوع من العملاء ضمن هذا الدور على المواقع التي يحتلونها من جهة ، والسياسة التنظيمية المتبعة داخل الاطار التنظيمي من جهة اخرى ، ودرجة المتابعة الامنية للاعضاء المنتسبين من جهة ثالثة .

ان دور هؤلاء لا يتوقف عند التعرف على المعلومات والاوضاع بل يستمر الى اقبية التحقيق في حالة الاعتقال حيث يتواجدون مع المناضلين الاخرين بوصفهم منهم وهناك يتساقطون بتقديم كل ما لديهم من معلومات ويمثلون الادوار المطلوبة منهم بالشهادة على المناضلين امام المحققين ، ومحاولة اقناعهم بضرورة الاعتراف وتمثيل كل الادوار الرخيصة بهدف تثبيط صمود المناضلين ومحاصرتهم

٢ ــ عملاء يعتقلون ويدسون في زنازين التحقيق مع الوطنيين على انهم مناضلون وشى بهم فلان اوعلان ، او قبض عليهم لدى عودتهم عن الجسر ، أو اي مظهر مناسب ليساعدهم على نذالاتهم وحقاراتهم التي يمارسونها ضد المناضلين .

وهم في الزنازين يبدأون عادة بتمثيل دور الابطال اذا كان هذا هو الاسلوب اللازم ، أو دور المتساقطين المعترفين بما لديهم ، او دور الابرياء الذين ليس لديهم

ما يقولوه للمحققين باعتبارهم اعتقلوا نتيجة وشاية كاذبة وان التحقيق سينتهي ببرائتهم وخروجهم من السجن .

فهم اما يستدرجون المناضل ليقول شيئا عن نفسه ونشاطاته السياسية وينقلوها الى اسيادهم ، او يقومون بادوار تثبيطية وتحطيمية تنصح بالاعتراف والخلاص من التعذيب ، أو التنصت على الاحاديث الجارية في الزنزانة، او بين الزنازين ، أو استدراج المعتقل ليقول شيئا او يبلغ رسالة لزملائه في الخارج او اي دور شبيه يساعد في عملية التحقيق التي تكون قد وصلت الى طريق مسدود بفعل الصمود المتواصل للمناضل قيد التحقيق .

ان موقف المناضل في الزنزانة من اي مشارك له فيها هو التحفظ التام على نفسه ومعلوماته واسراره لا يفرط بها لاي انسان مهما كان ومن يكون . وايضا حسبان الحساب لاي احتمالات ممكنة فمن المحتمل ان يكون شريكه مدسوسا عليه ، ولا مجال هنا لمسألة الثقة ، فقد اثق بشريكي في الزنزانة وبدوره الوطني وقد لا أثق ، ولكن اذا وثقت لا يعني هذا ان أبوح له بالاسرار التي تهمني . ففي العمل السياسي السري فان مبدأ السرية يعتبر من اهم المباديء التي يجب أن تصان وتتبع في كل مكان وفي الزنزانة بالطبع . فكشف الاسرار خطير بحد ذاته مهما كان الشخص الذي تكشف امامه .

ان (حفظ اللسان) في الزنزانة هو خير ضمان لافشال خطط المندسين وحيلهم ، وحفظ اللسان يشمل كل ما لايجب قوله من احاديث ذات صلة مباشرة او غير مباشرة ، او حتى احاديث ذات دلالة ولو من بعيد . والامتناع عن الحديث عن مجريات التحقيق ذاته ، ضرورة تقتضيها ظروف الوجود في جو التحقيق والمعتقلات .

واذا ما فشل العملاء في الحصول على شيء في زنازين التعذيب والمخابرات ، ولم تتوصل اجهزة التحقيق للقناعة (بالبراءة) فانهم يدفعون بالمعتقل الى السجن

لمراقبته في السجن ومحاولة ابتزاز اي معلومات منه تحت ستار ضرورات السجن أحيانا ، او تبادل الاحاديث بينه وبين الاخرين حول التحقيق والصمود احيانا اخرى، أو الثقة بالزملاء الجدد ونشر الغسيل السري امامهم ليقوموا هم بتناقله على مسامع المعتقلين الاخرين على سبيل الفخر والاعتزاز او أي شيء من هذا القبيل الى مسامع العملاء وثم الى المخابرات .

ان خطورة البوح بالاسرار واحدة ، وبنفس الدرجة سواء قبل الاعتقال او في الزنازين أو في السجن (وبعده، فالعمل السري يشترط الكتمان والسرية في كل مكان ، فحيثما يوجد الاحتلال يوجد له عيون فالثورة ضد الاحتلال مشروطة بوجود احتلال . ووجود الثورة يشترط وجود قمع مضاد ،و القمع يرتكز لاعلى الالة العسكرية وحسب بل كل اساليب القمع ومن بينها شبكات العملاء والجواسيس ومنظماتهم التي يبنيها الاحتلال من المتساقطين والخونة وينشرها حيثما امكن ، وينشرها في السجون ايضا . والاحتلال لا يعتمد في السجون على العملاء الذين جندهم خارج السجن ودسهم بين المعتقلين تحت هذا الشكل أو ذاك فحسب ، بل يلجأ ايضا الى تجنيد العملاء داخل السجن من بين المنهارين في التحقيق كلما امكن له ذلك . وكذلك تقوم شرطة السجون بتجنيد العملاء مقابل وعود بحسن المعاملة واحيانا مقابل سيجارة او اي شيء تافه ، عدا عن محاولات التجنيد مقابل وعود بتخفيف الحكم اذا ما خدم السجين المتساقط بما يثبت (حسن نيته) اي غرقه في العمالة والخيانة حتى اذنيه . هؤلاء المتعاونين مع الاحتلال داخل السجون هم عيونه وآذانه ينقلون اية معلومات يحصلون عليها مهما كانت باساليب معينة لادارة السجن التي تقوم بدورها بنقلها لاجهزة الامن لتدرسها وتستفيد منها . وليست قليلة الحالات التي تمكنت فيها المخابرات من الحصول على معلومات من داخل السجن ، عجزت تماما في الحصول عليها في اقبية

التعذيب وقسوتها ، بسبب انفراط مبدأ السرية وعدم الالتزام به التزاما تاما داخل السجن .

ليس لاحد مهما كان الحق في الحصول على تقارير او معرفة معلومات عن المعتقل بعد انتهاء التحقيق تحت اي شعار ، ما لم تراعى كل النظم والقوانين والطرائق الحزبية الرسمية بالاستناد الى كلمات السر وشروط الاتصال شريطة ان لا يكون قد كشفت في التحقيق .

ان الاساليب التي تتبعها اجهزة الامن المعادية للحصول على المعلومات متعددة ، وهي تشكل غذائها الرئيسي لضرب المنظمات السرية ونضالات الجماهير . فالعمل السري يقابله ادوات مكافحة العمل السري ومن بينها رجال المخابرات وخدمهم العملاء المحليين ، واجهزة اليكترونيه للتصنت ، وجمع المعلومات وتبويبها وتحليلها ، ودس العملاء في التجمعات والحركات الوطنية ، والتعاون مع اجهزة مخابرات دول اخرى ، ولكن اخصب هذه المصادر على الاطلاق هو التحقيق ومعلومات التحقيق ما دام الموقف في التحقيق لم يتصلب بالدرجة الكافية .

ان كل وسائل جمع المعلومات تقدم خدماتها للمحققين ، حيث تستند اجهزة الامن على المعلومات التي تجمعها لاعتقال النشطاء والمناضلين ، حيث يبدأ التحقيق معهم لابتزاز ما لديهم من معلومات واعترافات وبشتى الاساليب . وهنا تلقى كامل المسؤولية في هذه المرحلةعلى المعتقلين انفسهم الذين هم بصدورهم يشكلون الحماية التي يجب ان لا تخترق ابدا .

من ادوار العملاء في السجن

عدا عن الوشايات والتصنت وجمع المعلومات وتبليغها لاجهزة امن السجن او المخابرات ، يمارس

العملاء وبتوجيه من اسيادهم ادوارا خيانية اخرى ذات ابعاد سياسية ، او تخريبية داخل السجون .

السجون كما انها قبور مظلمة للاحياء ، واكياس حجرية تغل حرياتهم وايديهم ، هي ايضا من وجهة نظر منظمات السجون الوطنية ، مدارس للثوار والنضال المتواصل . فيها يجري اعادة بناء المناضل وطنيا : فكريا وسياسيا وتنظيميا رغم كل قمع سلطات السجون وعسفهم ، ورغم كل اشكال الحرمان والتضييق التي تمارس ضد المعتقلين .

فمنظمات السجون وخاصة العقائدية منها تصوغ

نفسها بحيث تؤدي دورها الذي يتمثل فيما يلي :

١ ــ الرعاية الانسانية والاجتماعية للمناضلين المنضوين تحت لواء هذه المنظمة .

٢ ــ التثقيف والتعبئة السياسية والايديولوجية للاعضاء بشكل متواصل ومن خلال برامج تثقيفية وتعبوية ملتزمة يعيد الانسان خلالها بناء شخصيته بشكل جديد ويتعرف على العالم المحيط به وثقافته وحضارته ، واساليب كفاح الشعوب وافكارهم ومستوى تطورهم وينال حظا من الثقافة في اللغات والفلسفة والاقتصاد والتاريخ والسياسة واساليب العمل التنظيمي .

٣ ــ حماية بقاء المنظمة والروح الوطنية والثورية بها عن طريق تربية الاعضاء وتثويرهم وتصليبهم وتعميق التزامهم وانتمائهم الثوريين ، وضبطهم وتوجيههم في سلوكاتهم ومواقفهم باستمرار .

٤ ــ المشاركة مع المنظمات الاخرى في الدفاع عن حقوق المعتقلين وقيادة نضالاتهم المطلبية الحياتية والانسانية ، وقيادة مواقفهم السياسية والوطنية .

٥ ــ ضبط المعتقل الذي يتواجدون فيه بصورة عامة وحماية موقفه الوطني وتصليبه .

٦ ــ فتح عيون المعتقلين على سياسة الاحتلال ضد المساجين وتحصين السجناء ضدها ومقاومتها كلما أمكن .

٧ ــ العمل في منظمات السجون متواصل لكشف العملاء والمندسين والمنحرفين والمتساقطين ومحاسبتهم ومعاقبتهم وتربية من يمكن أن تجدي معه التربية .

٨ ــ قيادة النضال اليومي ضد الادارة ، وقيادة العمل اليومي داخل الغرف ، وحل كل ما يمكن ان ينشأ من خلافات واشكالات بين المعتقلين والمنظمات الاعتقالية المختلفة ، والحفاظ على الوحدة الوطنية للمعتقلين .

٩ ــ تخريج مناضلين محترفين للعمل في الساحة الوطنية بعد ان يكونوا قد حصلوا على خبرة عمل يومية وكافحوا في اقسى الظروف وتعلموا سبل مقاومة الاحتلال من خلال احتكاكهم به وخبروا التحقيق والاعتقال عن قرب .

ان هذه النشاطات لا تمارس تجريديا ، بل عبر نضال يومي متواصل ، وهكذا فان المناضل يتربى عبر النضالات اليومية المتواصلة ، وليس كمن يكون في مدرسة اكاديمية ، أنه يتخرج من دورة عمل نظرية ومكثفة ، وخلال معاناته اليومية يتعبأ بالحقد على اعداء الانسانية الذين خرقوا كل قانون انساني وكل قيم اخلاقية .. انه يتخرج من مدرسة الثورة ، ثائرا حقيقيا بقدر ما يكون قد اعد لذلك مع تفاوت بين قدرات وامكانيات وتوجيهات منظمات السجون للقيام بهذا الدور العظيم .

أما سلطات الاحتلال فهي تسعى جهدها وباستمرار لتحقيق سياساتها ضد مناضلي الثورة الفلسطينية في السجون تلك السياسات التي تتمثل في :ــ

١ ــ حجز اكبر عدد من المناضلين عن الساحة الوطنية وكفهم عن النضال الوطني فيها .

٢ ــ تدمير المعتقلين نفسيا ومعنويا واضعاف

شخصياتهم الوطنية وانتمائهم الوطني والسعي لتفريغهم من انتمائهم الثوري وكسر اطرهم السياسية داخل المعتقلات .

٣ ــ التنكيل بهم يوميا وضمن ظروف اعتقالية صعبة كنوع من العقوبة غير المعلن عنها ، وذلك لايقاع اكبر الاذى بهم وتخويفهم من عواقب ارتباطاتهم الوطنية .

٤ ــ خلق هوة بين المعتقلين ومجتمعهم عن طريق وضعهم في الاكياس الحجرية بعيدين عن متابعة مسارات الحياة وتطوارتها بهدف خلق غربة بينهم وبين المجتمع ، هم في مقاساتهم والحياة تسير في الخارج بدونهم .

٥ ــ محاولات مستمرة لغسل الدماغ ، وفصل المناضلين الثوريين عن ارتباطاتهم الوطنية عن طريق الادوات الاعلامية المتاحة واطلاق الاشاعات والمقارنات الغير معقولة .

٦ ــ خلق كل ما يمكن خلقه من المنازعات بين المعتقلين انفسهم حتى تتحول حياتهم الى جحيم قاس يدفعهم للانهيار والتعب ، واللجوء لادارة السجن لحل المنازعات (لم يحصل بحال من الاحوال أن اشتكت منظمات السجن على بعضها لدى سلطات الادارة) فغالبا حينما تنشأ منازعات بين المعتقلين تحدد الادارة كيفية تدخلها بحيث أ ــ تزيد من حدة النزاع بـ توقع اكبر درجة من الاذلال والمهانة بالمعتقلين ج ــ تكسب من يمكن كسبه من المستعدين للتخاذل والنذالةوالتساقط ومنشأ النزاعات في الغالب هم العملاء المندسين بين صفوف المعتقلين .

٧ ــ التدخل القمعي العنيف ضد المعتقلين بين فترة واخرى باستخدام قوات الجيش وحرس الحدود لتأكيد السلطة من جانب ، وايقاع اكبر اذى ممكن بالمعتقلين ومصادرة ممتلكاتهم البسيطة ، وخلق جو من الرعب والقسوة ومنع كل الامتيازات التي حققها المعتقلون في نضالاتهم السابقة وحرمانهم من ابسط سبل العيش سوى

الطعام المتدني النوعية للحفاظ على البقاء وليس الا .
فحتى الكتب والدفاتر التي يشتريها السجناء باموالهم وحتى ملابسهم الداخلية التي يحصلون عليها من الاهل ، وكميات السكر والشاي التي لديهم والتي يشترونها من دكان السجن كلها تصادر نهائيا وقد صادف مرات عديدة ان صودرت المكانس التي تقدمها ادارة السجن نفسها لتحد من النظافة كنوع من المضايقة ، عدا عن قطع الماء والكهرباء والتفتيش المتواصل والضرب والتعذيب . ان هذه الممارسة ليس فقط من اجل خلق مناخ تمارس فيه ادارة السجن سياسات اخرى ، بل هي في حد ذاتها سياسة عامة ونهجا رسميا تمارسه ادارة السجن بين الفينة والفينة .

وادارة السجن تقدم مبررا لذلك فان شاءت قامت بما تقوم به دون اي مبرر ليكون غطاء وان شاءت افتعلت اي مبرر مهما كان صغيرا ، وفي احيان عديدة تدفع عملائها للاصطدام بالشرطة شكليا ، أو تدفعهم لخلق مشكلة مع معتقلين آخرين يشهرون خلالها ادوات حادة اعطتهم اياها الادارة فتقوم القيامة بعد ذلك .

ان هذه الممارسة بالاساس هي سياسة عامة وليس حدثا عابرا او ردا على حدث عابر .

٨ ــ خلق تيار متساقط من العملاء والضعاف والمتساقطين الموجودين في السجن ليقوموا بادوار باسم منظمات المعتقل التي بفعل نضالاتها وصلابتها حظيت بتأييد وتعاطف واحترام الجماهير والثورة .

فالمتساقطين اخلاقيا ، والمتساقطين وطنيا ، يلجأون للادارة ، عدا عن من تغريهم الادارة ، أو من يتعرضون لضغط متواصل لا يستطيعون تحمله ، بالاضافة الى نواة اساسية من العملاء الذين اودعتهم السلطات في السجون خدمة لغايتها المتعددة هؤلاء العملاء الذين يشكلون اليوم قاطني اقسام العار في السجون ويدعون (بالعصافير) .

لقد استندت سلطات الاحتلال على هؤلاء العملاء في :ــ

١ ــ رصد تحركات المعتقلين كافراد والتجسس عليهم ومحاولة معرفة اخبار نشاطاتهم السابقة على الاعتقال واي معلومات ممكنة عنهم وابلاغها لاسيادهم الاعداء .

٢ ــ رصد تحركات ونشاطات وفاعليات منظمات السجون وابلاغ اخبارها لاسيادهم الاعداء .

وحتى يتمكنو من القيام بدورهم هذا فلا بد من أن يتظاهروا بمنتهى الحماس الوطني والحرص الشديد على المصلحة الوطنية والتجربة الوطنية .

٣ ــ الدس بين المنظمات المختلفة ، وبين تجمعات المعتقلين أو بين أي اثنين وخلق الاشكالات والمفاسد فيما بينهم مستغلين ما يكونوا قد حققوه من منزلة في هذه المنظمات . واثارة النعرات العصبية والشكلية والتكتلات او تحت اسم الحرص على المنظمة الفلانية يمارس العميل نشاطات معادية لمنظمة أخرى أو لاعضاء منها مفتعلا كل يوم مشكلة ، أو مفتعلا اخبار كاذبة وادعاءات واتهامات مثيرة ضد احدهم او جماعتهم بحيث يؤدي تراكم نشاطات كهذه الى تأجيج العلاقة بين المعتقلين أنفسهم .

٤ ــ بحكم صلتهم بالعدو ، وبالاستناد الى توجيهات محددة يعمل العميل في (الرصد) أي جهاز أمن واستخبارات تابع لاحدى المنظمات فيظهر بالتالي ولاء متزايدا لهذا التنظيم وللقاده الذين يتعامل معهم ، ثم يأخذ في مراقبة الاخرين وتصنيفهم كما يحلو له وتقديم هذه التصنيفات لرؤسائه وتزداد فاعليه هذا النوع اذا ما تمكن من العمل في مرافق السجن وخاصة ان ادارة السجن تحاول جهدها ان تشغل المتعاونين معها في هذه المرافق. في هذه الحالة وبحكم حرية الحركة النسبية التي يحظى بها العميل يستطيع كل لحظة نقل أية اخبار واية رسائل مكتوبة أو شفوية بين اقسام السجن ، وغالبا ما تكون

هذه الاوراق عرضة للوقوع في ايدي المخابرات ، أما الاخبار اليومية والرسائل الشفوية فهي تنقل اولا باول .

٥ ـ يمثل العملاء والمتساقطين ومن يستطيعون جره وتضليله معهم اول المتساقطين في الاضرابات والحملات النضالية التي يشنها المعتقلون دفاعا عن وجودهم .

٦ ـ اطلاق حملات واشاعات ساقطة ومغرضة ضد بعض المناضلين بغية اضعافهم واضعاف هيبتهم ومحاصرتهم وخلق جو من التشكيك في داخل المعتقل عن طريق اتهامات بالعمالة ضد هذا أو ذاك ، ولا تتورع المخابرات عن الايقاع باحد عملائها تصديقا لهذه الاشاعات وتقديمه لقمة سائغة للمعتقلين ليحققوا معه ويقدم اعترافات عن نفسه ولا ينسى بالطبع أن يشوه أن استطاع اكبر قدر ممكن من المعتقلين خالطا الابيض بالاسود لخلق جو من البلبلة والشك ، وقد تصل الامور بأن يقوم المعتقلون بشن حملة واسعة من التحقيق ، وبالطبع فان حملة كهذه تزيد في التور الداخلي وتخلق جوا ارهابيا محاطا بالغموض والخطورة .

لقد قدم احد العملاء تقاريرا ضد عدد من العملاء الاخرين من خارج شبكته بعد أن قدم دليلا ماديا ملموسا ضد احدهم ، ولم يقصر صاحبنا هذا في الاشتراك بحملة التحقيق بنفسه وتوجيهها بما يلائم مخططاته وتحويل التحقيق الى مستنقع تعذيب رهيب وقاس كلما سنحت له الفرصة ، واثناء مشاركته في التحقيق القاسي يتعمد طرح اسئلة ايحائية يضطر المعذب في التحقيق في الجو الارهابي ان يجيب عليها بطريقة تتلائم مع هدف مشين في طرح الاسئلة كان يسأل عن (فلان) ما علاقتك به وهل هو عميل حسبما تعلم أم لا ؟ فان قال لا انهال عليه ضربا حتى يقول نعم ثم يطلب منه أن يكتب اعترافاته بخط يده ليكون القمح والزؤان معا فيساهم ذلك في خلق جو من التشكيك والتلويث .

أن حاجة بعض مسؤولي السجون الى اعوان شخصيين واتباع شخصيين تشكل مناخا خصبا للعملاء المتسلقين الذين يلجأون الى الاعمال الرصدية الداخلية والخارجية ويقدمون بعض الخدمات الحقيقية مما يخلق جوا من الثقة بينهم وبين المسؤولين فتفتح لهم طريق التسلق ، وقد عاشت السجون تجارب قاسية ومريرة نتيجة هذه الظاهرة ، وهي لا تزال موجودة الى هذا الحد أو ذاك ولكن بدرجة اقل من السابق .

٧ ـ قد يصل احد المنهارين المتساقطين في التحقيق والذي ابدى استعدادا لخدمة الاحتلال بنذاله الى وضع مسؤول في السجن وخاصة في سجون التوقيف مثل سجن جنين ، رام الله ، الخليل ، غزة مستندا بذلك على عزوته على عدد المعتقلين الذي هو مسؤول عن اعتقالهم ، مسؤول عن اعتقال ستة عشر مناضلا مثلا ، وبالتالي احد مسؤولي التنظيم الفلاني .

في هذه الحالة فانه يعبيء ما يشاء ويخلق ما يستطيع من المفاسد ، ويطلع على كل اسرار التنظيم ، ولا بأس ان يطالب المعتقلين الجدد بتقديم تقارير عن انفسهم وعن نشاطهم في الخارج ليسربها بطريقة من الطرق الى ايدى جهاز أمن الاحتلال .

وخلال عمله كمسؤول فانه يحاول ووفقا لتوجيهات المخابرات تعيين اشباهه من الانذال في مسؤوليات وتحميلهم مهام (وهذا يعتمد على النظام الداخلي الذي ينظم الاوضاع الداخلية للمنظمة ، والمنظمات التي تعتمد نظاما داخليا وشروط تنظيم علمية لا يمكن ان يحدث فيها شيء كهذا) انه عندما يفسح المجال أمام الانذال الاخرين لتسلم مناصب ومسؤوليات انما يضع نفسه ويضعهم في الموضع البعيد عن الشبهة داخل السجن وخارجه علما بأن قبضات المعتقلين على أمنهم ومصالحهم قوية لدرجة انها كشفت العديد من الحالات الخطرة في السجون المختلفة واوقعت بهم العقاب الذي يستحقونه

ولكن بعد ان يعاني منهم السجن لفترة ليست قصيرة .

ملاحظة : في سجون التوقيف حيث معظم المعتقلين جدد ، ظهرت نغمة ان المسؤول في الخارج مسؤول في السجن دون الالتفات الى ظروف التحقيق ، وان المعترف بعدد من التهم تكفل له حكما عاليا أهو ايضا اهلا للمسؤولية ، وايضا المسؤول عن اعتقال وتدمير اوضاع اكبر عدد من مناضلي الثورة بوصفه مسؤول ٢٠ شخصا مثلا ، هو كذلك اهلا للمسؤولية ؟ في ظل مناخ كهذا تسلق على سلم مسؤوليات بعض منظمات السجون عدد من المتساقطين والمنهارين والضعاف والانذال وفي مناخ معين يتسلق على سلم المسؤوليات بعض الافراد بوصفهم زعرانا وحولهم شلة من الزعران .

وفي جميع هذه الحالات تتعرض منظمات السجون لهزات واشكالات داخلية قاسية .

أن الضوابط التنظيمية الداخلية المبنية على اسس علمية وايديولوجية ثورية لا يمكن ان تفسح المجال لحالات كهذه بالظهور في جميع الاحوال ومهما كان الوضع الاعتقالي ، أما المنظمات التي تفتقر الى الضوابط ويحمل اليها الاعضاء المتخلفون نضاليا وحضاريا وتنظيميا تخلفهم هذا فهي بالطبع مرتع خصب لهذه الاختراقات من الداخل.

أن الاحزاب الثورية والمنظمات اليسارية التي تمتلك تقاليد العمل والبناء الحزبي تبني ادواتها التنظيمية وفقا لانظمة ثورية وليست انظمة عشائرية او قبضنة ، والمسؤول عن اعتقال خمسة او عشرة فيها لا يحظى بمنزلة محترمة ، ولا يمكن ان يتسلم مسؤوليات فعلية عن رفاقه في السجن ناهيك عن ان المنظمات القيادية في السجون يجري انتخابها وفقا للاصول الحزبية ومبدأ المركزية الديمقراطية ، ولا يحق للمنهارين في التحقيق ان يرشحوا انفسهم بل قد لا يحق لهم شرف العضوية الكاملة في السجن ، رغم مسؤولية منظمتهم عنهم بشكل من الاشكال ضمن اطار السجن نفسه .

أما اذا انتقل السجناء بعد حكمهم الى السجون الداخلية مثل بئر السبع وعسقلان ونفحه، فلهذه السجون تقاليد تنظيمية راسخة مبنية علمية وخبرة طويلة لا تفسح مجالا للتسلق ، وتبقى الشلليه تفعل فعلها في المنظمات التي تفتقر الى التقاليد الثورية وفي حدود ضيقة نسبيا .

٨ ــ لم يتواني العملاء المدسوسين عن تسريب الحشيش والمخدرات الى معتقل بئر السبع في سنة من السنوات ونشرها بين اقرانهم وفي حدود مستنقعهم الى ان جرى كشف هذه الحادثة العابرة وتمت تصفيتها بعد أن تبين أن احد رجال الحرس هو الذي يزودهم بها .

عدا عن المخدرات فهم يلجأون دائما الى تسريب المسائل الحياتية الكمالية الى السجون ليصرفوا اهتمام المعتقلين اليها واستخدامها كوسيلة لخلق جو اجتماعي من حولهم ، مثل صابون من نوع جيد ، سجائر فلتر ، ملابس داخلية جميلة ، وما شابه وكل هذه الاشياء محرمة في السجون بفعل قوانين سنها المعتقلون انفسهم مثلها مثل المخدرات علما بأن المخدرات معدومة تماما في السجون السياسية وان امكن وجودها ففي اقسام العار فقط .

١٠ ــ استخدمت المخابرات عملائها بغرض التشوية الاخلاقي ضد المناضلين فقد عمد بعضهم واثناء نومه بقرب مناضل معين ، وبناء على تريب مع العملاء الاخرين أو شرطة السجن او الامن ، عمد هؤلاء الى الصراخ في الليل بعد ان يضع الواحد نفسه في وضع معين موحيا بأن جاره ينوي تنفيذ ممارسة لا اخلاقية معه .

لقد تعلم المعتقلون من خبرتهم كيف يفسرون كل حدث وكل ظاهرة تحيط بهم ، وبسبب من السيل المتدفق من الاحداث والمعايشة اليومية لها ، فان بمقدور طواقم القيادة ادراك أبعاد ، وخلفيات أي حدث ، وايلائه الاهمية التي يستحقها من الدراسة والتحليل ، ودلت

التحقيقات المثابرة والمتابعة المدققة لعملاء ومشبوهين على خطط واساليب غستابو الصهيونية مما مكن المعتقلين من ايقاع الهزائم القاسية بهم مما يدفع سلطات السجون للانتقام وممارسة القمع الوحشي كرد على فشلها المفضوح .

وهكذا يستمر الصراع الى داخل الاقبية ، ثم الى المعتقلات ، يستمر بين فئتين متناقضتي الاهداف متصارعتين بينما الذي يتغير هي ادوات الصراع وما حوله وشكله .

لقد تمكنت ادارة السجون من احداث اول فرز بين المعتقلين ذو صبغة سياسية بين تياريين وطني ، ولا وطني حينما سعت بنجاح معقول لخلق ما يسمى بالتيار الديني الذي يسمي نفسه (حزب الله) فهذا التيار الذي وجد تربة خصبة يستند في وجوده الى عدة عوامل :

١ ــ انتشار الافكار التقدمية والثورية في السجون انتشارا واسعا وعبر نضال عقائدي ونظري متواصل ، اوصل المعتقلين الى درجات متقدمة من الوعي والثقافة ، والفهم السياسي المتزايد عمقا لقضاياهم الاجتماعية والسياسية والوطنية وهذا اثار رعب الاحتلال ونقمته مما دفعه لممارسة كل اشكال الخنق ضد الثقافة والتعليم دون جدوى فالعلم في الكتب ، وفي صدور الرجال ، ولدى المعتقلين اساليبهم في الحصول عليه ونشره وتوزيعه في السجون عن طريق نسخ الكتب كل كتاب عدة نسخ وتوزيعها ، كتابة المقالات والكراسات وتوزيعها ، اصدار المجلات ، وعبر المراسلات والحلقات التثقيفية ، اي ان الثقافة حفرت طريقها عميقا في السجون وخاصة الثقافة اليسارية .

٢ ــ عظم المعتقلون من عائلات اسلامية متدينة ، وبينهم العديد من المؤمنين الذين ظلوا يمارسون عبادتهم وانتقائهم بين زملائهم الاخرين بقدر ما تسمح سلطات السجون من الحرية ، وقد ناضل المعتقلون سوية بغية

فرض صلاة الجمعة ، حيث وقف اليساريون وغيرهم وقفة صلبة في وجه الادارة ولا تزال الادارة تسمح احيانا وتمنع احيانا اخرى .

٣ ــ الخلفية الدينية للمجتمع الفلسطيني بشكل تربة خصبة للعمل فيها وخاصة ان بعض التيارات الدينية قد اخذت تنتشر في بلادنا منذ بداية السبعينات .

٤ ــ وجود عملاء ومتعاونين مع ادارة السجون بين المعتقلين طوع ارادة الادارة ويمكن استخدامهم وزجهم في التجمعات الدينية بسهولة .

٥ ــ وجود عدد من المعتقلين الذين تسلل اليأس الى نفوسهم ، وعدد من الضجريين والذين لا يرغبون في استمرار الانخراط في الالية الداخلية للحياة الاعتقالية وفقا لانظمة وتقالية السجن التي سنها المعتقلون .

في هذا المناخ عمدت الادارة الى اثارة النزعة الدينية بشكل استفزازي من خلال اعوانها بغية خلق تقاطب ديني ــ لا ديني ما دامت التربة خصبة لذلك . وقد انبرى عدد من السجناء المتعاونين مع الاحتلال لتمثيل دور رجال الدين الورعين الحريصون على الدين والمعادين للافكار اليسارية وخلقوا بعض الافتعالات والمشاحنات لدفع المؤمنين لمناصرتهم . وشيئا فشيئا اخذ يبرز التيار الديني على خلفية دينية ظاهريا ، ودوافع اخرى في الحقيقة كخطوة اولى ، الى أن انساق فيه المتدينون فعلا وانصاف المتدينين والمنافقين والكارهين للحياه المنظمة المنضبطة والمشبوهين والضجرين ، والساقطين اخلاقيا فامتزج الحابل بالنابل . ويسرت الادارة لهم شيئا فشيئا وكلما اقتضت المصلحة التجمهر والتجمع في غرف معينة ومع الايام انطلت الحيلة على العديد من المؤمنين الذين وجدوا في هذا التجمع روح الجماعة المؤمنة (والذين هداهم الله بعد غيهم) واخذت الادارة تستثمر هذا التجمع لشق وحدة السجون واثارة النزاعات بين المعتقلين وخاصة بعد ان برز اعوان السلطة كرجال دين (تقاة) يتزعمون

في التيارات الدينية او يؤثرون في زعامتها . ان لعبة هذا التيار لم تنطل على كل المؤمنين فالعديد منهم ظل خارج هذا التيار وخاصة بعد أن كشف عن وجهه البلا وطني ، واخذ يمايز بين ادارة السجون والمعتقلين ويفضل ادارة السجون (الكتابية) على الوطنيون (الملاحدة) وبالتالي فانهم على استعداد للتعاون مع ادارة السجن (المؤمنة) ضد الوطنيين (الكفرة) وبالفعل حصلت بعض الاعتداءات من قبلهم على المعتقلين في سجن الرملة ، وبئر السبع ، ونابلس ، علاوة على كسر الاضرابات وعدم المشاركة بها . ان النظام الاعتقالي وتقاليد السجون تتيح للمعتقلين بين بعضهم البعض ممارسة اية معتقد ديني بحرية ، ولم تكن هناك اية مضايقات لفرز هذا التيار الذي اصبح ملجأ لمطاردين من قبل المعتقلين على قضايا امنية او اخلاقية . وخاصة ان موقف التيار الديني من هؤلاء هو القبول الفوري ومباركتهم ويدعون الله لهم بالغفران (والله وحده هو مفتش القلوب) وهو الذي يعاقب ويعفو ، وهم يقبلون الهارب اليهم حتى ولو كانت عمالته ظاهرة على رؤوس الاشهاد ويحمونه ويدافعون عنه ويعاقبوه بان (يصلي) .

لقد خلق التيار الديني ازمة مؤثرة في السجون الى ان تم تشذيبه وقصقصه اجنحته دون المساس بالحرية الدينية وحق العبادة والاعتقاد الديني الافراد المؤمنين .

في السجون ، وفي بداية اعتقالات الحركة الوطنية حيث لم يكن وضع السجون قد تطور وانتظم بعد ، وحينما يحقق السجين من انتقاله من عالم خارج السجن الى عالم السجن بما فيه من ازمات وعذابات ، وحينما كان السجين يجهل مستقبله وما حوله الا حقيقة واحدة كونه يعيش بين جدران مقفلة عليه ، يبدا بالعودة الى نفسه وافكاره واحلامه وتعاوناته وخيالاته ، ويتحسس ازمته التي لا حول له ولا طول فيها وفي حلها ، تنتابه مشاعر عديدة ومن بينها مشاعر دينية هروبية ، ومشاعر انتقامية

من الاحتلال ومن المجتمع ايضا ، وتبدا سلوكات المساجين تتحدد وفقا للواقع الجديد ، ولان خلفية معظم المعتقلين مهما كان انتمائهم السياسي دينية ، ولم يكن الفكر الثوري قد نضج وتخمر في السجون بعد ، في ظروف كهذه صارت الصلاة والتعبد ملجأ لعدد غير قليل من المعتقلين ، وعدد اخر كفر بكل شيء ، بالدين والصلاة والنظام ، وآخرين فقدوا الامل بأي شيء .. فتجد هذا ينصرف الى الصلاة اليوم ويتركها غدا ، وذاك يظهر بمنتهى الكفر والالحاد وفجأة يتوضأ ويصلي ، وهذا يقضي معظم وقته نائما ان سمحت بذلك سلطات الاحتلال ، وذاك يظهر المزيد من الاهتمام بطعامه ، وغيرهم يبدا نهاره بالالعاب من الصباح وحتى المساء وهذه النماذج تغير من مواقعها باستمرار لاتستقر على شيء . ومن بينهم اخذ يظهر فريق يعي وجوده ويتصرف على انه استمرار للوجود الوطني داخل السجون واخذوا ينشرون آراؤهم وافكارهم بشتى السبل لتعزيز الانتظام والتطور ، وتصليب الانتماء الوطني وتعميق الارتباط الثوري فكريا وعمليا . كان هذا الفريق يشق طريق بمنتهى الصعوبة ، يشق طريقه وسط ازمة عارمة يعيها ويفهمها وقد خبرها من تجارب الاعتقال في عهد الاردن ، فمن بينهم من كان معتقلا في السجون الاردنية والسورية وغيرها ابان نضالاتهم الوطنية . وقد انفرد طلائعيو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بهذا الدور بحكم تجربتهم الحزبية ووعيهم السياسي وانتمائهم الوطني الاكثر خبرة وتجربة ، والاعمق وعيا وارتباطا وناضلوا بكل قواهم لترتيب اوضاع المعتقلين المنتمين لاطار جبهتهم . وهكذا بدا الانتظام يشق طريقه في السجون رويدا رويدا وبصعوبة كانهم فاتحون لعالم غريب .

ولان نشاط كهذا قد اعطى ثمارا متميزة على من قبل الانضواء تحت لوائه في المجالات الحياتية اليومية ، والثقافية والتربية فقد شكل نموذجا حيا لبقية المعتقلين

والاطر الوطنية الاخرى عبر الثلاث والاربع سنوات الاولى من حياة الاعتقال فحذو حذوه . وقد استكملت البنى التنظيمية بالكامل وخضع لها جميع المعتقلين في بدايات عام ٧٥ حيث صدرت القرارات الهامة التي تعتبر كل سجين في السجون اعتقل باسم منظمة فلسطينية معينة هو خاضع لها ولقراراتها بشكل من الاشكال حتى خروجه من السجن ، اما من يختلف على انتمائهم فتحل قضاياهم بطريقة ما أو بواسطة لجان تشكل لهذا الغرض ومنذ ذلك الحين والاوضاع في السجون مستمرة في انتظامها ورقيها وتطورها سوى بروز التيار الديني المذكور سابقا والذي اجبر افراده في مختلف السجون باستثناء سجن الرملة على الخضوع بطريقة او باخرى للاطر التنظيمية التي اعتقلوا وهم منها .

في بداية هذه الازمة لوحظت ظاهرة تستحق الانتباه فانه بالرغم من حداثة التجربة الاعتقالية الا ان قيما واخلاقيات معينة اخذت في الظهور والاستقرار بما يتناسب مع تطور الوضع الاعتقالي ، والمعتقلون عموما في السجن الواحد يتصرفون كوحدة اجتماعية ، كجماعة واحدة ذات قيم واخلاق واعراف ونظم بسيطة هي التي تطورت مع الزمن وازدادت رقيا .

خلال رحلة كهذه كان كل من يخرج عن هذه القيم يتعرض لعقاب ما ، بطريقة أو باخرى أدناها فقدان الاحترام بين الاخرين ، أو طرده في ذلك ليصبح وحيدا معزولا في مكان نومه أو حتى ضربه جسديا اذا كان جنوحه يستاهل ذلك .

ولان الوعي السياسي ، والوعي العام لظروف الاعتقال لم تكن قد ترقت بعد ، فان بعض هؤلاء المنحرفين يلجأون للصلاه مع الشيوخ والمؤمنين كنوع من الهروب من وضعهم الى ان يفرج عنهم داخل الغرفة فيعودوا لحيانهم العادية كالاخرين .

اما الملفت في المسألة فان الذين تحوم حولهم شبهات التعاون مع سلطات السجون كانوا هم ايضا ينصرفون الى الصلاة ليحتموا بالاخلاق الدينية النموذجية ما دام ظاهرهم يصلي رغم ان في قلوبهم مرض . ولان المعتقلين درجوا على احترام الصلاة والمصلين فقد اصبحت الصلاة ملجأ لمن ينكشف بقضايا اخلاقية وامنية وكانت بالفعل توفر لهم الحماية في البداية الى أن ادرك الجميع ، المصلون وغير المصلون هذه الحقائق .

ومن ناحية أخرى وفي ظل هذا الوضع فقد اخذ عدد من المشبوهين وبعد ان درجوا في الصلاة والعبادة لفترة زمنية معقولة اخذوا يشنون حملة شعواء من خلال صلاة الجمعة على المنظمات السياسية (الكافرة والملحدة ، التي يجب محاربتها قبل اليهود) ساعين بذلك ايضا الى الدعوة الدينية ، لانه في ظروف السجن لا تجدي الدعوة باسلوب كهذا ، بل خلق ازمات واستقطابا بطابع غير سياسي ، وتغيب الانتماء الوطني واول من تزعم هذا النهج هو الشيخ احمد من نابلس حينما كان في سجن بئر السبع بوصفه السجن الوحيد في ذلك الوقت الذي يوفر مناخا كهذا ، وبوصفه السجن الذي تطورت فيه العلاقات الداخلية تطورا ملموسا اخذ يشكل عقبة كأداء في طريق مخططات ادارة السجون ، وقد تمكن المعتقلون مجتمعين من كل القوى ، من منهم يصلي ، ومن لايصلي من كشف لعبة كهذه وافشالها الى ان عادت للظهور والتبلور من جديد . وظهر التيار الديني بطريقة او بأخرى، رظل ملجأ لهاربين من انفسهم وللهاربين من المعتقلين بسبب ما ارتكبوه من افعال مشينة . والمصيبة الكبرى تكون حينما يتمكن هؤلاء المتساقطين من السيطرة على التيار الديني واثارة نعرات العداء عند افراده ضد الوطنية والوطنيين (هؤلاء شيوعيين ملاحدة عملاء لاسرائيل وامريكا فيجب محاربتهم اولا وقبل غيرهم ، وان اليهود كتابيين منهم اقرب لنا من هؤلاء الكفره) هذه الفكرة

مع المعتقلين الجدد وفي اقبية التحقيق ، وظلوا ملجـــا للمتساقطين الجدد ، والساقطين اخلاقيا .

وبواسطة اقسام العار هذه مارست سلطـات الاحتلال شتى المضايقات والارباكات ضد الوطنيين ، ومع انها لم تفرج عن احد منهم ، ومن بينهم من قضى فـــي السجن عشر سنوات واحدى عشر سنة حتى الان ، الا انهم اداة طيعة بيد السلطات ، ويعيشون حياة السجن والقيد كغيرهم من السجناء . وهم وقد ايدوا ايضا زيارة السادات وكامب ديفيد ، وشاركوا في عمليات التحقيـق مع المعتقلين الجدد ويتلقون تدريبات ودورات علـــى التجسس وخدمة الاحتلال ولا يستبعد ان تفرج سلطـات الاحتلال عن بعضهم ليمارسوا قذاراتهم على المكشـوف خارج السجون . ومن اخطر العناصر العميلة على الاطلاق عبد المجيد الرجوب الذي اوقع بالعديد من المعتقلين الجدد متقمصا شخصية القائد المسؤول عن امن السجون الذي من شأنه اصطياد الاغرار من المعتقلين المستحدثين .

وهكذا فان الصراع بين الحركة الوطنية وسلطات الاحتلال يستمر في جميع الاحوال ويأخذ اشكالا متعددة ، وتظل اهداف الاحتلال ضد الحركة الوطنية واحدة ومحاولة اسقاطهم وتفريقهم وطنيا عبر اشكال متعددة من العذاب والمعاناة .

هذه المعاناة هي التي تربى خلالها الوطنيون فـي السجون وارتقت أوضاعهم ، ونضجت افكارهم وتعمـق انتماؤهم الوطني والايديولوجي ، وتراكمت خبراتهـــم النضالية ، تضاعف تحديهم لسلطات القمع والجلاديـن الى حد يفوق ما توقعه الاحتلال مرات عديدة . وقـــد حاصروا التيار الديني وضيقوا الخناق على اقسام العار وحافظوا على اربعة اخماس المعتقلات بدون تلوث .

لقد ناضل المعتقلون ولم يتوقفوا عن النضال طوال سني حياتهم القاسية هذه ، وفي ظل المؤامرات الفاشيـة التي تحاك ضدهم ، وهم طوال الوقت ظهرهم الى الجدار

الرئيسية التي يجري عليها التحريض في الغالب ، بغيـة ابعاد الناس عن الانتماء الوطني بل وادانة الانتماء الوطني والحركة الوطنية وصرف اهتمام الفرد لذاتيته فقط بمـا يعكسه ذلك سلب على نضالات السجناء واضراباتهـــم ونفسياتهم .

اقســام العــار

لقد احدث انشقاق التيار الديني هزة مؤثرة فـي صفوف المعتقلين لما سببه من مشاكل بينهم غير ان آثـار وجوده قد تقلصت الى حد ما وانحرق وطنيا لاسباب عدة منها توجيه متدينوا سجن الرملة رسالة تؤيد زيـــارة السادات للقدس وانهياره الوطني وتأيده مؤامرة كامـب ديفيد .

ومن جانب آخر بدات تظهر صورة انشقاقية اخرى احدثت فرزا عاما في الانتماء الوطني واللا وطني حينمـا تجمع الهاربون من غرف الحركة الوطنية في غرف واقسام خاصة بهم .

في البداية كانت الحالة فردية ، فحينمـا يجـــري التحقيق مع احد العملاء في السجن ويعترف بقذارتـــه وانحطاطه الوطني ، ويشعر بالتهديد يسلم نفسه لادارة السجن حيثما يوضع في الزنازين لحمايته ويستمر بوجوده في الزنازين لمدة طويلة تزيد على اشهر بل سنوات احيانا. ثم سلكت ادارة السجن سلوكا آخر بحيث اخذت تجمـع هؤلاء الهاربين المتساقطين في اكسات سجن الرملة ، وبعد ان زاد عددهم فتحت لهم غرفة خاصة في قسم معزول في سجن نابلس ، ونقلت بعضهم الى قسم في سجن عسقلان. وهكذا ولدت اقسام العار في السجون والزنازين واخذت تمارس دورا تخريبيا وعدوانيا على بقية المعتقلين .

ورغم ان المعتقلين الوطنيين سيطروا على الموقف ، الا ان هؤلاء الانذال ظلوا يمارسون ادوارا قذرة وخاصة

الاخير وليس امامهم سوى الصبر الذي يغذيه ايمان عميق وحب لاينضب لبلدهم وحريتهم . وهم اذ يصمدون في ظروف العسف القاسية هذه انما يكتبون ملحمة بطولية من ابسل ملاحم البطولة والصمود والتحدي مخلدين بذلك نضالاتهم في نفوس الجماهير التي تحتضنهم ويحتضنوها .

السجناء الوطنيون يواجهون عسف الاحتلال بالصبر المؤمن الذي لاينتهي ، وبالاضراب عن الطعام والزيارة والفورة ، والامتناع عن استلام مخصصاتهم كتعبير عن احتجاجاتهم او دعما لمطالبهم البسيطة الحياتية المشروعة في كل سجون العالم والممنوعة في سجون الاحتلال الاسرائيلي .

وهم اذ دفعوا من وقتهم وجهدهم في النضال قبل الاعتقال ، ودفعوا من اجسادهم واعصابهم ولحمهم ودمهم في اقبية التحقيق ، فانهم لايزالوا يدفعون التضحية تلو التضحية بوصفها واجبا مقدسا في كفاحهم العنيد المستمر ضد سلطات السجون . وفي اجواء التضحية هذه يغمرهم الفرح ، فرح المناضلين الاشداء ، بقدرتهم على الاستمرار في النضال ، وهم في ظل اجواء التضحية هذه يمارسون فرحهم وحياتهم ، تغمرهم وتنهال عليهم النكات والضحكات ، عندما تنهال عليهم عصي الجلادين . فهم مناضلون ويحبون الحياة .

عندما يساقون الى الساحة للتفتيش ، والجلادون يحيطون بهم من كل جانب والحراس حملة البنادق على اسطح الغرف ، والمناوبون يعسفون ويبطشون ، يتمازح المناضلون ، ويتندرون بمواقف من عليهم دور التفتيش ويضحكون بمرح ... ما اروعهم هؤلاء ، الذين يتسلل الفرح الى نفوسهم في احلك اللحظات .. وعندما يفوتون على المفتشين بعض حاجاتهم الثمينة .. اقلامهم ، كراريسهم .. فانهم يتدافعون الى الغرف فرحين كمن حقق نصرا .. اما عذاب التفتيش فقد غسلوه عن

اجسادهم لدى دخولهم ابواب غرفهم ، فينصرفون الى حياتهم وجلساتهم التثقيفية ونشاطهم الداخلي رغما عن عيون الحراس التي تقذفهم بشررها .. وهكذا تسير الحياة . فالصبر بالنسبة للمناضل ، ونسيان الالم سريعا هو غذاء هذه الحياة القاسية ، ولكنه غذاء يكفي ليس للشبع فحسب بل وللنمو ايضا . تنمو الثورية وينمو معها الحقد على اعداء الحياة والانسان والوطن والشعب .

ليس هذا غريبا على المعتقلين الفلسطينيين ، فروتين حياتهم هكذا .. زجر وقهر وحرمان ، تغسله النوادر والفكاهات اللطيفة فتنقضي السنون يوما يوما دون توقف والامل ينمو رويدا رويدا بحياة حرة طليقة وانتصار محتوم .

لقد نزل السجن في سنوات مكافحة الاحتلال ما يزيد على ١٠٠الف معتقل فلسطيني حسب احصائيات الصليب الاحمر . ولا زال يمضي فيها اربعة الاف مناضل امضى معظمهم ما يزيد على عشرة اعوام . وقد تخرج من مدرسة السجون مئات القادة ومئات الكادرات الصلبة التي تحتل موقعا طليعيا وريادية في الثورة . وهناك المزيد منهم ينتظرون لحظة تحررهم للانخراط في صفوف الثورة من جديد بخبرات واسعة وارادة فولاذية صقلتها سنوات المعاناة ، صقلتها عذابات ١٠-١٥ عاما من النضال والتثقيف والمراس ، انه بحق قد اصبحت سجون العدو الصهيوني مدرسة كبرى للثورة الفلسطينية .

مفاهيم عامة

سنتعرض هنا الى بعض المفاهيم التي تشكل خلفية معقولة اجتماعيا كتبريرات ! للاعتراف والانهيار ، أو تشكل احكاما عامة على نتائج المواقف في التحقيق .

١ ــ العيب والشرف

من العار والعيب أن يرى المرأ قريبته وقد جلبت بنفسها ، بلحمها ودمها وجمالها وعرضها معها ، الى غرف التحقيق . ومن العار أن يسكت المرء على ذلك . فما العمل ؟

أثناء عرضنا لاساليب التحقيق ، لاحظنا أن الجلادين واستنادا لفهمهم للخلفية الاجتماعية للسجين المعين والنقاط الحساسة التي تثيره فانهم وكوسيلة ضغط يجلبون احد اقربائه أو قريباته الى غرف التحقيق ويضربونها فعلا ، ويعرون جسدها ويأخذون في تهديدها وربما طلبوا منها اثناء ذلك ان تنصح قريبها بالاعتراف واعطاء المحققين ما يردون ، وخشية المعتقل (الزائفة) على عرضه وشرفه ودفعا للعار ! ينهار ويتجاوب مع المحققين ، ويعترف عن عشرة اشخاص مثلا يشي بهم وهو مدركا ما سيلاقيهم من خلال تجربته المباشرة ، وبين العشرة فتاة او اثنتين . فأين العيب والشرف في المسألة على هذا الاساس .

قبل كل شيء هناك سؤال يطرح نفسه : هل من العيب والعار ان يشي المرء بزملائه ؟ هل من العيب والعار وطعنا للشرف ان يشي المرء بفتاة او اثنتين ويقدمهما لقمة دسمة للسلطات ؟ ايعتبر عيبا وعارا ان يقبل بوجود قريبته في غرف التحقيق كوسيلة ضغط عليه ، وليس عيبا ان يكون هو نفسه سببا مباشرا في احضار فتيات اخرى للسجن والتعذيب والتعرية والتهديد بطعن (الشرف) ؟

سندخل في المسألة من زاوية اخرى : كثيرا ما يلجأ المحققون لاستخدام الشتائم بل الشتائم القذرة ضد المعتقلين اثناء التحقيق ، وتهديدهم بممارسة اللواط معهم ، وشتم اخواتهم واعراض اخواتهم .. يا للعيب والعار !

وبعض المعتقلين لا يستطيع تحمل مثل هذه الاهانات وهذا المساس الخطير ! (بالشرف) ، ولان الواحد من هذه النوعية لا يملك حولا ولا طولا للدفاع عن شرفه المهان ، ولانه من (العيب والعار) ان يتحمل ، فليس من شيء (يسكت) المحقق سوى الاعترافات والوشاية بالاخرين ! يا للسخف ..

وهنا نطرح نفس الاسئلة : هل يمس الشرف بشتيمه ولا يمس بالخيانة الوطنية والوشاية بالزملاء وافشاء اسرارهم ؟ ايهما اكثر عيبا ان يؤدي المرء بمنظمته واسرارها في ايدي المخابرات ، ام كلمة عابرة تقال ؟ وهل يتوقع المرء ان تقدم له باقات الورد في اقبية التحقيق ام الضرب والاهانات والشتائم التي تعبر عن غيظ المحقق وحنقه .

يقول رئيس مجموعة (الكنيسة) التي اعتقلت سنة ١٩٧٥ في سجن الخليل ، والذي وشى ب ٢٣ شخصا آخر ، بانه اعترف بعد أن صفعه رجل المخابرات صفعة قوية ، وشتم عرضه ابشع الشتائم ووصفه بالمخنث مما افقده القدرة على التحمل ! فتساقط وقدم ٢٣ شخصا بنشاطهم الوطني ، يا للعار !

كيف نحلل الحالات المذكورة اعلاه ؟

لا يعقل ان يكون تهديدا ، أو حتى ما هو اكثر من التهديد ، ولا يعقل أن تكون مجموعة شتائم يسمعها الناس كل يوم بطريقة أو بأخرى من بعضهم البعض ، لا يمكن ان تكون هذه هي سبب الانهيار . **ان الانهيار يكمن** في الشخص ذاته . فلديه هو استعداد مسبق للاعتراف والصمود بنسب متفاوتة ، ولانه يهتم **بنفسه فقط ولا** يشعر باهمية اية ارتباطات ، ولا حتى بخطر اية نتائج ، فان صفعة واحدة او جولة تعذيب تنمي لديه الاستعداد للانهيار والاعتراف نتيجة لحسابات خاطئة يقصد منها حماية الذات ، تلك الحماية التي تحولت في مناخ التحقيق الى أهم غاية بل الغاية الوحيدة .

ليس العيب والعار والشرف اذن شكلت دوافع الانهيار سواء كان المعتقل من النوع الذي يعي وجوده النضالي اولا . فلو كان العيب هو السبب ، اي لو كان العيب هو محرك ودافع لهذا النوع من الناس ، لمنعه من زج الاخرين في السجن والوشاية بهم ، لان ذلك ايضا من أقبح العيوب بل اقبحها على الاطلاق من وجهة نظر نضالية . ليس الشرف أن يعترف المناضل صونا لنفسه من الشتائم القبيحة ، بل الشرف أن يصمد ، فالصمود هو وسام الشرف وهو الذي يمنع وقوع العيب والخزي من الزملاء واهلهم ، ومن الحزب او المنظمة والحركة الوطنية .

هذا بالنسبة للشخص العادي ، أما بالنسبة للمناضل الثوري ، اذا ما حاول تبرير اعترافه بسخافات كهذه فانه انما يدلل على حجم السقوط والتردي الذي لحق به حيث تحول في التحقيق من مناضل يضحي ويبذل لصالح الثورة ، الى ملقط طيع بيد المحققين يقبضون بواسطته عليه نفسه ، وعلى اعضاء واسرار المنظمة النضالية التي ينتمي اليها .

وهؤلاء جميعا عند سقوطهم يكونوا قد فقدوا كل احساس بالعيب والشرف والكرامة ، وبدلا من أن يحضوا انفسهم بالصمود ، تدحرجوا الى الهاوية .

٢ ــ التعذيب والصبر

من العادي جدا أن يتعرض مناضلوا الحركة الوطنية الفلسطينية الى اقسى انواع التعذيب لدى وقوعهم في ايدي الجلادين ويتناسب حجم التعذيب طرديا مع صمودهم فكلما ابدي مزيدا من روح الصمود والتحدي ، ازدادت محاولات المحققين لكسر صمود المناضل وانقاذ صبره واسقاطه . وفي حقيقة الحال فقد تعرض مناضلون عديدون

لجولات قاسية من التعذيب أياما متواصلة ، بل اسابيع دون أن ينبسوا ببنت شفة وهذا هو الامر الطبيعي ، وهذا هو الموقف الثوري البطولي .

ومن بعض هذه الحالات من يكسر صموده بعد عدة جولات قاسية فيعترف بما لديه او بعض ، ولدى تفسيره لسبب هذا الاعتراف يطرح الضرب والتعذيب .. عذبوني ، كسروني ، حطموني ، لم يكن أمامي خيار! على ماذا تدل هذه الاجابة ؟

بعد صموده المتواصل كانت حزمة اخرى من العصي كفيلة بسحقه هذا هو واقع الحال ، فبدلا من أن يصمد في الجولة الاخيرة التي غالبا ما تتصف بقسوة شديدة ، ليتوج نفسه بشرف الصمود والبطولة ، كانت الجولة الاخيرة موعد سقوطه بل عنوان سقوطه وتبريرا له ، وكأن للسقوط تبريرات !

من المناسب الاشارة اولا انه من الشرف العظيم أن يقول المناضل عذبوني وحطموني ، ولكني صمدت ولم أبح بشيء وهذا هو الموقف النضالي الثوري . اما أن يقول عذبوني فاعترفت فهذا تبرير سخيف لان كل المناضلين في العالم يتعرضون للتعذيب لدى اعتقالهم من السلطات التي ولى زمانها ، السلطات الرجعية .

والان هل اعترف هذا النوع من المعتقلين لان صبره قد نفذ ؟ أن الصبر قوة معنوية موجودة لدى كل انسان ، وهو يغذي نفسه بها في اية حال من الاحوال وبأي نسبة كانت استنادا الى ايمانه العميق بمبادئه وقيمه ووضعه الشخصي والاجتماعي واستنادا الى ايمانه بالمستقبل وتطلعاته السياسية والثورية وأي تطلعات اخرى . فالصبر ليس شيئا ما محدود وموضوع في كيس يمكن افراغه ، انه قوة روحية جسدية ، غذاء ما داخلي .وليس للصبر حدود الا في الحالات الجسمية والفسيولوجية . مثلا يستطيع الانسان ان يقف لمدة طويلة ثم يشعر بالتعب في ساقيه وجسمه، ويتحامل على نفسه ويظل واقفا الى

حد لا تستطيع ارجله ان تحمله فينهار على الارض ، وهنا تتفاوت قدرة الانسان على الاحتمال اما الصبر بقوة معنوية فهو مربوط بالارادة وفي هذا المجال مربوط بالارادة في الصمود والتحدي ، الارادة الثورية القوية التي لا تلين ، والمقصود ايضاحه هنا ان الصبر مسألة ارادية الى حد غير متناه بخلاف التحمل الجسمي الغير ارادي المذكور في المثال السابق .

اذن عندما ينفذ الصبر من هذا النوع فانه ينفذ ارادیا وهو ينفذ نفاذا واعيا دون شك ، أي بسبب تنامي رغبة داخلية بوضع حد له اذا توجه المرء توجها كهذا ، وينمو ويزداد ويتعمق اذا اعتبره الانسان سلاحا حادا وضروريا لاستمرار مواقفه الشجاعة وصموده الحديدي.

وهل انتصرت ثورة في التاريخ دون أن يتحمل ابطالها قدرا هائلا من المعاناه بصبر وثبات وبطولة ؟ ان الثورات تلد من المعاناة وغالبا ما تبدا الهزيمة من نفوس المقاتلين انفسهم .

أن صبر المناضل واحتماله لكل الاثار الناجمة عن التحقيق ، كهدف يضعه نصب عينية منذ البداية ، يشكل الصخرة الصلدة التي تتحطم عليها كل اساليب التعذيب ووحشيته وفي هذه الحالة لن يكون التعذيب الجسدي سببا في نفاذ الصبر والسقوط ، بل شاحذا جديدا يقوي الهمة ويصلب العزيمة مما يؤدي مرة اخرى الى تعزيز الصبر والصمود ، وهنا لن تكون قولة (نفذ صبري ، .. لم استطع الصبر ... التعذيب فوق طاقتي ... لن تكون هذه الاقوال الا تبريرا سطحيا عن حالة السقوط والانهيار ولن تكون الا شهادة ووصمة على تهاوي شخص كهذا لمجرد انه تعذب .

أن المحقق يملك ان يضرب ولكنه لا يملك ابدا ما يحرك اللسان وكل حالات الاعتراف التي وقعت لا يبررها أية اقوال على الاطلاق . غير انه ونتيجة لما يروى عن قسوة التعذيب ، ولشيوع فكرة تبرير الاعتراف بقسوة

التعذيب فأن العشرات ممن افرغوا ما في جعبتهم منذ البدايات الاولى لعملية التحقيق ، ينزلون الى السجون مدعين بانهم قاسوا الويلات فاعترفوا ، ولان عددا اخر قد سبقهم الى السجن بهذا التبرير فانه يلقى احيانا آذانا صاغية ويروج له من جديد . وفي الحقيقة ما نفع التبريرات بعد انكسار الزجاجة وتفريغ ما بداخلها . فالاحزاب الثورية لا ترحم من يفشي اسرارها ويشي برفاقه ولا تقبل التبريرات .

٣ — مسكوا عندي ... أي ضبطوا في حوزتي

— لماذا اعتقت ؟ — لم يكن اية مهرب فقط ضبطوا بحوزتي منشورا .

— بماذا اعترفت ؟ — لم استطع اخفاء شيء فالحقائق دامغة .

— وهل يوجد في المنشور ما يدل على انك القيت قنبلة على دوريات العدو ؟

— لا ! ولكن لم أجد سبيلا الى اخفاء شيء .

هذه النغمة النشاز ، ما أحقرها ، فان تم ضبط منشور سياسي بحوزة المناضل ، قد يكون بحوزة اية انسان ، يعتبر ركيزة لانهياره في التحقيق والبوح بكل شيء ، بل التبرع بكل شيء لصندوق جمع المعلومات لصالح اجهزة أمن الاحتلال ، وضد الرفاق والمناضلين واسرارهم الهامة ... هذا هو مدلول هذه النغمة .

فبدلا من أن ينكر حتى وجود المنشور ، أو يدعي بانه وجده في الشارع ولا يعرف عنه شيئا ، يعتبر نفسه سقط ولا يستطيع القيام ، فكيف لو ضبطوا معه رسالة سرية ، فانه سيشي بمن لايزالوا لم ينتظموا معه ، بل بمن يفكر بينه وبين نفسه في تجنيدهم .

ليس صحيحا ان المستمسكات المادية مبررا للانهيار

والشاقط ، فهذه مسائل يمكن تبريرها بل من الافضل انكارها حتى ولو ضبطت في البيت او في الجيب ، لان خير وسيلة لاقفال الملف هي عدم فتحه نهائيا ، وانكار ما هو بائن منه حفظا على ما هو مخفي . وفي تجارب المناضلين الوطنيين في الحركة الفلسطينية هناك من انكر كلية اي علاقة له بما ضبطوه عنده في البيت ، بل حتى ادعى ان المخابرات نفسها هي التي وضعته دون علمه ، وهناك من ادعى انه وجدها في مكان ما فحسب ولا يعرف اية شيء عن مصدرها وغايتها ، وبعضهم انكر كلية معرفته بما هو موجود داخل الرزمة التي ضبطت معه أو التي نقلها ووضعها في المكان المعين ، وانه لا صلة له مطلقا بأي شيء من قريب أو بعيد يدينه بمسائل كهذه ، وفي هذه الحالات لا تستطيع قوى الجلادين ان تستمر في التحقيق الى الابد بل انها ستسلم في النهاية بحقيقة ان المناضل هذا لن يقول شيئا على اقل تقدير وهذا جل ما يبغيه المناضل من موقفه البطولي .

أن فكرة (عندي هذا الشيء أو ذاك) لم تعد مبررا لكشف أية اسرار . ولكن لنسلم جدلا بأن المناضل لم يستطع التملص من المستمسك الذي وجدوه لديه ، فان علاقاته الاخرى ونشاطاته الاخرى لم يقبضوا عليها هي ايضا ، ولن يجدوا في زجاجة مولوتوف ، أو قنبلة ، أو منشور سياسي أو نشرة داخلية او جماهيرية ، لن يجدوا فيها ما يفيدهم بانه ينتمي الى الحزب الفلاني ، وانه عضو في الخلية الفلانية ، وقام بهذا النشاط أو ذاك ولولا استعداده الذاتي لقول هذه المعلومات لما كشفت على الاطلاق .

أن العديد من المناضلين برروا للمحققين علاقتهم بهذه المستمسكات بطرق لم تمس علاقاتهم مطلقا ولم تؤد الى كشف أي سر حقيقي مهما كانت اهميته ، وفي هذا رد مفحم وفاصل على الادعاء بالتهاوي نتيجة وجود مستمسك مادي ما ضبط بالحوزة .

الانسان الصعب في الموقف الصعب ، فما ان يضبطوا مع مناضل شيئا ما حتى يكون في موقف صعب ولكنه غامض على المحققين انه ايضا صعب عليهم ، واجتراح بطولة الصمود في هذه الحالة مسالة واقعية وليست معجزة فليس من عادة المحققين التركيز على الاسئلة التي نكرها المعتقل ، وبامكانه الصمود وصفع المحققين وادلتهم والخروج من التحقيق بشرف .

٤ ــ فلان قال كل شيء ...

لماذا تقوم السلطات باعتقال مزيد من الناس ؟ غالبا ما يكون الاعتقال بسبب واحدا من العوامل التالية :ــ

١ ــ ان يضبط في عمل جماهيري معين مثل مظاهرة اعتصام ، اضراب .

٢ ــ او يضبط وهو يوزع منشورات .

٣ ــ او يضبت وهو بصدد القيام بعمل نضالي ما فيقبض عليه الجيش .

٤ ــ نتيجة لشبهة بسبب وجوده في مكان ما .

٥ ــ بسبب وشاية من العملاء والمتعاونين مع رجال السلطة .

٦ ــ بسبب اعتراف او وشاية احد رفاقه الذي اعتقل وادلى بمعلومات عن نشاط المناضلين الذين معه .

٧ ــ بسبب اباحته هو لاسراره أمام الاخرين فتصل بطريقة او باخرى لاجهزة الامن .

٨ ــ بسبب مداهمة بيت معين وهو موجود فيه اثناء ذلك .

٩ ــ رسالة او مستمسك كتابي يسقط بيد المخابرات على الجسر او مع شخص ما واسمه الصريح مكتوب فيه .

١٠ ــ يعتقل الفلسطيني لانه قريب فلان او صديق علان من المناضلين .

بالاجمال هناك عدة اسباب اذا توفر احدها فانه يكفي لان يقبض على المواطن الفلسطيني ويزج به في السجن ، ويقاد الى التحقيق . وبمعنى آخر فان الاعتقال بالصدفة ودون ترتيب مسبق من المخابرات لاعتقال الشخص ممكن الحدوث غير ان قيادته الى اقبية التحقيق والتركيز في التحقيق معه بشكل منظم لايأتي نتيجة اعتقال صدفي ودون سابق معلومات .

ان الذين تعتقلهم السلطات نتيجة لمشاركتهم في مظاهرات واعتصامات ونشاطات جماهيرية لا يتعرضون للتحقيق الذي يجري مع من قدمت ضدهم وشايات ، أو ادلى زملائهم عنهم بمعلومات . والذين يعتقلون بسبب مشاركتهم في النضالات الجماهيرية العامة ، انما يطلب منهم الاعتراف باشتراكهم في هذه النضالات فقط ، وعلى اكثر حد يطلب منهم معلومات عن هذا النشاط ومن نظمه ، ومن دفع هذا الشخص او ذاك للاشتراك فيه وهذه غايات قد لا يدركها المحققون ابدا ، وقد لا يزيد كسبهم عن اعتراف بالتواجد في مكان الحدث ، وحتى هذا يمكن انكاره رغم انه قبض على الشخص مع التجمع الذي كان يقوم بالنشاط .

ان التحقيق حول انشطة كهذه محدود الهدف رغم ان المواطن قد يتعرض لقسوة الضرب والتعذيب من قبل الجيش وحرس الحدود كنوع من الارهاب والانتقام

اما النوع الثاني وهم الذين يقبض عليهم وتتوفر لدى السلطات معلومات او شكوك او تقديرات عن انتماءاتهم ونشاطاتهم ، واولئك الذين يقبض عليهم في مكان تم فيه حدث نضالي مثل القاء قنبلة او اشتباك مسلح او شيء مشابه ، فانهم يتعرضون لتحقيق منظم وهادف وغاياته غير محدودة ونتائجه مرتبطة تماما بموقف المناضل ومدى صموده او مدى انهياره .

وفي غالب الحالات التي تم فيها اعتقالات من هذا النوع فان الوشاية ، والاعتراف من قبل الغير تشكل أكثر الاسباب شيوعا في تاريخ الاعتقال الفلسطيني من قبل اجهزة المخابرات مباشرة .

وبمعنى آخر فانه من المحتمل جدا بالنسبة لاي معتقل يساق الى اقبية التعذيب الخاصة بالمخابرات ، ان يكون قد اعتقل بسبب اعتراف اشخاص آخرين معتقلين عنه وعن نشاطه او انتمائه واحتمال نشاطه . فهل هذا النوع من المعتقلين مطالبون بالصمود ؟!

ان الذي يعتقل ويد المخابرات فارغة بالنسبة له يمثل هو بنفسه السور او الجدار الذي يحيط به ولا يمكن خرقه الا من الداخل فالمخابرات لا تملك اية معلومات او مستمسكات ، وتعتمد على ظنون او افتراضات ، او انها تريد ان تتحقق من علاقة المواطن من نضال معين وقع في مكان تواجد هو فيه ، وقد يكون مواطن كهذا منتميا للثورة وقد لا يكون ، وان كان منتميا لاحدى الجهات فقد تتهمه المخابرات بالانتماء لجهة اخرى . وهكذا يكون صمود المناضل حرزه الوحيد والامين على انتماءه ونضالاته وحزبه وشخصه ، ومن حسن الحظ ان هذا النوع من المعتقلين لا يملك ايه تبرير للبوح باسراره . ورجال السلطة لا يجدون مدخلا يواجهونه به سوى الادعاء بمعرفة كلشيء وان الطبخة مكشوفة ، بالاضافة الى حزم من العصبي يوقعونها على جلده .

ان موقف هذا النوع من المعتقلين سهلا لغاية بالقياس لاولئك الذين بحوزة المحققين عنهم وشايات واعترافات ومستمسكات . ويزداد الامر صعوبة عندما يعتقل مناضل وطني بسبب اعتراف زميل له عليه .

قلنا في مكان سابق في هذا الكراس ان المناضل يواجه المحققين في قبو التعذيب كفرد ، وكحالة فردية ، وهو نفسه موضوع التحقيق امام الجلادين ، وهو نفسه مركز الصمود او الانهيار ، وان كل العصي التي وقعت

على جلود الاخرين والتي يمكنه ان يتصورها لم تسبب له الما واحدة ، وان جوعهم وعطشهم لم يجفف جلده . ان فرديته المتميزة عن غيره والمستقلة استقلالا تاما كوحدة بشرية في ارتباطاتها السياسية والحزبية والعقائدية هي التي تواجه التحقيق ، وما كل المعلومات والشهادات التي تملكها اجهزة التحقيق ضده ، الا وسائل تستعملها حينما تشاء لمحاصرته ومهاجمته لدفعه للاعتراف والسقوط وهي بالتالي تزيد من حراجة الموقف . ان وجود ادلة ما ضد المناضل لا يمكن ان تحرك لسانه ميكانيكيا لينطق بما هو مخفي ، ان لسان المناضل هو الذي يتحرك ، أو يصمت وهو يفعل ذلك اراديا ، وبالتالي لا معنى للقول بأن فلان اعترف لان آخر اعترف عليه فسيان كانت المعلومات من زميل او من عميل فأن (الخلاص) يكمن في الصمود وليس في الانهيار امام صفعات المحققين ما كان منها بالعصا او باللكمات او بالمستمسكات .

عندما يكون احد الزملاء قد اعترف بما عنده من اسرار أو بعضها فانه انما يكون قد قدم خدمة للعدو ، وهذا لا يمكن ان يشكل مبررا للمعتقلين الاخرين ليقدموا هذه الخدمة مهما كانت الظروف المحيطة بمناخ التحقيق .

والان لننظر للمسألة من داخلها : عندما يقدم معتقل

(أ) معلومات واعترافات تؤدي لاعتقال (ب) فان هذه المعلومات والاعتراف المشين بها انما شكلت عاملا مهما ادى الى اضعاف حلقات في عمل المنظمات ومن بينها اعتقال مناضلين ما كانت السلطات تعرف عنهم شيئا لو لم يقدم عنهم الاخبار الضارة . وبالتالي أصبح (ب) في قبضة التحقيق . فاذا كان عمله هذا مشينا وضارا كما اسلفنا فلا يصلح لان يكون قدوة يحتذى بها . ومن ناحية ثانية فان انفراط احدى (حلقات المسبحة) من وجهة نظر المناضل الثوري ، يعني مزيدا من المسؤولية والتضحية من اجل الحفاظ على ما يمكن الحفاظ عليه ليكون المناضل

(ب) في هذه الحالة سدا لا تقوى سلطات التحقيق على النفاذ منه بحال من الاحوال . فالامر اذن يتطلب (حسام للحمى) وليس شخصا يشكل صيدا سهلا ويجهز على البقية الباقية من شرف وعزة . وبالتالي فان ادعاء (ب) في حالة انهياره بأن دفع ما لديه للمحققين لان (أ) اعترف عليه انما يدل فقط على جبنه ونذالته وسقوطه كما هو الحال لدى الاول بالضبط .

ان ظاهرة الاعتراف السهل من قبل احد المناضلين المقرونة باعتراف آخر عليه قد شكلت ولفترة غير قصيرة غطاء ممزقا لعدد من المناضلين الذين اعترفوا بما ادلى به عنهم رفاقهم ، وتبرعوا من عندهم بما يمكن التبرع به وتقديمه لرجال التحقيق . ان كون سلطات التحقيق تعرف هذه المسألة او تلك لا يشكل ممسكا لا راد له ، وان افضل المخارج في هذه الحالة وفي كل الحالات في التحقيق هي نفي وانكار اي معطيات تفصح عنها المخابرات .

وكذلك الامر بالنسبة لاعتراف معتقل عن غيره ومواجهته بما يعرف عنه امام المحققين :

١ ــ المعتقل ، اي معتقل غير مجبر في الواقع على الادلاء بشهادة مواجهة على غيره لان المحقق يخشى ان تسير الامور اثناء المواجهة على غير ما يرغب ، فقد يشعر المعتقل بالاسف على نفسه ويتراجع في اللحظة الاخيرة وبدلا من ان يساعد المحققين يخذلهم . ومن ناحية ثانية ولو جرب المحققون ارغام المعتقل على المثول امام رفيقه فأن بامكانه ان يقول ما يساعد رفيقه بدلا من توريطه ومحاصرته لان المحقق لا يستطيع تحريك اللسان في النهاية .

٢ ــ يمكن ان تشكل المواجهة المباشرة عاملا محفزا لكلا المعتقلين على الصمود فيتحول المعترف الى منكر ، امام زميله حيث يشعر بمشاعر تصلب مواقفه فيستمد العزم من زميله الصامد .

٣ ـ تخشى المخابرات ان تكون نتائج المواجهة ، تعريفا للمعتقل الصامد بالحدود التي وقف عندها المعتقل المعترف .

٤ ـ مواجهة المعترف بغير المعترف لا تزيد او تقلل من الوضع العام في التحقيق بل قد تكون احيانا لصالح المعتقل غير المعترف لان المخابرات تكون قد رمت بورقة لديها فاذا فشلت فلا تكون قد خسرت ورقة هامة . والذي يفشلها هو استمرار صمود المعتقل وعدم تأثره وتأثر مواقفه بالمعطيات المقدمة .

وبالطبع ليست قليلة الحالات التي يبادر فيها المعتقل الصامد الى الهجوم بالضرب على المعتقل المعترف بعد ان يفرغ قذارته بدلا من الانهيار والاعتراف .

وهكذا تفقد التبريرات التي يقدمها المعتقلون المعترفون عن وضعهم وزنها وقوتها امام الوقائع والتجربة، وأمام الموقف الانساني الثوري البطولي ولا يتطلب الا الصمود والثبات ، وموقف الدفاع الحديدي عن المنظمات المناضلة وشخوصها .

٥ ـ ليس جاسوسا بل اعترف في التحقيق !

شخص يقال له الصباح ، اعتقل وادت اعترافاته الى ضرب واعتقال ستين مواطنا دفعة واحدة ، واثناء التحقيق معهم واجههم ، وابلغهم بأن (كل شيء قد انتهى ولا فائدة من الانكار) ومعظمهم اعترف بما عنده . وفي السجن ترد اسمه على الالسنة تفسيرا وتحليلا لموقفه ، فرد بعضهم على من اعتقد بانه متعاون مع السلطات ، بانه ليس متعاون ، انه فقط اعترف بما عنده وانهار ، فلماذا التشويهات ضده ، انه ليس عميل . هكذا وبكل بساطة حسم صاحبنا الموقف واعطى تفسيرا محببا ومقلوبا عن ظاهرة حدثت عشرات المرات ، وعن شخص سلم سلطات التحقيق ستين مواطنا نشيطا ضد الاحتلال. وقد يبدو هذا التفسير مقبولا لمن يرغب في الالتفاف على الحقائق بدلا من مواجهتها بعلمية ، وخاصة انه يريح

صدر الكثيرين ممن فعلوا هذه الفعلة عبر سنوات الاحتلال والاعتقال والتحقيق .

لقد اجمع كل الثوريين في كل انحاء العالم بأن الاعتراف لسلطات القمع بالانشطة السرية ، وتقديم المعلومات لها عن المنظمات السرية واسرارها ونشاطاتها واعضائها وكيفية تفكيرها ، من خلال التحقيق ، انما هو مساعدة لهذه السلطات وتقوية لها وتنفيذا لمآربها ، وضد الحركات الثورية ومعاد لها ومثبط لنضالاتها هذا من الناحية العامة . اما من الناحية الخاصة وعلى مستوى الفرد الذي يواجه التحقيق ، فانه باعترافه وادلائه بالمعلومات انما يقف في صف الرجعية والاعداء ضد الرفاق والحركة الثورية . انه يفقد ثوريته ، يتخلى عنها ويتحول الى ذليل لمجرد استعداده بالاعتراف ، ويتحول الى عدو موضوعيا منذ ان يبدا بالتقيؤ ارضاءا لاسياده المحققين او خوفا من الضرب والتعذيب . انه يتحول من ثوري الى عدو للثورة ، يتحول من مناضل من اجل الحرية والاستقلال الى باحث عن خلاص ذاتي انانى ليحمي جلده وفي غالب الاحيان لا يستطيع توفيره هذه الحماية ، لا حماية جلده من الضرب ، ولا حماية نفسه من الاعتقال . وها هي الحقائق القاسية تتكلم عن نفسها فبقدر ما يدلي الشخص من اعترافات للمحققين ، بقدر ما يسجن وتتخذ ضده الاجراءات القمعية الاخرى حيث لا ينفع الندم بعد ان يثبت للمرء ان خير حماية كانت وحتى على المستوى الفردي الانانى هي الصمت المطبق عن كل اعتراف مهما كان الثمن .

لقد ذكر في كان سابق من هذا الكراس حقيقة ان نسبة كبرى ممن يقبعون الان في معتقلات العدو قد اوقع بهم زملاء لهم ، اعترفوا عنهم وعن نشاطاتهم وان الدخول الى السجن بالمجموعات الكبيرة كانت ظاهرة قائمة وان تكن قد تقلصت هذه الايام لاسباب عديدة . خلال النصف الثاني من عام ٧٥ أودع سجن الخليل ٨٣ سجينا جاؤو

على شكل مجموعات كما يلي ٢٤،١٦،١٦،٩،٧،١١ . وسجن رام الله ٩،٩،١٣،١٧ وسجن جنين اعداد ٤٤ شخصا في مجموعة واحدة سنة ٧٦ ، وستين مجموعة واحده ، ولم يكن حظ سجن نابلس وطولكرم قليلا اماسجن غزة فقد أودع فيه عشرات المجموعات التي تعد الواحدة بالعشرات اثناء سنوات ٦٩،٧٠،٧١ وبعد ذلك ايضا .

وقد شكلت اعترافات كهذه ضربات مميتة للمنظمات المناضلة كانت ولا تزال سببا في تخلف عن القيادة السياسية التامة للساحة رغم استعداد الجماهير الذي لا ينضب .

فاذا كانت اعترافات كهذه تشكل ضربات قاتلة ، فانها ايضا ضربات معادية وبالتالي فان المنهار هو متعاون بدرجة من الدرجات مع الاحتلال لاسباب خاصة وفي ظروف خاصة ، ويعطي تعاونه هذا اقبح وأسوأ النتائج في جميع الظروف . وكما هو موضح اثناء عرض اساليب التحقيق، فان الاعترافات تبدا في مناخ (التعاون) الذي يخلقه المحقق بينه وبين المناضل هذا التعاون الذي يتطور بالتدريج ويتضمن بالتالي انهائا الصراع لصالح المحقق ، والانسجام بين المحقق والمعتقل وخلال ذلك يسكب المعتقل معارفه على رجل التحقيق ويغمره بها لتشكل له نيشان انتصر . فالاعتراف اذن والانهيار والتساقط ، حالات تعاون بين رجل المخابرات والمواطن ، ضد المنظمة واعضائها وممتلكاتها ، وهذا ما يقوم به اي متعاون مع سلطات الاحتلال خارج او داخل السجون . وهكذا تسمى الاشياء بمسمياتها عندما نواجهها مواجهة الخبير العارف ، مواجهة الجريء الناقد .

وعلينا ايضا ان نسمي الاشياء بمسمياتها وبدون مواربة ، حينما يعتقل مناضل وطني مارس نضاله بحيوية وفاعلية وحماس قبل اعتقاله وقدم خدمات جليلة الحركة النضالية في ميادين متعددة ، ثم يتهاوى في التحقيق ، ويضرب كل شيء ، ويشي بكل ما يعرف ، ويكشف للعدو

حقائق واسرار فان هذا يعني انه كان مناضلا ثم تحول الى ذليل وخسيس ، انتقل من ساحة النضال مع الثوار الى ساحة اخرى ساحة ضرب الثورة ومساعدة اعداء الثورة ، لقد قدم خدمة جليلة للثورة حينما كان في صفوفها ، وعندما انفرد به المحقوق لم يحفظ شيئا من ارتباطاته الثورية ، ولم يضع نصب عينيه حماية نضاله وتاريخه وكفاحه الثوري ، بل تساقط تحت ضربات العصي وخان نضاله وتاريخه وكفاحه الثوري . وبعد أن كان قد دوخ العدو في ساحة الكفاح المفتوحة ، دوخ الحركة الوطنية باعترافاته ووشاياته حينما انتقل الى اقبية التحقيق وقام بهذا الدور بالضبط مثله مثل مناضل آخر يشتريه العدو لسببه من الاسباب أو عميل مدسوس في صفوف الثورة ويعمل معها ، ويقوم بكل ما يطلب منه ، ليقوم في اللحظة المواتية بتسليم كل شيء لاسياده ليس من فرق في النتيجة بين هذه الاصناف ، وان كان هناك فرق فهو فقط في ماضي كل منهم .. هذا ماضيه نضالي وذاك لا . انه سقوط صعب ، بل سقوط من قمة عالية وتيجته التحطيم ، الساقط يتحطم ، وما يسقط عليه يتحطم ايضا .

أن النضال عملية متواصلة ، ويمر بمراحل متداخله ومتنوعة ومتغيرة ، وكذلك المناضل الذي يعيش الحالة النضالية بتنوعها ، ويتربى على هذا الاساس ، فاذا ما دخل في امتحان صعب وهب نفسه للنضال اكثر فاكثر ليتعمد ليس نضالاته فحسب بل ونضالات شعبه وحركته الثورية والا تكون النهاية .

أن الاعتراف في التحقيق هو سقوط مشين وادانة وعار في الجبين .

٦ ـ المساومة والبيع

حينما يعتقد المحقق ان بامكانه الحصول على اكمل

المعلومات التي يحتاجها من المعتقل قيد التحقيق ، وحينما يظن ان استمرار الجلد والتعذيب قد لايعطي الثمار المرجوة وحينما يدرس شخصية المناضل الذي أمامه ويلاحظ اشتداده القوى لذاتيته الفردية وخوفه على نفسه ومصيره ومستقبله ، وخوفه على جسده ، وبعد أن يلاحظ المحقق ان الانتقال المفاجيء للمناضل من حياة النضال الرحب في الساحة الى اقبية التعذيب والزنازين قد فعل فعله في الحالة النفسية والمعنوية للمعتقل ، يلجأ الى عقد صفقة مشبوهة ، سواء كانت وهميه من جانبه أو حقيقية أي سواء قصد بها تضليل المعتقل والحصول منه على ما يشاء، وامتصاصه وقذفه في النهاية كما تقذف النفايات ، أو بقصد البداية الهادفة الى إحكام تساقط المعتقل وتحويله الى أداة دائمة بيده يضرب بها جسم الثورة كلما استطاع.

ان المحقق الذي خبر التحقيق جيدا ، ويستطيع الاستفادة من حقيقة كونه السلطة المسلحة بالادوات القمعية الفاشية ان محقق كهذا يسعى في الغالب نجاح مزدوج : انجاز مهمة التحقيق والحصول على المعلومات والاعترافات على اكمل وجه ، وتحطيم شخصية المناضل ومثله ومبادئه وارتباطاته الثورية . هذا هو دوره القمعي وعلى هذا يمارس وظيفته .

ان المحقق في سياق عمله كما يلجأ للترهيب يلجأ ايضا للترغيب وكلا الممارستين تحتاج لتحقق اثرها الى شروط محددة تتعلق بالمعتقل ومدى تجاوبه للترهيب أو الترغيب ، والمحقق يفترض الحالة ويجرب ، يجرب الترهيب مثلا فلا يعطي ثمارا وفي وقت آخر يجرب الترغيب ، او التقليل او التكثير او التشكيك او اي شيء يعتقد انه يمس صمود المعتقل ، وان الحالة الحاضرة للمعتقل قابلة للتأثير عليه. وهذا يعني ان الترهيب والترغيب ليس الهدف النهائي وان يكن نهجا وانما هو في حقيقة الحال وسيلة لاخضاع المعتقل والحصول على ما يخبئه في صدره . فحينما يقول لمعتقل هات ما عندك وسافرج

عنك لا ينطلق من شفقته على وضع هذا المعتقل وان تظاهر بذلك كحالة الصياد والعصافير وحينما كانت عيناه تدمع ويداه تذبح ، أن المحقق انما ينفذ مهامه الملقاة على عاتقه في عملية التحقيق .

وكثير من المناضلين يصلون غرفة التحقيق والخوف قد طغى على كل كيانهم سلفا ، بعضهم يتجاوز حاجز الخوف يعني اجتياز حالة الخطر ووضع القدم الاولى في طريق التغلب على كل صعاب التحقيق . ان هؤلاء الذين تستمر عندهم حالة الخوف هم المتوقع سقوطهم في براثن الاعيب المحققين ، وهم الذين يمارس عليهم الجلادين اساليب الترهيب والترغيب والتهويل والتكبير بغية الاحكام التام على خناقهم والاجهاز التام على اعصابهم وقدرة تحملهم وهم الذين يشاهدون المحقق كمن يشاهد الرهبة والغلظة . انهم يعتقدون ان المحقق قدر محتوم يصيب بكل سوء رهيب لا يمكن تحملة ، ويعتقدون انه كالرب على كل شيء قدير يقبض ويبسط يحبس من يشاء ويطلق سراح من يشاء ، يعذب من يشاء ويعفو عن من يشاء بيده القوة والجبروت وهو على كل شيء قدير .

في ظل اجواء الرهبة هذه والتي يعززها المحقق قدر ما يستطيع ، تذبل شخصية المعتقل ، ويتضائل حجمه كمناضل ، واذا ما انصرف الى ذاتيته تقع الطامة الكبرى ويأخذ المحقق في مساومته وحجم المساومة يعتمد على عناصر .

١ — نوعية المعتقل ووضعه النفسي ودرجة تماسكه .

٢ — نوعية القضية التي يحقق بشأنها المحقق .

٣ — النتائج المتوقعة من اعتراف المناضل .

٤ — الهدف النهائي تجاه المعتقل نفسه وهل يرغبون في اعترافاته فقط أم في اعترافاته كمقدمه لكسبه لصفهم .

ان غاية المحقق من المساومة هي تدمير المناضل واسقاطه والحصول على كل الاسرار التي لديه والحصول على تعاونه جزئيا او كليا . وقد يخفي المحققون احدى اهدافهم كتعزيز لامكانية الحصول على اهداف اخرى . فهم قد يكتفيون بتحويله الى جاسوس في البداية مقابل وقف التعذيب والافراج عنه ، لان الحصول على المعلومات فيما بعد سيكون سهلا وعلى شكل تقارير يقدمها المتساقط نفسه . او قد يحصل العكس فيحلبون كل المعلومات التي لديه ولا تستمر المساومة بل تؤجل الى حين آخر وليكن بعد الحكم بالسجن أو حتى بعد خروجه من السجن وقضاء مدة محكوميته . وقد تكون المساومة محدودة جدا بأن يكفوا عن ضربه تعبيرا منهم عن (حسن النية) وتقديم سيجارة له وهو بالمقابل يقدم ما لديه . وقد تكون المساومة بأن يعترف هو عن كل الاشخاص الذين يعرفهم مقابل تعهد صوري بأن يخفوا امر اعترافه عن زملائه ويوهموهم بأن شخصا آخر هو الذي وشى بهم .

وفي جميع الاحوال ، ومهما كان حجم المساومة ، ومهما كانت الحالة التي تمت بها فان هدفها الحصول على تعاون المناضل مع اعداء الحياه وجره الى مستنقعهم واسقاطه فيه ، أن مجرد قبول المساومة قد يكون كافيا من وجهة نظر المحقق يبني عليها ما يشاء من تصورات واحكام ، ومجرد قبول المساومة يعني بداية السقوط الوطني والانهيار .

ان حقيقة كون المحقق لا يلتزم بما يتعهد به للمناضل مقابل اعطائه الاعترافات . وزج (المناضل) المساوم في السجن واخضاعه لكل العقوبات التي يتعرض لها المناضلون الذين لم يساوموا لا تعفي المساوم من حجم مسؤوليته ، ولا تعيداً له نفسه الوطنية . أن المساوم انما يسقط من الصف الوطني ويتحول الى خرقة بالية سواء استمر خدمة الاحتلال أم اهمله رجال التحقيق ولم يعودوا

اليه ، ونفسه تظل في العذاب وهو يظل في ثوب الخزي والعار .

هناك مساومات جزئية جدا وحقيرة جدا وتدل على مدى سذاجة المعتقل ، واستعداده للسقوط . فاحدهم واثناء التحقيق معه طلب من المحققين ان يكفوا عن تعذيبه وهو بدوره سيسلمهم اسلحة لديه مقابل (شرط) ان لا يهدموا بيته لان بيته جميل وبناه بعرق جبينه . والمحقق وجد طريقة سهلة بل اكثر سهولة من السابق وهو الذي كان يظن انه لن يحصل على شيء . أن دفع هذا المسكين للكلام لا يحتاج لاكثر من تقديم وعد وليكن حتى مشفوعا بالقسم بالشرف العسكري ليطمئن صاحبنا . وعندما قدم لهم الاسلحة كان لابد له ايضا شاء ام ابى ان يقدم معلومات عن مصدرها وعن الاشخاص الذين جلبوها مع انهم وعدوه في السابق بأن لايسألوه هذه الاسئلة ، وبعد أن وشى بهم كان عليه ايضا أن يقنعهم بالاعتراف ويواجههم بما لديه من معلومات والا (فان الضابط المسؤول لن يقتنع بالعفو عن البيت الجميل) وبعد ذلك لا بد له ان يقدم افادة توضح انتمائه ونشاطاته هو فهذه الاسلحة مستعمله وان لم يوضح (فلا يستطيعون حماية بيته الجميل هذا) وبعد أن فرط كل المسبحة ، وقدم كل ما لديه نسفوا بيته ثم اقنعوه ان نسف البيت خيرا له ، فما داموا قد نسفوا بيوت اصحابه فمن غير المعقول ان يبقى بيته والا يشك فيه اصحابه فهم وحرصا على مصلحته وصونا لسمعته لم يجدوا امامهم سوى أن ينسفوا البيت وفي هذا الخير العميم له . وبالاساس فانه لن يحتاج هذا البيت في الوقت الحاضر لانه يقضي في السجن عقوبة بالسجن المؤبد بتهمة حيازة اسلحة ، والقيام بعمليات ونشاطات . ان غالبية المساومات بل ٩٩ ٪ منها تواجه هذا المصير . وعود وتعهدات من قبل المحققين ينتهي مفعولها عشرات المرات اثناء التحقيق وتجدد ، ثم ينتهي مفعولها بنهاية التحقيق .

غير انه في حالات اخرى يلجأ المحققون لمساومة مناضل وجدو بحيازته مستمسكات مادية ، او يعرفون عنه معلومات هامة تؤكد بأن لديه اسرار كثيرة ، ولكنه يصمد في التحقيق ولا يعترف بشيء ، وحينما يلاحظ المحققون انهم فشلوا او يكادوا يلجأون لطرح اوراق المساومة لعلها تجدي وهي في هذه الحالات تواجه آذانا صماء ، بل تزيد المناضل صلابة وثباتا .

ان المناضل الثوري الملتزم ، المنتمي ، المؤمن بقضيته التي يناضل من اجلها لا يمكنه ان يتصور نفسه في وضع يساوم فيه على الثورة واسرارها ، وعلى تضحياته وتاريخه النضالي ، انه يدخل الى التحقيق وهو مدرك انه مقبل على معركة تحدي ، يحتقر ضباط التحقيق بسبب لا اخلاقيتهم ولا انسانيتهم ، ولانهم ادوات قذرة بيد سلطة عفنة وعنصرية ، انه لايجلهم في نفسه ولا يخشاهم، ويعبر لهم في كل لحظة عن احتقاره لهم واشمئزازه منهم ولا مجال بالتاليللدخول في اية احاديث عن المساومات .

٧ ــ وجدت كل شيء امامي :

(اعتقلوني ! لا اعرف لماذا ، ولا اعرف اي سبب لاعتقالي ، قلت في نفسي مهما يكن فلن اقول لهم شيئا ، وعندما جلست امام المحقق ، وجدت انه يعرف كل شيء فكرت في نفسي وقلت لا فائدة من الانكار ما دام كل شيء مكشوف ...) بهذه الجملة القصيرة ، يشرح احدهم كيف انهار وادلى باسراره للمحققين ، وسلم نفسه ومصيره لايديهم القذرة الفاشية . فالصورة في ذهنه أن لدى المحقق معلومات ، وسواء انكرها أو ادلى بها سيان (فالمحقق) يعرف ولن يضيف له صاحبنا شيئا !؟! اي أنه هو نفسه غير مسؤول عن كشف الاسرار ! من جهة ، ومن جهة اخرى فأن موقف المحقق موقفا قويا ويستند على حقائق وبالتالي

لن يكف عن التحقيق الا بعد الاعتراف . ولكن بهذه الجملة القصيرة كشف صاحبنا عن جبنه وخيبته ، انه بهذه الجملة اعترف امام الزملاء بانه تعاون مع المحقق وتساوق مع مخططاته والاعيبه سواء عن طريق الخدعة ، أو الخوف او سوء التقدير في احسن الاحوال .

أما ما يتعلق بالخدعة والخوف فيجب أن لا تمر على مناضل يعرف عدوه عن قرب ويشاهد ويلمس ممارساته يوميا في الشارع والمدرسة والحارة والبيت وفي كل مكان . غير ان مسألة سوء التقدير هذه هي التي تستحق الاهتمام وخاصة ان في حوادث كالمذكورة اعلاه يلعب سوء التقدير دورا كبيرا في الدفع للاعتراف . فالمعتقل يقدر ويناضل بين أن يتحمل التعذيب والضرب لاخفاء مسائل مكشوفة كلها او بعضها ، وبين أن يدلي بها من البداية ويستريح ظنا منه ان الامر سيان وان الانكار وعدمه يعطيان نفس النتيجة ، وبالطبع فان هذا تقدير خاطيء وسيء ويؤدي الى العار والخزي في النهاية ولا يصلح لتبرير الاعتراف حيث ان الاعترافات على العموم لا مبرر لها .

يمكن ان يكون لدى المحقق معلومات جمعها عن طريق المتابعة ، او وقعت بايديهم وثائق ، او بين المجموعة المناضلة يوجد شخص مدسوس ، او احد الزملاء اعتقل قبله ودون علمه وافشى اسراره او أن المخابرات قدرت وضع صاحبنا تقديرا واقعيا معقولا وهذا هو الارجح وتحدثوا امامه بكلمات ايحائية تنطبق على كل الناس من امثاله .. أن هذه ليست هي المسألة الجوهرية ، فعلما لدى المخابرات اسباب لاعتقال المواطن الفلسطيني مهما كانت مفتعلة ، وما دام المرء وصل التحقيق فسيتعرض لاسئلة ، وسيتظاهر رجال التحقيق بانهم يعرفون كل شيء وهذا هو دورهم .

أما دور المناضل فهو الصمود والصبر والتحدي وليس الوقوع في الفخ بعد الاستماع لبضع جمل او بضع

تهديدات ، اذا كان اعتراف المعتقل غير لازما ، فلماذا يحققون معه ، واذ كان انكاره لا يؤثر على وضعه فلماذا يصرون عليه بالاعتراف وكتابة افادة بما يقول ؟ أن المعتقل هو قطب آخر مقابل للمحقق ، واعترافاته هي نتيجة لخسرانه في الصراع الذي يخوضه ضد جلاديه ، أن الاعتراف كنتيجة لحالة المعتقل في الصراع وموقفه فيه يشكل الضربة القاضية التي يسعى المحققين لتوجيهها لصدر وقلب المعتقل .

أن دور المناضل الذي يواجه التحقيق لا يختلف في المحصلة النهائية في اى حالة من الحالات عن غيره الا بقدر ما يولد زيادة في العزم على الصمود ، فموقفه في التحقيق حينما يعترف عليه رفاقه بشيء ما ، وموقفه عندما يضبط بحوزته مستمسكات ، أو عندما تتظاهر طواقم التحقيق بانها تعرف عنه كل شيء ، أن موقفه في جميع هذه الحالات هو الصمود والدفاع عن شرف الثورة وحماية الرفاق من الوقوع في براثن العدو وأسرهم. أن حماية الحزب واعضاءه وانصاره ، ونضالاته واسراره تظل في جميع الاحوال تشكل حافزا قويا ومتناميا على الصمود والصبر والتحدي ، دفاعا عن معاقل الثورة ورجالاتها ، ودفاعا عن الذات الثورية وتاريخها النضالي وتضحياتها المقدسة ، فليس الرضوخ للامر الواقع هو المطروح في التحقيق ، بل تكذيب كل ما يقوله المحقق وتشكيكه في ملوماته وانكار اية اقاويل او ادلة تقال مهما كان الثمن وحشر المحقق في الزاوية ، في موقعه الطبيعي كخاسر للجولة لا كاسبا لها ، وتيئيسه من احتمال الاستفادة من استمرار التحقيق وليكن ما يكون ، المهم ان يخرج المناضل من اقبية التحقيق مرفوع الراس مصان الشرف ليكون فخرا لرفاقه وحزبه وشعبه .

أن بعض المناضلين يعتقلون ويتركون ورائهم البلبلة والخشية من انهيارهم مما يضطر رفاقهم لاتخاذ احتياطات الامن رغم الثقة الكبيرة بهم . الا ان البعض يعتقل ويظل

في التحقيق كل مدة التحقيق دون ان يغير الحزب شيئا او يتخذ اجراءات احترازية وذلك بسبب الثقة العميقة وشبه المطلقة بصمود وعزم هذا النوع من المناضلين : انهم يكونون في الحقيقة سورا وسدا منيعا لا يمكن أن تنفذ المخابرات من خلاله للحزب واعضاءه هؤلاء هم شرف الحزب الذين يصمدون ويضربون اروع آيات البطولة فلا خوف عليهم ولا منهم ، وهؤلاء هم الابطال الحقيقيون ، وكل من يصمد في التحقيق له شرف الانضمام الى كوكبة الابطال هذه بكل فخر واعتزاز .

نعم ان الفصائل المقاتلة ومناضليها يتعرضون لتحقيق وحشي وهم مستهدفون في كل الاحوال ومخابرات العدو لا تتورع عن استخدام ابشع واحط الاساليب لاعتقالهم وانتزاع الاعترافات منهم . ولكن العضوية في فصيله تتطلب صمود بطولي ومعدن صلب للقيام بالمهمات خارج المعتقل ومواجهه التحقيق بعد الاعتقال . فمن لديه الاستعداد للمؤبد وقضاء سنوات طويلة في المعتقل وهدم بيته عليه ان يكون بمستوى الموقف اثناء الاعتقال والتحقيق .

٨ ــ لم اعترف سوى على فلان اما الباقي فلا ادري من اعترف عليهم !؟؟!

ان الاعتراف على الغير وعلى اسرار الحزب التنظيمية والنضالية هي بمثابة الخيانة التي تقترف في موقف ذل وخساسة كتعبير عن حقاره المعتقل وتعاونه مع رجال التحقيق ، وسواء كان حجم هذا الاعتراف صغيرا ام كبيرا في نظر المعتقل ووفق تقديراته الذاتية فان الحزب سيعاني من هذا الاعتراف اشد المعاناة ، اما المخابرات فتكون قد امسكت بطرف الخيط وستظل تشده كلما امكنها ذلك سواء من خلال مجموعة المعتقلين المقبوض عليهم ،

او مع معتقلين يأتون في المستقبل ، وستظل تشده في مقاومة الحزب والمنظمات المكافحة بناء على معرفتها بمعلومات حصلت عليها من عضو في الحزب نفسه . ولهذا لا فرق ان قتل الجندي برصاصة واحدة او بصلية رصاص ما دام قد فارق الحياة ، ولا فرق في النتيجة بين ان يتلقى الحزب ضربة على يد عميل او على يد احد اعضائه علما بأن الضربة على يد الاعضاء اكثر ايلاما وايذاءا ماديا ومعنويا .

قد يرى احد المعتقلين في التحقيق وبناء على تقديرات ذاتية خاطئة ان يعترف على احد الزملاء من بين المجموعة التي ينتمي اليها ظنا منه انه بهذا العمل ان يوجه ضربة خفيفة للحزب وقد يقنع المخابرات بصدق نواياه فينتهي التحقيق . ولكن المخابرات تكون قد امسكت بطرف الخيط فتقوم باعتقال الزميل المذكور وتقدر من هم اصدقاء المعتقل الجديد والقديم وتعتقل عددا آخر من الناس من بينهم اعضاء الخلية ، ثم تحقق معهم وبعضهم يعترف عن آخرين وبعض الاخرين يشي باخرين وهكذا ... لتكون المحصلة عشرة او عشرين وربما اكثر . وعندما يسأل صاحبنا الاول يقسم اغلظ الايمان بانه لم يعترف سوى على فلان ، ولا يدري مطلقا كيف جاء الاخرون ، انه يحاول التملص من مسؤولية الاعتقالات التي حصلت بعده علما بانه هو المسؤول الاول عن حملة الاعتقالات هذه . واذا ما دون افادة باعترافاته المخزية هذه امام الشرطة واجهزة التحقيق فان افادته هذه ستكون ليس دليلا ماديا ضده هو فحسب بل وايضا ضد المناضل الاخر الذي لم يعترف على غيره . ولان قانون الاحتلال الحالي يجيز محاكمة معتقل بناء على اعتراف الغير فانه بفعلته هذه يكون قد قام بدور شاهد ملكي ، او شاهد خسيس على رفاقه امام محاكم العدو . ومن جهة الثانية فان اعترافه على رفيقه شكل سببا معقولا لاعتقال الاخرين ، وهو

مسؤول مسؤولية مباشرة عن وجود هؤلاء الاخرين في اقبية التعذيب ويتحمل كافة النتائج المترتبة على التحقيق معهم .

انه من العار ان يشي المعتقل بالغير ويدفع بهم الى مخالب العدو بنفسه ليكونوا عرضة لعسفه وتعذيبه وليكون الحزب معرض للاخطار .

ان الحزب الثوري هو شرف الشعب وضميره الحي الذي يجب ان يصان بالتضحيات والعرق ، وبالدم والحياه .

٩ ــ مجريات فنية

يفترض ان يجري القاء القبض على المناضل بعد اجراءات رسمية شكلية واوامر رسمية تسمح بدخول البيت وتفتيشه ، ولكن هذا قد لا يتوفر في جميع الحالات. المهم ان قوات الاحتلال ومعها رجال الامن يتوجهون للبيت الذي يظن أن المعتقل موجود فيه ، وفي حالة عدم معرفتهم للبيت فانهم يلجأون الى خدمهم المتعاونين معهم كالمختار او احد الوجهاء او العملاء ليدلهم على البيت حيث يطوقونه ويطرقون الباب ليدخلوا متظاهرين في الغالب انهم جاؤا لامر بسيط ومؤقت حيث تندفع قوات الاحتلال داخل البيت وتلقي القبض على المناضل ويقومون بتفتيش البيت وقلب محتوياته عاليها سافلها في جو ارهابي دون اية رحمة لصغير او كبير ممن في البيت . وبعد اتمام عملية التفتيش يطلبون من المناضل المنوي اعتقاله ان يوقع على اوراق تؤكد انهم لم ينهبوا شيئا من البيت (ومن اين له أن يعلم ذلك ؟) واذا ما ضبطوا في البيت اية اوراق او اشياء مشبوهة فانهم ايضا يطلبون منه ان يوقع بانهم ضبطوها بحوزته (عليه ان لا يوقع في هذه الحالة) ثم يشدون وثاقه ويعصبون عينيه ويقودوه الى السيارات التي تكون بانتظاره حيث يحكمو قيوده ويغطوه باشياء

من السيارة او يمددوه في ارضية السيارة العسكرية ويناوشوه بعض (المزحيات) الخفيفة او الثقيلة حسب المزاج . وبعد ان يصل الى السجن في الغالب يسلموه لسلطات السجن مع امر باعتقاله حيث تقوم سلطات السجن بتفتيشه وتسجيل اسمه في القيود ونقله الى قسم زنازين التحقيق ويودع باحدى الزنازين اما منفردا ان تيسر لهم ذلك او مع آخرين ان كانت الزنازين مكتظة . انه يصبح في عهده سلطات السجون من الناحية الرسمية والشكلية اما في الواقع فانه في عهدة المخابرات والمحققين حيث يتشكل له طاقم تحقيق يقوم باستدعائه بواسطة اوراق رسمية حيث يستدعى من الزنزانة ويجري رسفه بالقيود ويقاد الى غرف التحقيق وهي اما ان تكون في نفس مبنى الزنازين أو في مكان قريب منها او الى اي غرفة يمكن ان تستعمل لهذه الغاية حسب الظروف ، وحسب ازدحام اماكن التحقيق ، وهناك تبدا الجولة الاولى وتليها بقية الجولات على هذا المنوال . وغالبا كلما انتهت جولة يعاد الى زنزانته التي خصصت له يوم قدومه ، وقد يستدعى في اليوم مرة واحدة او عدة مرات، في النهار او في الليل ، وقد يبقى في غرف التحقيق اياما متواصلة دون ان يعاد الى زنزانته .

في الزنزانة تشرف عليه سلطات السجون ومن حقه ان يحصل على وجبات الطام والماء ، وان يستعمل دورات المياه كلما لزم غير ان هذا في الغالب غير متاح حيث تمارس سلطات السجون من جانبها ما تستطيع من مضايقات .

من الصعب جدا على من هو في احدى الزنازين ان يرى الاخرين او يعرف عنهم الا اذا صرح بصوت معلنا عن وجوده بطريقة او باخرى ، او بالمصادفة غير المقصودة فقط حينما يهمل الحارس قليلا حيث يستطيع السجناء ان ينادوا بعضهم بعضا مراعين ان لا يعرف الحارس مصدر

الصوت وهم بذلك يطمئنون بعضهم ويحثون انفسهم على الصمود والتحدي .

في غالب الاحيان يتعود السجين الجديد على زنزانته وظلمتها ووحشتها منذ اليوم الاول ويتعامل معها على انه مقره الى ان ينتهي التحقيق او ينقل الى زنزانة اخرى شبيهة بها . والسجين يكون في بر الامان في الزنزانة حيث لا يجري تحقيق هناك الا نادرا ، ولكنه ايضا يغير جوا حينما يخرج منها الى جولات التحقيق ليخوض معركة البطولة والشرف .

وغرف التحقيق هي غرف عادية غير مزودة بأي شيء خاص سوى موقعها المظلم او المنزوي ، يجري فيها التحقيق مع المعتقل ، والادوات المستخدمة في الغالب هي العصي والحبال والقيود واوعية الماء ، والماء البارد أو الساخن وادوات للصعق بالكهرباء ومستلزمات الشبح واكياس الراس ...

يمكن ان يجري التحقيق في اي مكان في السجن او خارجه ويمكن ان يبدأ منذ اللحظة التي يقبض فيها على المناضل او بعد وقت قصير أو طويل فلا يوجد حالة دارجة للجميع . ويمكن ان يقوم طاقم تحقيق ثابت بالعملية طوال الوقت ، ولكن يمكن ان يتغير المحققون كلهم او بعضهم وحال الانتهاء من التحقيق وبعد التأكيد من ذلك يجري اما الافراج عن المعتقل راسا او يسلم نهائيا لسلطات السجون حيث يودع السجن بانتظار الافراج ان كان صامدا في التحقيق او بانتظار المحاكمة ان افرغ ما لديه .

في السجن يوضع في قسم مخصص للموقوفين من امثاله والذين لم تتم محاكمتهم بعد واذا ما حوكم فانه ينقل الى قسم المحكومين او الى سجن آخر حسب مدة الحكم .

١٠ ــ لحظات حاسمة

في الحرب التقليدية يتعرض الجيش في صراعه مع العدو لخسائر بشرية ومادية ، وهو كلما تحرك أو قام باي دور يفقد من مخزونه في الطعام والشراب والعتاد والاليات والافراد وربما المواقع ، وهو يحتاج لاستمرار العمليات في اي مستوى كانت للتزود باستمرار بما يلزمه والتعويض الدائم عن ما يفقده ، وفي لحظات اشتداد الصراع يحتاج الى غطاء والى مدد جديد ، وهكذا يستطيع الاستمرار في الحرب واعادة تكوين نفسه مع كل غذاء للحرب يحصل عليه ، انه في الغالب يحتاج الى التزود بمستلزماته المادية والمعنوية من خارجه بالاضافة الى ما يستند اليه من قوة معنوية ومادية ذاتيه ، وخبرة ودربة وفن عسكري .

والمناضل في اقبية التحقيق يتعرض باستمرار لضغوطات جسدية ومعنوية نفسية وعصبية ، ولكنه يواجه حربه منفردا من ناحية وجوده وحيدا في مواجهة طاقم التحقيق ، وهو اذ زود اثناء حياته العادية والنضالية بالتعبئة والاعداد باي مستوى كان فانه هو وحده فقط الذي يزود نفسه بالقوى المعنوية اللازمة اثناء صراعه مع جلاديه في ظل ظروف تؤدي الى ان تعتمل في نفسه بواعث متناقضة ومؤثرات خارجية ذات آثار متناقضة : فانتمائه الوطني وتاريخه الكفاحي وعلاقاته وارتباطاته ، وحجم الامانة التي يحملها في عنقه واستعداداته للاستمرار في الكفاح ، وحقده على العدو ، ورفضه القاطع لخدمته والتعاون معه ، والحاق الاضرار المادية والمعنوية بالحزب والثورة كل ذلك يشده نحو الصمود . اما الضغوطات الموجهة ضده فهي تهدف الى اسقاطه وهي ليست بدون اثر في واقع الحال ولكن اثارها ايضا متناقضة وتتضمن ما يحفزه على الصمود ، وما يمكن ان يقوده للحظة ضعف ربما يليها استعداد ذاتي للسقوط .

ومن المعقول جدا ان تتفاعل هذه العوامل المتداخلة في نفس الانسان الذي يواجه التحقيق في اي لحظة وبكثافة وحدة قد تصل الى مرحلة يضع المناضل نفسه فيها امام خيارين من الناحية العامة ويتسائل : ايعترف وينتهي كل شيء (المقصود وينتهي التحقيق ومعه الانتماء الوطني والطبقي ، الانتماء الثوري) أم يصمد وليكن ما يكون . علما بأن ذلك لا يعني بأن المناضل يضع نفسه بالضرورة امام خيارين من نفس المستوى والوزن والقوة أو يتعامل مع هذه الخيارات حسابيا بل قد يعبر عنها على الاغلب على شكل (سأصمد ولن اعترف) او لا يمكن أن اعترف واخون ، أو من هؤلاء الاوباش حتى يدفعوني للاعتراف . وفي هذه الحالات المذكورة كامثلة لا يكون لدى المناضل أية استعدادات للاعتراف ، أو اختيار موقف الضعف بل أن اختيار موقف القوة واستمرار النضال يأتي كنقيض لتصورات عن موقف ، او موقف ضعف ورد حازم على تلك التصورات والمواقف . وليس مستبعدا أن تظهر الخيارات بشكل سلبي على شكل (الى متى استطيع تحمل وضع كهذا) ، هل استطيع الصمود ، الى متى ينتهي هذا التعذيب ، هل الافضل ان أقول شيئا ميا وابقى على الاشياء الاخرى ؟ .

بهذه الصورة أو بصورة شبيهة تعتمل التناقضات في نفس المناضل وتتظاهر وكأنها اختبار في لحظة اختيار ، وقد تجري هذه التفاعلات مكثفة والمناضل في الزنزانة وليس في قبو التعذيب ، أو وهو في حالة انتظار في احد الامكنة المستعملة لذلك ، أو وهو تحت الجلد مباشرة . وللاجابة على هذه الاسئلة اهمية حاسمة وشديدة الاثر وتحتاج إما الا قوة ارادة او فقدان لهذه الارادة . تحتاج الى قوة ارادة لان المناضل في وضع غير عادي ويتطلب الامر ارادة صلبة لاستمرار ثباته (على اية حال فالارادة سمة انسانية وموجودة عند الجميع) او يحتاج لان يفقد ارادته معنويا حتى يقبل لنفسه الانهيار والسقوط .

والارادة كالنبتة تنمو وتقوى ، أو تخبو وتجف ، وهي تحتاج الى غذاء داخلي وخارجي ، ولكن النبتة في حالات الجفاف تعتمد على مخزونها الداخلي ، وكذلك ارادة المناضل في التحقيق يمكنها ان تتغذى داخليا وتغذي جوانب الشخصية الانسانية . وهي لا تحتاج لغذاء مستحيل او بعيد المنال فالوضع العام في التحقيق يغذيها ويصلبها . ومعرفة الذات وموقعها في هذه الظروف يوفر الغذاء والقوة والصلابة ، وصورة الرفاق في ذهن المناضل ، صور النضال والتضحية ، والرغبة الحقيقية في حماية كل شيء تمد الانسان بعزيمة لا تقهر وعزم لا يلين .

ففي اللحظات الحاسمة ، لحظات القرار الذاتي تتدفق الى ذهنية المناضل الثوري صور أبطال النضال الثوري ابناء شعبه والشعوب المكافحة الذين صمدوا ويصمدون لكل اشكال العسف ، وتقفز الى ذهنه ذكرياته النضالية ، ذكرياته مع الرفاق واطفالهم وعائلاتهم ، صور رفاقه القادة يمدونه بالعزيمة والثقة بالنفس ، كلمات رفاقه المعبرة عن فخرهم به وثقتهم المطلقة بشجاعته وصلابته ، وثقتهم التامة بسلامة مواقفه في التحقيق المتوقع قبل أن يقبض عليه ، تقفز الى ذهنة نظرات الاهل الام ، الزوجة الاخوة الاخوات ، وهم يودعونه ليلة قبض عليه . تقفز الى ذهنه ايضا تصوراته عن ساعة لقائه المنتظرة مع اهله ورفاقه بعد خروجه من السجن وبماذا سيستقبلونه وكثير غير ذلك من الصور .

هذه الصورة وهذه الذكريات التي تستند على خلفية نضالية مدربة ، واستعداد مسبق للتضحية والصمود تمد الانسان بقوة معنوية لا تنضب تفعل فعلها في اللحظات الحاسمة المذكورة اعلاه وتزوده بارادة جديدة تضاعف قواه وصموده الى حب لا يقهر .

في هذه اللحظات فان الذي يحسم الموقف ليس حزم العصي التي يهيلها الجلادون على المناضل ، ولا اغراءاتهم

له بالافراج عنه بعد الاعتراف ومعاملته معاملة (حسنة) وانسانية ، أن الذي يحسم الموقف في التحقيق هي حالة الحسم التي تتم عند المناضل داخليا ، والتي يقوم هو نفسه وبفعل عوامل ومؤثرات تتفاعل في داخله ، يقوم بحسمها وهو منصرف الى داخليته . فهو نفسه الذي لديه الاستعداد المسبق للصمود ، وهو نفسه الذي يغذي هذا الاستعداد ويعمقه ، ولتأت بعد ذلك كل قوى الجلد والتعذيب فانها لن تستطيع ان تبتز حرفا واحدا مما هو مخفي ومصان في حرز حريز .

للمناضل رفاق واصدقاء وعلاقات وارتباطات ، وحينما كان يناضل مع رفاقه كان يحدوهم الامل بانهم يفعلون شيئا ما لازاحة ركام الزمن عن كاهل وطنهم وشعبهم ، يعضد بعضهم بعضا وفقا لانظمة النضال واستنادا الى الحماس الثوري والاستعداد النضالي ، والرفاق لا يتوقعون ان يكون وطنهم وشعبهم ، والرفاق لا يتوقعون أن يكون هو بلحمه ودمه الذي يوقع بهم بعد أن اعتقل . انه هو نفسه الذي يجدد لهم العهد وهو في اظلم الاقبية بأن يصونهم بجلده ولحمه وعظمه ودمه ولا يشي بهم أبدا فان حجب النور عن نبته فلتبقى النبتات الاخرى تنمو وتزهر لتجزل العطاء .

في حالة كما المذكورة اعلاه لن تجد عبارات المحقق (مئة أم تبك ولا امي تبك) ولن يكون للمثل القائل(السلامة مكسب) ولا كل العبارات المثيرة للفردية والانانية لن يكون لها اية مفعول ، فالسلامة ليست سلامة الفرد بل سلامة واستمرار الثورة .

نادر العفوري لم يبح بشيء ، على الجبال لم ينبس ببنت شفة ، محمد الخواجا بنى سدا بدمه بين الجلادين والحزب، محمد ابو عكر طحن الشيفرة والاسرار مع جسده . وابو عمر قال لجلاديه (لا) ولاؤه لم تصبح (نعما) . مواطنون عاديون تحولوا الى ابطال ، هؤلاء

وامثالهم رايات الصمود والصلابة والبطولة . كانوا مناضلين ثوريين ، وظلو مناضلين ثوريين بعد ان عمدوا ثوريتهم بصمودهم كانوا فخرا للثورة وظلو فخرا للثورة . وشعبنا قدم من نماذج هؤلاء الكثير الكثير ومن مختلف المنظمات والاحزاب الثورية .

المناضل الثوري ذكرا كان ام انثى يغذي نفسه بماضيه ، حاضره ومستقبله على انه وقود للثورة حيثما كان يقدم نفسه تأجيجا لها ، ويقدم نفسه كذلك حماية لها، وانه ايضا بطل من ابطالها في الظل يزاح عنه الستار كلما قدم بذلا وتضحية ليصبح رمزا في آخر المطاف ، وشعلة يهتدى بنموذجها في الميدان الذي عمد فيه نضاله بالشجاعة والتضحية والصمود .

هذه الصور هي عنوان اللوحة العامة التي ترتسم في ذهنية المناضلين في ساعات الشدة وتمدهم بالدم الاحمر الذي يغذي جسدهم في بحر المعاناة البطولية التي يحفرون خلالها اعمق السبل ليسير عليها من يواليهم .

لحظات حاسمة تمر في خاطر المناضل تندفع خلالها والى المقدمة الصور الحية للحياة النضالية فتطفى على كل ما عداها لترتسم السعادة على الشفاه ، وتملأ كيانه حبا وفرحا رغم العصي واللكمات المنهالة فيرى نفسه من خلال عصابة العين ويرى الرفاق والحزب ، ويرى الدنيا كلها من منظاره البطولي المفعم بالامل بحياة جديدة .

يتكثف المستقبل كله ، ويتجسد القول الفصل متفجرا من الحاضر المعاش كنتائج للماضي ومداخلاته ، يتكثف الزمن ويكشف عن كل ما باحشاءه فتكاد صورة المستقبل تشرق ممسكة بيد الراهن تسحبه الى درجات اعلى ، والسياف يرفع يده ليجهز على كل شيء او بعض

شيء ان استطاع . وحروب الثورة في كل مكان تشتعل لهبا احمر قان كلون الورد الذي يزهر في حديقة النفس الانسانية املا وايمانا بالصعود الى القمة وانبلاج الفجر من احشاء وحشة العتمة ، فتنغلق الزنازين على من فيها ليخرج منها الابطال ، ابطال الصمود والتحدي بعد ان قالوا كلمة الفصل ...

كل العالم يتجسم ، ومن عزم الثوار يبدو وكانه متاح لقبضة اليد تمسكه باحكام قوانين الحياة الاجتماعية، وقوانين الثورة ، كل شيء قابل لان يقاسى ويدرك ويرى ويسمع من خلال جدران الزنازين المبطنة بالدماء المزوجة عرقا ، المزوجة عزما ، يقارع الحديد والسلاسل .

في هذا العالم الكبير المقسم ، يظهر الجلادون كحثالات من البشر ، مرتزقة وعبيدا ليس اكثر . يظهرون هكذا ، ويدركهم المكافحون من اجل الحرية بهذه البساطة والعصي بأيديهم قشا ، فيقع الجلد على الجسم بردا وسلاما لا يقل من عزم المناضل شيئا ، يقع الجلد بالعصي مذكرا وفي كل لحظة بفاشية الاحتلال والرجعية وعدالة النضال ضدها وبكل الوسائل والسبل .

هنا يتعمق الموقف النضالي ، هنا يتعمد الصمود والاصرار ، هنا تزداد والمواقف حسما ووضوحا بقدر ازدياد حدة الصراع .. الصراع بين الاستمرار الثوري من جانب الثوري ، وهدم هذا الوجود من جانب الجلاد ولكن الفرصة قد فاتت ، وكل شيء يحمل في داخله ضده فكل ضربة عصى تبني طوبة جديدة في الحاجز الذي يفصل بين الجلاد والثوري ، ومع كل حزمة عصا قسم جديد وعزم جديد على الصمود والصبر والاصرار على استمرار الثورة والنضال حتى يهدم بنيان هؤلاء الجلادين لتنبت مكانه ازهار الحرية .

هنا وفي هذه الاوضاع الصعبة والاماكن الصعبة تتصارع الارادات : ارادة الهدم وحفظا على بنيان الظلام وارادة البناء .. والاصرار على اضاءة الشموع . وهنا في الزنازين تتصارع النتائج ايضا : فالعدو يبغيها مقبرة للثورة والثورية لكنها وطوال التاريخ كانت وستظل مدرسة للثوار ينهلون من علمها وينطلقون فيضيع الدليل من ايدي اعداء الحياة . أما الثورة فتستمر . فلا غرفة التحقيق ترهب ، ولازرد السلاسل يمنع استمرار الاحتراق على مذبح الثورة حتى تطلع الشمس فان تأخرت فلتضاء الدنيا بالشموع الثورية المحترقة .